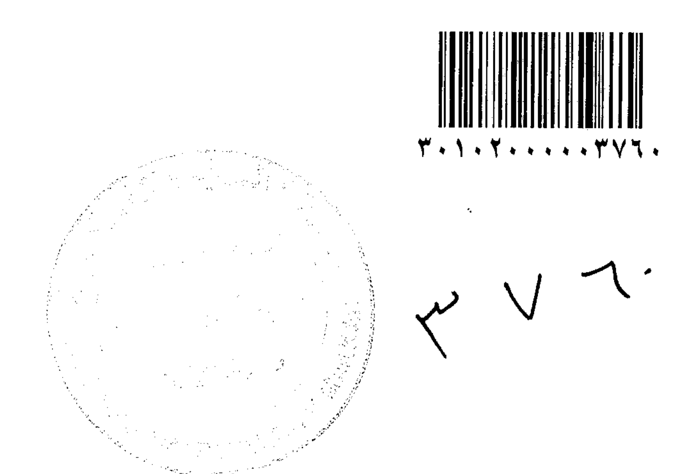
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مركز الدراسات الإسلامية



الدروس المستفادة من
العقوبات الإلهية في القرآن الكريم
قبل الرسالة المحمدية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير
في الدراسات الإسلامية

إعداد الطالب
عبد الهادي سعد هادي الشمراني

إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور
عبد الباسط إبراهيم بلبول

الجزء الأول

العام الدراسي
١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م




بسم الله الرحمن الرحيم



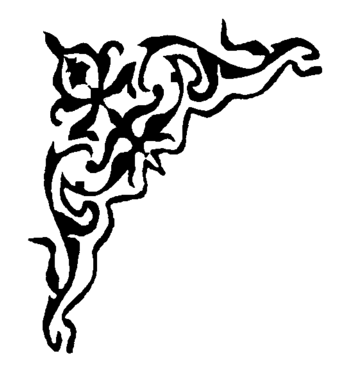
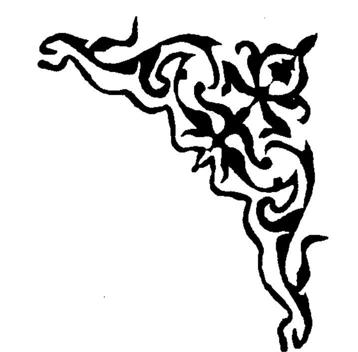
بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

وبعدُ : فعنوان هذه الرسالة (**الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية**) اشتملت على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة ، فأما المقدمة فبيّنت فيها أسباب اختيار الموضوع ، والمنهج الذي سرت عليه فيه ، وأما التمهيد فبيّنت فيه تعريف العقوبة والفرق بين العقوبة والحد ؛ ليتبيّن للقارئ الكريم أن هذا الموضوع في العقوبات الإلهية التي أنزلها الله على من كذب رسله ، وليس في الحدود ، وأما فصول البحث فقد رتبتها حسب الزمن التاريخي من بداية الخلق إلى ما قبل رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما رأيت من وجهة نظري خلاف ذلك بيّنتُه في موضعه ، ثم قسمت هذه الفصول إلى مباحث والمباحث إلى مطالب معتمداً فيها على ما ذكر من آيات الذكر الحكيم متتبعاً ذلك في جميع سور القرآن العظيم آية آية وسورة سورة ، وفرقت فيها بين المتشابهات من الآيات وبيّنت سبب كل عقوبة ونوعها ، ثم الدروس المستفادة من ذلك ، وربطت ذلك بواقعنا المعاصر ، ودلّلت على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وشرحت كل عبرة مستفادة مراعياً في ذلك ما ذكره علماء التفسير بالمأثور ثم التفسير بالمعقول مع بيان سند ذلك والحكم عليه وبيان الراجح في المسائل المختلف فيها ، وأما الخاتمة فذكرت فيها الأسباب التي أهلك الله بها الأقوام المكذبين أو حذّر منها الأنبياء أقوامهم ثم وقعت وقد بلغت تسعة أسباب ، وغيرها يدخل تحتها ضمناً ، ثم التوصيات والمقترحات التي رأيت من وجهة نظري أنه يمكن الأخذ بها لسهولتها أولاً ، ثم لإمكان تطبيقها واقعاً ، وأخيراً زيّنت رسالتي بفهارس عامّة ليسهل على الباحث الرجوع إلى أي عنصر يريده فيها ، والله اسأل أن ينفع بها وأن يجعلها خالصة لوجهه ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الطالب	المشرف	عميد كلية الشريعة
٢/٢٦ ١٤٢٢هـ		٢/٢٦
عبدالهادي سعد الشمراني	أ. د.عبدالباسط إبراهيم بلبول	أ. د. محمد بن علي العقلا

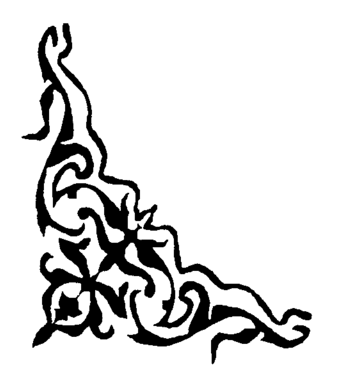
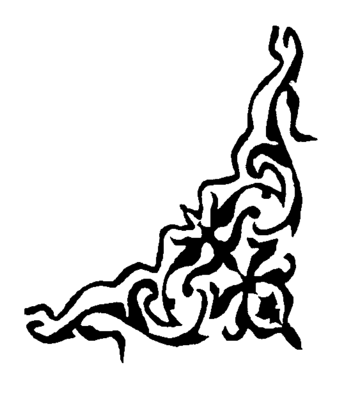



المقدمة

وتشتمل على ما يلي :

الأول : بيان السبب في اختيار موضوع الرسالة .

الثاني : المنهج الذي سرت عليه في كتابة الموضوع .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ؛ ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾[1] [الأحزاب:٧٠-٧١] .

أما بعد :

مما سبق من معرفة بحثي المعنون بـ (الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية) لقد استنتجت معانيها من كتاب الله – تعالى– أشرف كتاب ، وأبين كتاب ، وأهدى كتاب قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] وقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

(١) سورة الأحزاب ، آية (٧٠ ، ٧١) . وهذا جزء من خطبة الحاجة ، أخرجها أحمد في المسند (٣٩٢/١) ، برقم [٣٧٢٠] ، [٣٧٢١] ، وأبو داود ، كتاب النكاح ، باب في خطبة النكاح (٥٩١/٢) ، برقم [١١٠٥] وقال : حديث حسن . وابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب خطبة النكاح (٦٠٩/١) ، برقم [١٨٩٢] . انظر : (صحيح سنن ابن ماجة) للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (٣١٩/١) برقم [١٥٣٥] . حيث تتبع طرقها – رحمه الله – في رسالته " خطبة الحاجة " ص"١٤" ، نشر المكتب الإسلامي .

رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] .

ثم ما جاء على لسان محمد ﷺ من الأحاديث الصحيحة المفسرة لما جاء فيه من منهج عظيم هدى به الله الإنسانية ، وزعزع به كيان الوثنية ، وردها إلى جادة الصواب ؛ بوحي من العزيز الوهاب .

ولاشك أن منهج القرآن في عرضه لقصص الأولين وسبب عقوباتهم ونوع عقوباتهم ؛ كان الغرض منه العبرة والعظة للعمل به وتطبيقه في عالم الواقع لئلا يصيبنا ما أصاب تلك الأقوام الغابرة .

ولقد اكتسب القصص القرآني أهمية عظمى في تحليله للأسباب والنتائج ، والأحداث والوقائع ، حتى لكأن الإنسان يقرأها لأول مرة أو يسمعها لأول مرة أو لكأنه يشاهدها رأي عين ، وهذه الخاصية التي نستطيع أن نسميها (إحياء المشهد المعروض) لا توجد في غيره ، يعرض المشهد تلو المشهد والواقعة تلو الواقعة دون تكرار في صور ومشاهد تكاد أن تكون ماثلة للعيان .

ولعرض القصص القرآني آثاره في الأفراد والجماعات وبخاصة إذا تخللته العبر والمواعظ ؛ لما لها من وقع عظيم في نفوس الأمة لبناء مجتمع فاضل يحيى على القرآن ، ويعيش مع القرآن ، ويمتثل لأمر القرآن وينتهي بنهي القرآن ؛ لأن الإسلام يريد مجتمعاً فاضلاً لا آحاداً فضلاء ؛ فالإنسان يصلي فيستقيم قلبه ، ويزكي فتزكو نفسه ، ويصوم فتقوى إرادته ، ولكن الفضائل لا تنمو وتزدهر إلا في ظل مجتمع فاضل يتخلق بأخلاق القرآن ؛ ولهذا كان علم القرآن وتفسيره وأخذ العبر والدروس منه أشرف صناعة وأربح بضاعة ، رجفت عند تلاوته القلوب ، وذرفت عند سماعه العيون ، واقشعرت للذة تدبره الجلود .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢] وقال سبحانه ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣] .

قال عنه عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله الذي أمر به ، وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن اعتصم به ، ونجاة لمن تمسك به ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزوغ فيشعب ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن رد . اتلوه فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ، لم أقل لكم (ألم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »(١) .

والقرآن ليس كغيره من الكتب في الترتيب والتبويب كما يقول الشيخ ابن سعدي : لأنه بلغ في البلاغة نهايتها ، وفي الحسن غايته ، وفي الأسلوب البديع والتأثير العجيب ما هو أكبر الأدلة على أنه كلام الله المعجز . فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد ، وبين الدليل والمدلول ، وبين الترغيب والترهيب ، وبين العلوم الأصولية والفروعية ، وبين العلوم الدينية والأخروية ، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة ، ويعيد المعاني النافعة على العباد ، ليتم علمهم وتكمل هدايتهم ، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم علما وعملا(٢) .

وهذا الكلام ظهر لي في كثير من آيات القرآن التي تحدثت عنها في قصة إبليس اللعين في امتناعه عن السجود لآدم ووسوسته له ، ثم ما جاء في قصص الأنبياء – عليهم السلام – من اختلاف في الألفاظ وكمال في المعنى المؤدي لقصد واحد .

أما عن أسباب اختيار هذا الموضوع : فهي

أولا : الإسهام في الدراسات القرآنية .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/٣٧٥-٣٧٦) برقم [٦٠١٧] من طريق سفيان بن عيينة عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود . وقد تكلم الأئمة في إبراهيم الهجري هذا إلا أن رواية ابن عيينة عنه صححها الأئمة لأنه ميز حديثه .

انظر : (الجرح والتعديل) : للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم (٢/١٣١-١٣٢) ط دار الفكر ؛ الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي (أبي أحمد عبد الله بن عدي) (١/٢١١-٢١٣) ط دار الفكر . وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١/٤٣) الطبعة المحققة حيث قال المحقق د/ سعد آل حميد : وللحديث طرق كثيرة عن إبراهيم الهجري ، وجدت منها أربعة عشر طريقا ، منها أربعة طرق موقوفة وعشرة طرق مرفوعة انظرها من ص"٤٥-٤٨" ، ومعنى فيشعب : أي فيصلح .

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ، عبدالرحمن بن ناصر السعدي ، ط الثالثة ، ص"٦".

ثانياً : الوقوف على جانب من سنن الله في خلقه ، والكشف عن أسباب العقوبات ونوع كل عقوبة ، والتأكيد على أنها دروس من الماضي للحاضر .

ثالثاً : المجتمعات المتقدمة حادت عن طريق الله وعن هَدي رسل الله فضلّت وأضلّت فعاقبها الله عقاباً شديداً ، وعذبها عذاباً نكراً ، وكان عاقبة أمرها خسرا ، أما المجتمعات المعاصرة فقد حادت عن منهج القرآن دينياً ، وفكرياً وأخلاقياً وحضارياً واقتصادياً إلا – من رحم الله – بعكس ما كان عليه الرعيل الأول من هذه الأمة حين صدقت الله فصدقها الله ؛ لأنها وعت سنة الله التي لا تتبدل ، فأحببت أن أبيّن بعض ما عاقب به الله الأمم لئلا يصيبنا ما أصابهم .

أما حين فقدت ذلك واتبعت سَنن اليهود والنصارى ذلّت وقُهرت فصدق عليها قول النبي ﷺ : « **لتتبعنّ سَنَنَ من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟** »[1] .

وقوله ﷺ : « **يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قال قائل : ومن قلة نحن يومئذٍ ؟ قال : بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت** »[2].

رابعاً : إبراز حقائق المنهج القرآني في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] .

---

(١) رواه البخاري – كتاب الاعتصام بالسنة – باب قول النبي ﷺ : «لتتبعن سنن من كان قبلكم» (٣٦٨/٤) برقم [٧٣٢٠] .
ورواه مسلم – كتاب العلم – باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٠٥٤/٤) برقم [٢٦٦٩] .

(٢) رواه أحمد (٢٧٨/٥) برقم [٢٢٤٥٠] ، ورواه أبو داود – كتاب الملاحم – باب في تداعي الأمم على الإسلام (٤٨٣/٤) برقم [٤٢٩٧] ، وصححه الألباني في السلسلة (سلسلة الأحاديث الصحيحة) (٦٨٤/٢) برقم [٩٥٨] .

قال القاسمي في تفسيره : « في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بآدابه وسنته القويمة ، حلّ بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا ، ويفرق كلمتهم ، ويوهي قوتهم ، ويسلط عدوهم »[1] .

خامساً : حبي الشديد منذ بداية دراستي في جميع مراحل التعليم للقرآن الكريم ، وما يتصل به من علوم أخرى ، ورغبة في اختيار موضوع يتعلق بالقرآن والسنة النبوية ، وتقرباً لله سبحانه بأحب الأعمال إليه ، وإيماناً مني بأن صلاح هذه الأمة لا يكون إلا بالرجوع إلى كتاب ربها وسنة نبيها محمد ﷺ والعمل بهما .

سادساً : آلمني وآلم كل مسلم غيور ما حل بهذه الأمة العظيمة من ضعف بعد قوة ، ومن ذلة بعد عزة ، ومن فرقة بعد وحدة ، فأحببت أن أبين سنة الله - تعالى - في تعذيب الأمم وفنائها حين تركت أمر ربها ، وحادت عن طريقه المستقيم ونهجه القويم ، فلعل قارئاً أوعى من كاتب ، أو مُبَلّغاً أوعى من سامع ، يستفيد من قصصه وعبره وينقلها لمن يفيد ويستفيد ؛ لأن المؤمن لا يكمل إيمانه بمجرد إصلاحه لنفسه إذا لم يهتم بإصلاح غيره فيأمر بمعروف وينهى عن منكر وفي الحديث « **بلغوا عني ولو آية** »[2] .

سابعاً : المتتبع لقصص القرآن الكريم وخاصة ما حصل للأنبياء والمرسلين مع أقوامهم يجد فيها الدروس والعبر المهمة لكل داع ومصلح من المسلمين ؛ ليخرج الرحيق الذي يشفي النفوس من عللها ، وتكون له منهجاً يسير عليه في دعوة أهل زمانه ، وما أحسن أن يقص الداعي قصة نبي مع قومه ويستخرج منها الدروس والعبر المستفادة ليعالج الداء بالدواء كل فيما يخصه ، وكل هذا موجود في عقوبات الأمم التي عصت ربها .

ثامناً : هذا الموضوع لم يتناوله أحدٌ من قبل فيما أعلم .

---

(١) تفسير القاسمي (محمد جمال الدين) (محاسن التأويل) (٣٣٩/٩) . ط الثانية « دار الفكر » .

(٢) رواه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٤٩١/٢) برقم [٣٤٦١] .

ثانياً : منهجي في البحث

أولاً : اعتمدت فيه أولاً على كتاب الله – تعالى – حيث جمعت الآيات المتعلقة بكل عقوبة وقسمتها إلى قسمين (قسم أشار إليها بصراحة ، وقسم فصل عقوبة كل قوم من الأقوام الهالكين) متتبعاً عقوبتهم في كل سورة ذكرت فيها حسب ترتيبها في المصحف .

ثانياً : ذكرت لطائف كل عقوبة مفرقاً بينها وبين كل من سبقها في كل سورة بعنوان (لطائف الآيات غير ما سبق) .

ثالثاً : عزوت الآيات القرآنية إلى سورها وذكرت اسم السورة ورقم الآية مهما تكررت وكتابتها بالرسم العثماني تفادياً لوقوع أي خطأ في كتابتها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

رابعاً : استعنت بكتب السنة فيما ذكرته في البحث من الأحاديث النبوية الشريفة وعزوتها إلى مصادرها الأصلية .

فما أخذته من الصحيحين أو أحدهما رددته إليهما بالجزء والصحيفة واكتفيت بذلك .

وما ذكر في الكتب الستة أو المسانيد أو الآثار بينت مكانه فيها وراجعت الحكم عليه في الكتب المعتمدة عند أهل الحديث ، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

خامساً : استعنت بكتب التفسير المشهورة سيما الأمهات منها ورجعت إلى أكثر من مصدر في المسألة الواحدة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً مع الاستفادة من المراجع الحديثة .

سادساً : جعلت ما نقلته نصاً من مرجعه الأصلي بين قوسين وذكرت مرجعه في الهامش ، وما نقلته بتصرف أو عبرت عنه بأسلوبي أشرت إلى ذلك بقولي : انظر : (المرجع) .

سابعاً : اقتضى البحث مني في معظم ذكر كل عقوبة أن أقدم له تمهيداً لما رأيت من وجهة نظري الحاجة إلى ذلك .

ثامناً : بينت في الحاشية بعض الكلمات التي أرى أنها في حاجة إلى بيان .

تاسعاً : ترجمت لبعض الأعلام الذين عرض ذكرهم في البحث ما عدا المشهور منهم ، ورجعت في ذلك إلى المراجع الأصلية التي اعتنت بتراجم العلماء .

عاشراً : عملت فهارس تفصيلية للآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة والآثار ، وفهرس الأبيات الشعرية ، وفهرس الأعلام المترجم لهم ، وفهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات .

الحادي عشر : أطلت الكلام في بعض المباحث واختصرت بعضها للحاجة الملحة إلى ذلك .

الثاني عشر : رتبت عقوبة كل قوم حسب زمنهم التاريخي كما درج عليه أئمة هذا الفن كابن جرير في تاريخه وابن كثير في البداية والنهاية وما خالفتهما فيه فقد بينته في موضعه .

وقد جاءت خطتي في البحث على النحو التالي :

أولاً : المقدمة .

ثانياً : التمهيد .

ثالثاً : فصول البحث .

رابعاً : الخاتمة .

فأما المقدمة فبينت فيها أمرين :

الأول : سبب اختياري للموضوع .

الثاني : المنهج الذي سرت عليه فيه .

وأما التمهيد ففيه :

أولاً : تعريف العقوبة .

ثانياً : الفرق بين العقوبة والحد ليتبين للقارئ أن الموضوع في العقوبات لا في الحدود .

وأما فصول البحث فقسمتها على النحو التالي :

الفصل الأول

العقوبات الإلهية في بدء الخلق

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عقوبة إبليس لعنه الله .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثاني : عقوبة آدم عليه السلام .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثالث : عقوبة قابيل :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

الفصل الثاني

العقوبات الإلهية من زمن نوح -عليه السلام- إلى بداية زمن موسى عليه السلام

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : عقوبة قوم نوح عليه السلام :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : عقوبة قوم نوح عليه السلام .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثاني : عقوبة قوم هود عليه السلام :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثالث : عقوبة قوم صالح عليه السلام :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الرابع : عقوبة قوم شعيب عليه السلام :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الخامس : عقوبة قوم لوط عليه السلام :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث السادس : عقوبة قوم الرسل المذكورين في سورة يس :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

الفصل الثالث

العقوبات الإلهية في عهد موسى

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عقوبات فرعون وقومه :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تحدثت عن هذه العقوبات .

المطلب الثاني : سبب كل عقوبة .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثاني : عقوبات بني إسرائيل في عهد موسى :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثالث : عقوبة قارون :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

الفصل الرابع
عقوبات بني إسرائيل من بعد موسى

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : عقوبة قومٍ منهم خرجوا حذراً من الموت :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثاني : عقوبة قوم طالوت :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثالث : عقوبة أصحاب السبت :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الرابع : عقوبة بني إسرائيل في أول سورة الإسراء :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

الفصل الخامس

عقوبات بني إسرائيل في عهد عيسى - عليه السلام - وبعده

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : عقوبة من كفر بالمائدة وأراد قتل عيسى – عليه السلام – .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثاني : عقوبة صاحب الجنتين .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الثالث : عقوبة أصحاب الجنة .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الرابع : عقوبة أصحاب الأخدود .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث الخامس : عقوبة أهل سبأ .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث السادس : عقوبة أصحاب الرس .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

المبحث السابع : عقوبة أصحاب الفيل .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة .

المطلب الثاني : سببها .

المطلب الثالث : نوعها .

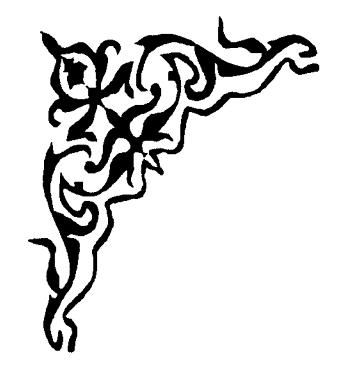
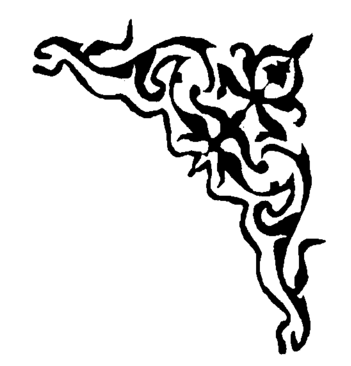
المطلب الرابع : الدروس المستفادة منها .

وأما الخاتمة فذكرت فيها : ١- الأسباب التي أهلك الله بها الأقوام .
٢- التوصيات والمقترحات .

وبعد ، فهذا هو المنهج الذي سرت عليه في هذه الرسالة وهذا ما استطعت إظهاره محاولاً إخراجها في أجمل هيئة وأبهى حلة ، كل ذلك خدمة لكتاب ربنا عز وجل ، فما أصبت فيه فمن الله وحده وله الفضل والمنّة ، وما أخطأت فيه فمن نفسي وأستغفر الله ، وأسأل الله بمنه وكرمه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ؛ حتى يكون شاهداً لنا لا علينا وأن ينفعنا بما فيه ، إنه سميع مجيب .

وفي ختام هذه المقدمة وبعد تيسير الله لي في إكمال هذه الرسالة أتوجه إلى الله جلت قدرته بالحمد والشكر والثناء ، وأسأله تعالى أن يتم علينا نعمه وفضله ، ثم أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الجميل إلى شيخي وأستاذي فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الباسط إبراهيم بلبول ، الذي لم يدخر وسعاً في توجيهي وإرشادي برحابة صدر وغزارة علم ، وأعطاني من وقته الكثير ، وفتح لي صدره وبيته وغمرني بحسن أخلاقه ، مما سهل لي الدخول إلى جيب معلوماته ، فجزاه الله عني خيراً وأسأله بمنه وكرمه أن ينفع بعلمه وخُلقه ويرزقنا وإياه والمسلمين أجمعين جنّات النعيم ، كما أسدي شكري إلى جامعتي (جامعة أم القرى) ممثلة في معالي مديرها وكافة منسوبيها ، وأخص منها كلية الشريعة ممثلة في عميدها ووكيلها والمشرف على القسم المسائي منها فضيلة الشيخ الدكتور (ستر بن ثواب الجعيد) وأشكر كل من مد يد العون لي وساعدني من إخواني وزملائي وأخص منهم العاملين على مكتبة الفرقان الخيرية ممثلة في أمينها ووكيلها فقد فتحوا لي قلوبهم ومكتبتهم ليلاً ونهاراً فجزاهم الله عني خير الجزاء .

ولست بمتنكر لذي معروف أو جاحدٍ لذي فضل ، فقد أخذت من مصنفات أهل العلم وتوجيهات الناصحين فجزى الله - تعالى - عني كل من قدم إليّ عوناً أو نصحاً أو معروفاً خيرَ الجزاء وأجزل مثوبتهم أجمعين . إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

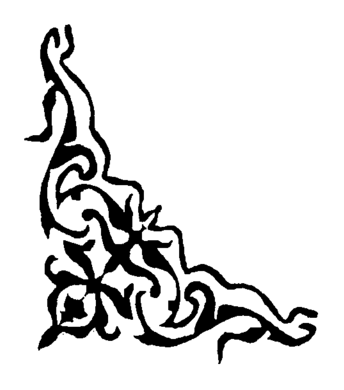
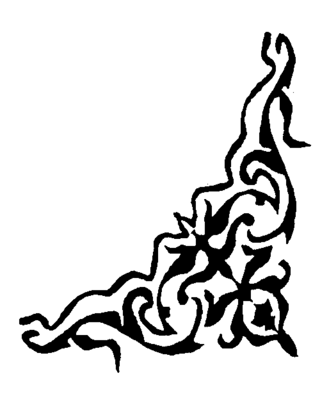



التمهيد

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التعريف بالعقوبة .

المبحث الثاني : الفرق بين العقوبة والحد .

المبحث الأول

تعريف العقوبة

العقوبة لغة : اسم مصدر من عاقبه يعاقبه عقاباً ومعاقبة ؛ إذا جازاه بشرٍّ على ذنب اقترفه .

٥ تقول العرب : أعقبت الرجل : إذا جازيته بخير ، وعاقبته : إذا جازيته بشر ؛ فأطلق على الجزاء بالخير عاقبة ، وعلى الجزاء بالشر عقاباً[1] . ويقال للمتمادي في غيه : واحذر عُقْبَ الله وعقابه وعقوبته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[2] [غافر:٥] .

وكلمة عقب تدل على أمرين[3] :

١٠ **الأول** : تأخر الشيء وإتيانه بعد غيره .

الثاني : أنها تدل على الارتفاع والصعوبة .

ومعنى الأول : جاء في معنى اسم النبي ﷺ " العاقب " لأنه عقب من كان قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[4].

ومنه العقوبة والعقاب والمعاقبة ؛ لأنها تأتي بعد الذنب .

١٥ والمعنى الدال على الأمر الثاني ومنه العَقَبة بطرقها الوعرة وجمعها عِقاب بكسر العين ، وتدل أيضاً على كل شيء له علو وشدة ؛ ولذا سمي العقاب من الطير عقاباً ، وهو أحد الطيور الجارحة ؛ لما فيه من الشدة والقوة[5] .

---

(١) (محيط المحيط) بطرس البستاني ص"٦١٧" ، ط مكتبة لبنان ؛ (لسان العرب) لابن منظور (٣٠٥/٩) ، ط دار إحياء التراث الإسلامي ؛ وانظر : (معجم مقاييس اللغة) لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٧٨/٤)، ط دار الفكر .

(٢) وانظر : (مختار الصحاح) لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ط المكتبة التجارية ص"٢١٠" .

(٣) (معجم مقاييس اللغة) (٧٧/٤) .

(٤) انظر : (لسان العرب) (٣٠١/٩) مادة " عقب " .

(٥) انظر : (معجم مقاييس اللغة) (٨٤/٤،٨٥) .

(القاموس المحيط) ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (٢٠٣/١) ، ط إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ؛ وانظر : (النهاية في غريب الحديث والأثر) ، لمجد الدين المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (٢٦٧/٣) ، ط دار الفكر .

قال الشاعر[١] :

فإن كنت تشكو من خليل مخافةً فتلك الجوازى عُقْبُها ونصورُها

والجمع العواقب والعقب[٢] .

والحاصل أن العقبى جزاء الأمر ، وأعقبه : جازاه ، وتعقبه : أي أخذه بذنب كان منه[٣] .

أما تعريفها الاصطلاحي فعرّفت بعدة تعريفات منها :

أولاً : أنها زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما حظر ، وترك ما أمر[٤].

ثانياً : الجزاء المقرر لمصلحة الجماعة على عصيان أمر الشارع[٥] .

ثالثاً : عقوبة غير مقدرة من الشارع يهلك الله بها من عصى أمره وكذب أنبياءه .

ونلاحظ في التعريفين الأولين أنهما يتعلقان بالحدود ؛ لما فيها من المصالح العظيمة العائدة على المجتمعات .

وأما التعريف الثالث فهو التعريف الذي يتعلق بموضوعنا (العقوبات الإلهية التي تحل بالقوم المكذبين بعد التبليغ والإنذار) .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد:٣٢] .

وقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر:٥] .

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين للسكري (أبي سعيد الحسن بن الحسين (٢١٣/١) ط مطبعة المدني مكتبة دار العروبة . وانظر : (لسان العرب) ٢٩٩/٩ مادة " عقب " . ومعنى البيت : إن كنت تخاف مما فعلت فإني قد أعقبتك وجازيتك كما فعلت وانتصرت منك بعدما عاديتك .

(٢) لسان العرب (٩٩/٩) مادة " عقب " .

(٣) القاموس المحيط (٢٠٣/١) .

(٤) الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ص"٢٧٥" ، ط دار الكتب العلمية .

(٥) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي عبدالقادر عودة (٦٠٩/١) ، مؤسسة الرسالة .

المبحث الثاني

الفرق بين العقوبة والحد

الحد لغة : المنع ومعناه الفصل بين الشيئين[1] .

وفي الاصطلاح :

عرفه الزيلعي[2] : بأنه عقوبة مقدرة تجب حقاً لله تعالى[3] .

وعرفه الشربيني[4] : بأنه عقوبة مقدرة وجبت زجراً عن ارتكاب ما يوجبه[5] .

وعرفه ابن النجار[6] : عقوبة مقدرة شرعاً في معصية للمنع من الوقوع في مثلها[7] .

أما العقوبة السماوية فهي :

أولاً : غير مقدرة بحد معيّن . ومن تتبع آيات القرآن الكريم يجد أن ما عوقب به

---

(١) لسان العرب (١١٦/٣) ؛ وانظر : (التعريفات) لعلي بن محمد بن علي ، المعروف بالشريف الجرجاني ، من كبار علماء العربية ص"١١٢" ، ط دار الكتاب العربي ، انظر : التعريف به في (الأعلام) ، خير الدين الزركلي (١٥٩/٥، ١٦٠) ؛ القاموس المحيط (٢٨٦/١) .

(٢) الزيلعي : هو عثمان بن علي فخر الدين الزيلعي ، فقيه حنفي ، له مصنفات كثيرة منها تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ، بركة الكلام على أحاديث الأحكام ، ت ٧٤٣هـ .
انظر : (الفوائد البهية في تراجم الحنفية) ، أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي ص"١١٥" ، ط مكتبة خير كثير ، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية لأبي محمد عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي الحنفي ص"٥١٩" ، ط مؤسسة الرسالة .

(٣) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ط دار المعرفة (١٦٣/٣) ؛ وانظر : (الأعلام) (٢١٠/٤) .

(٤) الشربيني : محمد بن أحمد شمس الدين ، له مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ومناسك الحج وغيرها ت سنة ٩٧٧ ؛ انظر : (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) لابن العماد شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد العكبري الحنبلي الدمشقي (٥٦١/١٠) ، ط دار ابن كثير ؛ الأعلام (٦/٦) .

(٥) مغني المحتاج (١٥٥/٤) . ط دار الفكر الناشر المكتبة الإسلامية .

(٦) ابن النجار : هو تقي الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي الحنبلي ، قاضي القضاة ، ولد بالقاهرة وتوفي بها سنة ٩٧٢هـ . وله كتاب منتهى الإرادات ، معونة أولي النهى شرح المنتهى ، شرح الكوكب المنير ، وغيرها . انظر : (شذرات الذهب) ، ط دار ابن كثير (٣٩٦/١٠) ، واعتنى بترجمته أيضاً د/ عبد الملك بن دهيش في تحقيقه لكتاب معونة أولي النهى شرح المنتهى " منهتى الإرادات " ، ط دار خضر .

(٧) منتهى الإرادات (٤٥٦/٢) ، ط دار العروبة .

بعض الأقوام السابقين لنبوة محمد - ﷺ - كان ساحقاً ماحقاً لهم ، فتارة يكون بإرسال حاصب عليهم ، وتارة بإرسال صيحة واحدة ، وتارة بالخسف ، وتارة بالغرق ، على حد قوله تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٠] وذلك لأن البشرية حين بدأت طريقها بدأته مهتدية مؤمنة موحدة لله ، ولكن سرعان ما يطرأ عليها ما يصرفها عن الحق ، فيرسل الله إليهم رسولاً ليردهم إلى جادة الصواب ، ويهديهم لطريق النجاة . فمن أطاع نجا وفاز ؛ ومن عصى خاب وخسر .

ثانياً : الحدود مقدرة شرعاً كمًّا[1] وكيفاً . أما العقوبة الإلهية فليس لها ذلك .

ثالثاً : يصح العفو في الحدود ما لم ترفع إلى الحاكم ، فإذا رفعت فلا عفو ولا شفاعة لحديث : « **من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى فقد ضاد الله عز وجل...** »[2] .

رابعاً : حق استيفاء الحدود موكولٌ إلى الإمام أو نائبه ، وليس لأحد غيرهما أن يقوم باستيفائه[3] .

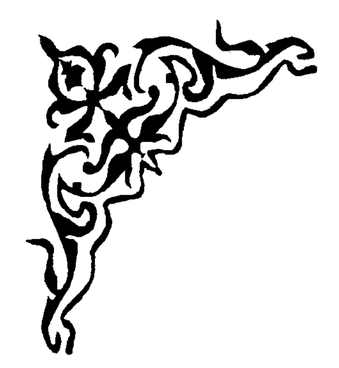
يتبين مما سبق بأن موضوعي في العقوبات الإلهية لا في الحدود .

---

(١) تبيين الحقائق (١٦٣/٣) .

(٢) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الأقضية ، باب في الشهادات (٢٣/٤) ، برقم [٣٥٩٧] عن ابن عمر ، ط دار الحديث . ورواه الإمام أحمد في مسنده (٧٠/٢) ، برقم [٥٣٨٣] ، ط مؤسسة قرطبة . ورواه الحاكم في مستدركه ، كتاب الحدود (٤٢٤/٤) ، ٤٢٥ ، برقم [٨١٥٧] وقال : صحيح الإسناد . ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني ، - رحمه الله - في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧٢٢/١) ، برقم [٤٣٧] .

(٣) المبسوط لشمس الدين السرخسي (١٠٤/٩) ، ط دار المعرفة .




الفصل الأول

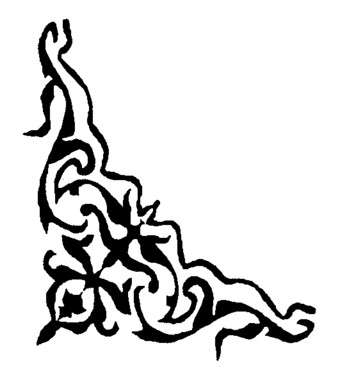
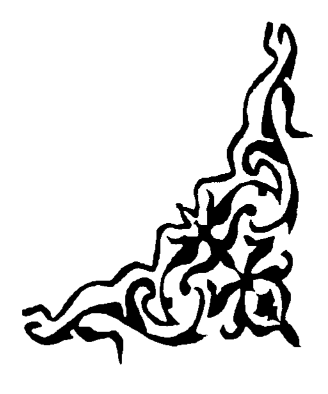
العقوبات في بدء الخلق

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عقوبة إبليس .

المبحث الثاني : عقوبة آدم وحواء – عليهما السلام –

المبحث الثالث : عقوبة قابيل .

المبحث الأول

عقوبة إبليس

المطلب الأول : الآيات التي تناولت هذه العقوبة :

تنوعت الأساليب البيانية في تفصيل عقوبة إبليس وغيرها من قصص القرآن في سور القرآن الكريم تنوعاً كثيراً ، يحسب القارئ لأول وهلة أن فيها تكراراً ؛ ولكن بالنظرة الفاحصة يتبيّن أنه ما من قصة أو حلقة تكررت إلا وكان لها نمطٌ جديدٌ ، وأداءٌ جديدٌ يختلف عنه في السور السابقة ينفي حقيقة التكرار ؛ بل لها في كل موضع ذكرت فيه عبرة تخالف عبرة غيره .

أولاً : السور التي أشارت إلى العقوبة دون تفصيل :

سورة واحدة هي سورة الكهف :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠] .

١ - الآية بمنطوقها تبيّن أن إبليس كان من الجن ، وإنما تناوله الأمر بالسجود لآدم لأنه كان من صحبتهم .

يقول ابن القيم[١] : كان إبليس مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله ، كان أصله من نار وأصل الملائكة من نور[٢] .

---

(١) ابن القيم : هو الإمام الشيخ المفسر اللغوي الفقيه الأصولي شيخ الإسلام بعد شيخه الإمام ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم ، وهو (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدين الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية) .

انظر ترجمته في : (مختصر طبقات الحنابلة) ، لمحمد جميل بن عمر البغدادي المعروف بابن الشطي، دار الكتاب العربي ص"٦٨" .

(٢) انظر : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (٢/٢٠١) ، تحقيق : محمد الفقي ، ط الثانية ، دار المعرفة ، ١٣٩٥هـ ، وانظر : تفسير القاسمي المسمى " محاسن التأويل " محمد جمال الدين القاسمي (٢/١٠٤) ، ط دار الفكر ـ كما في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم** » .كتاب الزهد والرقائق ، باب أحاديث متفرقة (٤/٢٢٩٤) ، برقم[٢٩٩٦] .

٢ – الاستفهام في الآية يدل على الإنكار والتوبيخ للمشركين إذ كانوا يعبدون الجن قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ [الأنعام:١٠٠][1] .

٣ – الظالمون هم المشركون . وإظهار الظالمين في موضع الإضمار للتشهير بهم ؛ ولما في الاسم الظاهر من معنى الظلم الذي هو ذم لهم[2] .

ثانيا : السور التي فصلت عقوبة (إبليس) :

أولا : سورة البقرة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٤-٣٩].

لطائف الآيات :

أولا : في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ كما عند الرازي[3] : اعلم أن هذا هو النعمة الرابعة من النعم العامة على جميع البشر ؛ وهو أنه سبحانه وتعالى جعل أبانا مسجود الملائكة ؛ وذلك لأنه تعالى ذكر تخصيص آدم من قبل بالخلافة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة:٣٠] .

ثم خصه بالعلم الكثير في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١]

---

(١) التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور (١٥/٣٤١) ، ط مكتبة ابن تيمية ، القاهرة .

(٢) المصدر السابق (١٥/٣٤٢) .

(٣) الرازي : هو الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي ت ٦٠٤ هـ صاحب التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب . ط دار التراث العربي .

ثم ذكر هنا ما ذكر . فهذه أربع نعم[١] .

ثانياً : الأمر بالسجود حصل قبل أن يسوي الله تعالى خلقة آدم عليه السلام بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنِّي خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝ ﴾ [ص:٧١،٧٢] .

٥ وظاهر هذه الآية يدل على أنه لما صار حياً صار مسجود الملائكة ؛ لأن الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَقَعُوا۟ ﴾ للتعقيب . وعلى هذا التقدير يكون تعليم الأسماء ، ومناظرته مع الملائكة في ذلك ؛ حصل بعد أن صار مسجود الملائكة[٢] .

ثالثاً : كان السجود أول تحية تلقاها البشر عند خلق العالم . وقد أجمع العلماء على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة ؛ وإنما هو وسيلة تعظيم مجرد من التعبد[٣] .

١٠ **رابعاً** : في قوله : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٣٤] أبى أن يسجد واستكبر عن السجود ؛ فجمع بين الإباء والاستكبار ، وهذا يدل على أن إباءه لم يكن لعذر ، أو لمانع يعذر به ؛ وإنما كان استكباراً في قلبه[٤] ، كما سيأتي بيانه في السور التالية . وقال أبو حيان[٥] : إنما قدم الإباء على الاستكبار مع أن الاستكبار يكون أولاً ؛ لأن الاستكبار من أفعال القلوب ، وهو (التعاظم) وينشأ عنه

١٥ الإباء اعتباراً بما ظهر عنه أولاً ، وهو الامتناع عن السجود .

خامساً : في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أنّ " كان " تفيد أن إبليس اتصف بالكفر في زمن مضى قبل نزول الآية ، وليس المعنى أنه اتصف به قبل امتناعه من السجود لآدم . وقد أكثر المفسرون الكلام حول معنى " كان " هنا ، وأحسن ما قيل في معناها إنها بمعنى (صار) ، أي : صار كافراً بعدم السجود ؛ لأن

٢٠ امتناعه نشأ عن استكباره على الله ، واعتقاده أن ما أمر به غير جار على حق الحكمة ،

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازي (٢/٢١٢) .

(٢) التفسير الكبير (٢/٢١٢) .

(٣) انظر : (التحرير والتنوير) (١/٤٢٢) ؛ أحكام من القرآن الكريم لمحمد بن صالح العثيمين ص"١٦٢" ، ط دار طويق .

(٤) المصدر السابق ص"١٦٢" ، انظر : (صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم) ، عبد الرحمن بن محمد الدوسري ، ط مكتبة دار الأرقم ص"٨٢" .

(٥) انظر : (التحرير والتنوير) (١/٤٢٦) .

فكان انقلابه انقلاب استخفاف بحكمة الله ، فلذلك صار كافرا صراحا[١] .

سادسا : الأمر في قوله : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة:٣٥] مستعمل في الامتنان بالتمكين والتحويل ، وليس أمرا له بأن يسعى بنفسه لسكنى الجنة إذ لا قدرة له على ذلك السعي فلا يكلف به[٢] .

سابعا : زوج آدم هي حواء ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء:١] ، وقال : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩] خلقها الله منه من غير إحساس ، ولو تألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته .

قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما : لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا ، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصيرى من شقه الأيسر ، ليسكن إليها ويأنس بها ، فلما قام وجدها ، فقال : من أنت ؟ قالت : امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إليها ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩] ولهذا كانت المرأة عوجاء ؛ لأنها خلقت من أعوج ، وهو الضلع[٣] .

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، لن تستقيم لك على طريقة واحدة ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها** »[٤] .

ثامنا : اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها آدم وزوجه على قولين :

---

(١) انظر : التحرير والتنوير (٤٢٦/١) .

(٢) المصدر السابق (٤٢٨/١) .

(٣) أخرجه ابن جرير (٥١٣/١) ، وابن أبي حاتم (٨٥/١) و (١٤٤٨/٥) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٥٩/٢) برقم (٨٢٠) ، تحقيق : عبدالله الحاشدي ، ط مكتبة السوادي ، وابن عساكر من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن ابن مسعود وناس من الصحابة . انظر : (الدر المنثور في التفسير المأثور) لجلال الدين السيوطي (١٠٥/١) . وانظر : (تفسير البحر المحيط) لمحمد بن يوسف ، الشهير بأبي حيان الأندلسي (٣٠٤/١) ، ط دار الكتب العلمية . وانظر : (البحر المحيط) لمحمد بن يوسف ، الشهير بأبي حيان الأندلسي (٣٠٧/١) ؛ وانظر : (صفوة الآثار) (٨٥/٢، ٨٦) .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء (١٠٩٠/٢) ، برقم [١٤٦٨] .

الأول : إنها جنة المأوى . التي هي مأوى المتقين .

الثاني : إنها جنة في الدنيا ، وهي : عبارة عن بستان ذي أشجار كثيفة كثيرة .

والأقرب ـ والله أعلم ـ أنها جنة الخلد التي وعد المتقون ، لما يلي :

أولاً : لما ورد في الصحيح من محاجة آدم عليه السلام موسى عليه السلام:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما ... فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ، ثم أهبطت النّاس بخطيئتك إلى الأرض ! فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجياً ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى: بأربعين عاماً . قال آدم : فهل وجدت فيها** ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١] **قال : نعم . قال : أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى** »[١] .

فدلت محاجة موسى عليه السلام لأبينا آدم عليه السلام أنه أخرجهما من جنة الخلد ، ولو كانت غيرها لما حاجه فيها .

ثانياً : ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ؛ وأبو مالك عن ربعي عن حذيفة ، قالا : قال رسول الله ﷺ : « **يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنّة ؛ فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا ، استفتح لنا الجنّة ؟ فيقول : وهل أخرجكم من الجنّة إلا خطيئة أبيكم آدم ! لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله** ... » الحديث[٢] .

فدل هذا الحديث دلالة ظاهرة على أنها جنّة المأوى ؛ وليست جنّة أخرى غيرها .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب تحاج آدم وموسى عند الله ، برقم [٣٤٠٩]، [٤٧٣٨] ، [٤٧٣٨] ، [٦٦١٤] ، [٧٥١٥] .

ورواه مسلم ، كتاب القدر ، باب حجاج موسى (٤/٢٠٤٤) ، برقم [٢٦٥٢] ، واللفظ لمسلم .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنّة منزلة (١/١٨٦) ، برقم [٣٢٩] .

ولأنها هي المعلومة عند الإطلاق ، والأصل أنه إذا كان للفظ معنى ومفهوم عند الإطلاق ؛ فإنه يحمل عليه إلا بدليل على خلاف ذلك ؛ وهذه القاعدة مفيدة في علم التفسير وغيره . (بمعنى : أن الأصل في النصوص حملها على ما هو معلوم مفهوم حتى يدل دليل على خلاف ذلك)[1] .

تاسعاً : في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [الأعراف:١٩] .

اختلف العلماء في جنس هذه الشجرة[2] ، والقول الصحيح في ذلك : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يبيّن جنسها ؛ لأنه ليس هناك ضرورة إلى معرفة جنسها ، والمهم معرفة القضية ومغزاها ، إذ لا يتعلق بعرفانها كبير فائدة[3] .

عاشراً : أن الله ـ تعالى ـ أضاف الإزلال في قوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [البقرة:٣٦] إلى إبليس ، فَلِمَ عاتبهما ؟

والجواب : أنهما عند الوسوسة أتيا بالفعل ، فأضيف ذلك إلى إبليس كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [نوح:٦] وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾[4] [ابراهيم:٢٢] .

الحادي عشر : في قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة:٣٦] .

يرد سؤال إذا اعتبرنا أن في قوله : ﴿ ٱهْبِطُواْ ﴾ أمراً ، ففيه مشقة على النفس شديدة ، فيكون في هذا التكليف الشاق على النفس سبب للثواب ، فكيف يكون عقاباً مع

---

(١) أحكام من القرآن ، ص"١٦٨" . وهذا ما أردت بيانه من القول الصحيح والراجح إن شاء الله تعالى لدى كثير من جمهور العلماء من أهل السنة سلفا وخلفا ، وتركت الأقوال الأخرى خشية الإطالة ولكونها مرجوحة .

(٢) قيل : هي البر والسنبلة . وقيل : هي الكرم . وقيل : غير ذلك . انظر : (تفسير البغوي) (٤٩/١) ؛ زاد المسير (٦٦/١) ؛ البحر المحيط (٣٠٩/١) .

(٣) وهذا ما ذهب إليه الطبري (٥٢٠/١،٥٢١) ، وانظر : (المحرر الوجيز) (٢٣٩/١) ؛ (التفسير الكبير) (٥/٣) ؛ (البحر المحيط) (١٥٨/١) .

(٤) انظر : (التفسير الكبير) (١٦/٣) ثم استطرد قائلا : وما أحسن ما قال بعض العارفين : هب أن زلة آدم ـ عليه السلام ـ كانت بسبب وسوسة إبليس ، فمعصية إبليس حصلت بوسوسة من !!

وهذا ينبهك على أنه ما لم يحصل الداعي لا يحصل الفعل ، وأن الدواعي وإن ترتب بعضها على بعض فلابد من انتهائها إلى ما يشاؤه الله تعالى ، وهو الذي صرح به موسى عليه السلام في قوله : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ [الأعراف:١٥٥] .

ما فيه من النفع العظيم ؟ وعلى هذا يرد سؤال آخر ، هو : أليست الحدود وكثير من الكفارات عقوبات وإن كانت من باب التكاليف ؟

والجواب : أن الحدود واقعة بالمحدود من فعل الغير ، فيجوز أن تكون عقابا إذا كان الرجل مصرا ، وأما الكفارات فإنما يقال في بعضها : إنه يجرى مجرى العقوبات ، لأنها لا تثبت إلا مع الاثم . فأما أن تكون عقوبة مع كونها تعرضه للثواب العظيم فلا[١] .

الثاني عشر : في قوله تعالى : ﴿ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ ﴾ [البقرة:٣٦] فيه أمر بالهبوط ، وليس أمرا بالعداوة ؛ لأن ما اتصف به إبليس من الحسد والكبر والخداع والوسوسة لآدم وذريته ، لا يجوز أن يكون مأمورا به .

وأما عداوة آدم لإبليس فمأمور بها ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴾ [فاطر:٦] إذا ، فالمراد من الآية : اهبطوا من السماء ؛ وأنتم بعضكم لبعض عدو[٢] .

الثالث عشر : عطف : ﴿ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ ﴾ [البقرة:٣٦] بالواو دون الفاء ؛ لأنه ليس بمتفرع عن الإخراج ؛ بل هو متقدم عليه ، ولكن ذكر الإخراج قبل هذا لمناسبة سياق ما فعله الشيطان ، وغروره بآدم ، فلذلك قدم قوله : ﴿ فَأَخۡرَجَهُمَا ﴾ بإثر قوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ .

الرابع عشر : قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٣٧] .

التلقي في الآية (تلقي استقبال إكرام ومسرة) قال تعالى : ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [الأنبياء:١٠٣] ووجه دلالته على ذلك أنه صيغة تفعل من لقيه ، وهي دالة على التكلف لحصوله وتطلبه وإنما يتكلف ويتطلب لقاء الأمر المحبوب ، بخلاف " لاقى " فلا يدل على كون الملاقي محبوبا ، بل تقول : « لاقى العدو » واللقاء : الحضور نحو الغير بقصد ؛ أو بغير قصد . وفي خير ، أو شر . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾ [الأنفال:١٥] فالتلقى هنا مؤذن بأن الكلمات

(١) التفسير الكبير (١٧/٣) .

(٢) التفسير الكبير (١٧/٣) .

التي أخذها آدم كلمات نافعة له . فعلم أنها كلمات عفو ومغفرة ورضى ، ويدل على ذلك أنه عطف (فتاب عليه) بالفاء ؛ إذ لو كانت كلمات توبيخ لما صح التسبب[1] .

الخامس عشر : لم تذكر توبة حواء هنا مع أنها مذكورة في مواضع أخرى ، نحو قوله : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف:٢٣] لأنها تتبعه في سائر أحواله . وإنما لم يرد لها ذكر هنا ؛ لأن الكلام جرى على الابتداء بتكريم آدم وجعله في الأرض خليفة ، فكان الاعتناء بذكر أحواله هو الغرض المقصود[2] .

السادس عشر : قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ [البقرة:٣٨] لم كرر ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ ﴾ هنا بعد ذكره في آية ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة:٣٦] قبلها ؟

والجواب : للتأكيد ، ولما نيط به من زيادة قوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾[3] [طه:١٢٣] أو كما قال الرازي : إن الأمر بالهبوط ما كان جزاء على ارتكاب الزلة حتى يزول بزوالها ، بل الأمر بالهبوط باق بعد التوبة ؛ لأن الأمر به كان تحقيقا للوعد المتقدم في قوله : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[4] [البقرة:٣٠] .

السابع عشر : قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ ﴾ وفي سورة طه ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾ [طه:١٢٣] فما الفرق بين الفعلين ؟

والجواب : أن فعل التي جاء على وزنها ﴿ تَبِعَ ﴾ لا يلزم منه مخالفة الفعل قبله ، وافتعل التي جاء على وزنها اتبع يشعر بتجديد الفعل . وبيان قصة آدم هنا لفعله ، فجيء بـ ﴿ مَن تَبِعَ هُدَاىَ ﴾ وفي طه جاء بعد قوله ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه:١١٥] و ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١] فناسب (من اتبع) أي : جدد قصد الاتباع والله أعلم[5] .

---

(١) التحرير والتنوير (٤٣٧/١) .

(٢) انظر نفس المصدر (٤٣٨/١) ؛ وانظر : (التفسير الكبير) (٢٦/٣) ؛ (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، لمحمود بن عمر الزمخشري ، ط دار التراث (١٢٩/١) .

(٣) تفسير الكشاف (١٢٩/١) ، تفسير الخازن المسمى " لباب التأويل في معاني التنزيل " علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن (٣٩/١) .

(٤) التفسير الكبير (٢٦/٣) .

(٥) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ، بدر الدين بن جماعة ص"٩٣" .

وقال صاحب البرهان إن معناهما واحد وإنما اختار في طه ﴿ٱتَّبَعَ﴾ موافقة لقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه:١٠٨](١) .

ثانيا : سورة الأعراف .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٢٤ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾ [الأعراف:١١-٢٥] .

لطائف الآيات :

أولا : كيف قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف:١١] وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب ، وخطاب الملائكة عليهم

---

(١) انظر : (البرهان في متشابه القرآن) ، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني ص"١٢١" ، ط دار الوفاء .

الصلاة والسلام بالسجود سابق على خلقتنا وتصويرنا ؟

والجواب : المراد : ولقد خلقنا أباكم ثم صورناه وقيل : ولقد خلقنا أباكم ثم صورناكم في ظهره . والقول الأول هو الأظهر[1] .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٢-١٣] .

وقال في سورة الحجر : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحجر:٣٢-٣٤] .

للسائل أن يسأل : إذا كان هذا في قصة واحدة ، ووقع في كلام الله حكاية عما قال إبليس ، وعما قيل له عندما كان يظهر من عصيانه فلماذا اختلفت الحكايتان والمحكي شيء واحد ؟

والجواب : أن ذكر قصص من سبق لم يقصد بها أداء الألفاظ بأعيانها ، وإنما المقصود ذكر المعاني ؛ فإن الألفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود ، كان اختلافها واتفاقها سواء .

فقوله عز وجل هنا : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ وقوله في الحجر : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ وقوله في سورة ص : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص:٧٥] فهذه ألفاظ ثلاثة في بعضها اختلاف ؛ وفي المعنى اتفاق ، وهي : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ ، ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ ، ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص:٧٥] ففيه زيادة إخبار عن حال لم تكن في الآيتين المتقدمتين .

---

(١) تفسير الطبري (١٢/٣١٧-٣٢٠) ، وانظر : تفسير الرازي المسمى " أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل " ص"١٤٧" ، محمد بن أبي بكر الرازي ، ط دار الفكر المعاصر ، دار الفكر دمشق ، بتحقيق د/ محمد رضوان الداية .

وأما قوله في سورة ص : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص:٧٦] وفي سورة الحجر ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر:٣٣] وفي سورة الإسراء ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء:٥٩] فإنه يحصل للسامع من الآيات الأربع معنى واحد وهو ذكر ما حمله على ترك السجود لآدم عليه السلام لما كان مخلوقا من النار وآدم مخلوقا من الطين ورأى أصله أشرف من أصله وإن كان في إحداهما ذكر بعض ما دعاه إلى ما فعل .

وفي الآيتين الأخيرتين ذكر مقابلة أصله بأصله ، وتوهم أنه أشرف ، وأن سجود الأشرف للأدون لا يجوز .

وكذلك ما حكاه الله تعالى من قوله في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣] لا يعارض ما في سورة الحجر : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر:٣٤-٣٥] .

ولا يخالف أيضا قوله في سورة ص : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص:٧٧-٧٨] .

لأنه إذا أمره بالخروج من الجنة أو من السماء فقد أمره بالهبوط إلى الأرض .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ ﴾ ، واللعنة في الحقيقة واحدة لأنها إبعاد الله من يعصيه عن الخير(١) .

ثالثا : كيف قال تعالى لإبليس : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف:١٣] أي : في السماء . وليس له ولا لغيره أن يتكبر في الأرض أيضا؟

والجواب : أنه لما كانت السماء مقر الملائكة المطيعين الذين لا يوجد منهم معصية أصلا كان وجود المعصية بينهم أقبح ، فلذلك خص مقرهم بالذكر(٢) .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز . لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي ت سنة ٤٢١ هـ ، ط السعادة بجوار محافظة مصر . انظر : (كشف المعاني) ص"١٧٤" .

(٢) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"١٤٧" .

رابعا : كيف أجيب إبليس إلى الإنظار ؛ وإنما طلب الإنظار ليفسد أحوال عباد الله تعالى ويغويهم ؟

والجواب : لما في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب [١] .

٥ **خامسا** : قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤-١٥] .

وقال في سورة الحجر ، وسورة ص : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر:٣٦-٣٨] و [ص:٧٩-٨١] .

١٠ لك أن تسأل ، فتقول ما سبب إدخال الفاء في قوله : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ ﴾ في سورتي الحجر ، وص ؛ وحذفها منه في سورة الأعراف ؟

والجواب : لما لم يكن إجابة إلى ما طلب لم يكن معطوفا عليه بالفاء ؛ وإنما سأل تأخير أجله ، فقال : إنك في حكمي ممن أخر أجله لا لأجل مسألتك ، أو أنه وقع مستأنفا غير مقصود به عطف ، فلم يحتج إلى الفاء .

١٥ وأما في سورتي " الحجر ، وص " فدخول الفاء في الموضعين ؛ لتقدم ذكر اللعن[٢] . وأن المعنى : إن آيستني من رحمتك فأخر أجلي ؛ لأنال من عدوي ما أقدر عليه من الإغواء له ولمن يكون من نسله[٣] .

سادسا : قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف:١٦] وفي سورة الحجر : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ ٢٠ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢١٢) ، وقال الرازي في تفسير (أنموذج جليل) ص"١٤٧" : « لما في ذلك من ابتلاء العباد ليثبت لهم الثواب العظيم في مخالفته... .

(٢) أي قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ قَالَ... ﴾ الآية [الحجر:٣٥-٣٦] .
وفي سورة ص : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ قَالَ... ﴾ الآية [ص:٧٨-٧٩] .

(٣) درة التنزيل ص"١٢١،١٢٢" . وانظر : (كشف المعاني) ص"١٧٤،١٧٥" ؛ البرهان في متشابه القرآن ص"١٨٣" ، ط دار الوفاء .

للسائل أن يسأل في هذه الآية عن شيئين :

أحداهما : اختلاف المحكيات؟ ففي الأعراف ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى ﴾ ، وفي ص : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ .

والثاني : حذف الفاء في سورة الحجر من قوله : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى ﴾ وإثباتها في سورتي الأعراف و ص في قوله : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ ؟

والجواب : أما عن اختلاف الألفاظ المحكية أن يقال : متى حملت الباء على القسم في قوله : ﴿ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى ﴾ في الآيتين بشهادة الآية الثالثة وهي ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ ، لم يكن هناك اختلاف في المعنى ؛ لأن المراد في قوله بإغوائك إياي وهو يحتمل وجوها من المعاني .

أحدها : أن المراد : بتجنيبك إياي لأجتهدن في تجنيبهم .

وهذا ظاهر الكلام ؛ لأن القسم متلقى باللام ؛ ولأن قوله : (**فبعزتك**) في مقابلتهما من الآية الأخرى . وتجنيب الله إياه هو بعزته .

الثاني : أن يكون المراد : بإهلاكك إياي ؛ بأن لعنتني . وهذا الفعل أيضا عزة من الله .

وكذلك إن حمل على معنى الحكم بغوايته ، فهو عزة من الله تعالى وإذا كان كذلك تساوت في المعنى « وكل قسم » ، والإغواء الذي هو الإهلاك والتجنيب ، أو الحكم بالغواية ، كل ذلك عزة من الله تعالى ، فالقسم به كالقسم بعزته[1] .

وأما الجواب عن حذف الفاء في سورة الحجر ؛ وإثباته في سورتي الأعراف و ص .

فحذفه من قوله : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى ﴾ فلأن الدعاء في المصدر يستأنف بعده الكلام .

والقصة غير مقتضية لما قبلها ، كما اقتضاها قوله : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرۡنِىٓ ﴾ والفاء توجب اتصال ما بعدها بما قبلها .

ثم إن النداء يوجب استئناف الكلام ؛ سيما في قصة لا يقتضيها ما قبلها فلم تحسن

---

(١) درة التنزيل ص"١٢٢" ؛ وانظر : (البرهان في متشابه القرآن) ص"١٨٤" .

الفاء مع قوله : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى ﴾ .

وأما الموضعان الآخران[1] فلم يدخل فيهما نداء يوجب استئناف ما بعده ؛ فلذلك حسن دخول الفاء[2] .

سابعا : في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ [الأعراف:١٧] مسألتان[3] :

الأولى : جملة ﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم ﴾ أن ثم تفيد الترتيب الرتبي[4] ؛ لأن مضمون الجملة المعطوفة غرض الكلام من مضمون الجملة المعطوف عليها ؛ لأن الجملة الأولى ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الأعراف:١٦] أفادت الترصد للبشر بالإغواء ، والجملة المعطوفة أفادت التهجم عليهم بشتى الوسائل .

الثانية : مثلت هيئة توسل إبليس إلى الإغواء بكل وسيلة بهيئة الباحث الحريص على أخذ العدو ، إذ يأتيه من كل جهة حتى يصادف الجهة التي يتمكن فيها من أخذه ، فهو يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى تخور قوة مدافعته ، فالكلام فيه مجاز تمثيلي بما هو متعارف في محاولة الناس ومخالفتهم ؛ لأن الشيطان اللعين لا يأتي إلا من جهة النفس والعقل ، والدليل على ذلك أنه لم يرد الإتيان من فوقهم ومن تحتهم إذ ليس ذلك من شأن الناس في المخاتلة .

ثامنا : قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأعراف:١٨] .

أعاد الله أمره بالخروج من السماء تأكيدا للأمرين : الأول والثاني ، قال : ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[5] [الأعراف:١٣] .

تاسعا : قوله تعالى : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [الأعراف:١٩] دل

---

(١) من سورتي الأعراف ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى ﴾ [الأعراف:١٦] ، ص ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ ، [ص:٨٢] .

(٢) انظر : (درة التنزيل) ص"١٢٣" .

(٣) انظر : (التحرير والتنوير) (٤٩/٨) .

(٤) هو التدرج في الأخبار إلى خبر أهم . انظر : (التحرير والتنوير) (٤٩/٨) .

(٥) التحرير والتنوير (٥١/٨) في تفسير آية (١٨) .

موقع هذا الكلام في هذه السورة على معنى عظيم من قمع إبليس ، حيث طرده الله من قبل ، وأسكن آدم في المكان المشرف الذي كان له من قبل تكبره ، ثم إن حصول هذا الأمر بمرأى ومسمع من إبليس فيه زيادة قمع له ؛ ليزداد تحسرا وندما ؛ ولأن الإتيان بالضمير المنفصل « أنت » بعد الأمر ؛ لقصد زيادة التنكيل به ؛ لإفادته التعريض به دون ذكر اسمه[1] .

عاشرا : وقع في سورة البقرة ﴿ وَكُلَا ﴾ بالواو وهنا بالفاء ﴿ فَكُلَا ﴾ والعطف بالواو أعم[2] . فالآية هنا في سورة الأعراف أفادت أن الله تعالى أذن لآدم بأن يتمتع بثمار الجنة ، وتلك منه عاجلة عظيمة الإكرام ، وفيها زيادة تنغيص وتحقير لإبليس : الذي تكبر وفضل نفسه عليه ، كان الحال مقتضيا إعلام السامعين به في المقام الذي حكى فيه الغضب على إبليس وطرده .

وأما آية البقرة أفادت السامعين أن الله امتن على آدم بمنة سكنى الجنة ، والتمتع بما فيها ؛ لأن المقام مقام تذكير لبني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته والتحذير من كيد الشيطان الذي وقعا فيه ، وزاد فيها كلمة رغدا ؛ لأنه مدح لآدم ، أو دعاء له .

إذا مجموع الآيتين دل على مكارم لآدم وزعت في السورتين على عادة القرآن في عرض القصص القرآني ، ليحصل تجديد الفائدة وتنشيط السامع والتفنن في أساليب الحكاية ؛ لأن الغرض من ذلك كله : هو العظة والعبرة والتأسي[3] .

الحادي عشر : إن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف:٢٠] ولم يكن غرضه من الوسوسة كشف عورتهما ، بل إخراجهما من الجنة ؟

فالجواب : أن اللام في قوله : ﴿ لِيُبْدِىَ ﴾ لام العاقبة والصيرورة ، لا لام « كي » كما في قوله تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص:٨] وقول الشاعر :

(١) التحرير والتنوير (٥٣/٨،٥٤) .

(٢) انظر : (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) ص"٩٢" ؛ البرهان في متشابه القرآن ص"١١٩" .

(٣) انظر : (التحرير والتنوير) (٥٣/٨،٥٤) .

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب[١]

الثاني عشر : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ [الأعراف:٢٢] .

دلت هذه الآية على أن بدو سوآتهما حصل عند أول إدراك طعم الشجرة ، دلالة على سرعة ترتب الأمر المحذور عند أول المخالفة فزادت هذه الآية على آية سورة البقرة[٢] .

الثالث عشر : الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ...﴾ [الأعراف:٢٢] للتقرير والتوبيخ ، وعطف جملة ﴿ وَأَقُل لَّكُمَآ ﴾ على جملة ﴿ أَنْهَكُمَا ﴾ للمبالغة ؛ في التوبيخ لأن النهي كان مشفوعا بالتحذير من الشيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة[٣] .

الرابع عشر : قوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣] .

وهذا من آدم وحواء اعتراف بالعصيان ، وأن ضر المعصية قد عاد عليهما ، ورأياه بأم أعينهما ، فعلما أنه من غضب الله ومن مخالفة وصايته ، وقد أكد جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد ، إظهارا لتحقيق الخسران واسترحاما واستغفارا من الله تعالى[٤] .

لكن يرد هنا سؤال وهو : كيف يصدر هذا الذنب العظيم من آدم عليه السلام وهو نبي ؟

قال الرازي : هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم من آدم عليه السلام إلا أنا نقول : هذا الذنب إنما صدر عنه قبل النبوة[٥] .

---

(١) تفسير الرازي المسمى (انموذج جليل) ص"١٤٨" والبيت لأبي العتاهية (ديوانه ص"٤٦") واسمه (إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيان) غلبت عليه كنيته .

(٢) التحرير والتنوير (٦٢/٨) .

(٣) التحرير والتنوير (٦٦/٨،٦٧) .

(٤) المصدر السابق (٦٧/٨) .

(٥) التفسير الكبير (٥٠/١٤) .

ثالثا : سورة الحجر .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر:٢٨-٤٢] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ[1] مِّنْ حَمَإٍ[2] مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر:٢٦-٢٧] في هاتين الآيتين :

أ – لأول مرة تذكر كلمتا الصلصال والحمأ المسنون ، اللذان خلق منهما آدم – عليه السلام – .

ب – في هذا الخبر استدلال على عظيم القدرة والحكمة ، وعلى إمكان البعث ، وموعظة وذكرى .

جـ – المقصود من ذكر الحمأ والصلصال : التنبيه على عجيب صنع الله تعالى إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة .

د – فيه إشارة إلى الأطوار التي مرت على مادة خلق الإنسان .

هـ – عطف جملة ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ ﴾ إدماج وتمهيد إلى بيان نشأة العداوة بين بني آدم وجند إبليس .

---

(١) صلصال من حمأ مسنون ، أي : من طين قد يبس ، فإذا نقرته صل .

(٢) والحمأ جمع حمأة ، وهو الطين الأسود المتغير الريح ، والمسنون : المتغير الرائحة من طول مكثه . انظر : تذكرة الأريب في تفسير الغريب (٢٨٤/١) لابن الجوزي ، تحقيق : د/ علي البواب ، ط مكتبة المعارف . وانظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، لعبد الرحمن ناصر السعدي ، (٣٤/٣) ، ط دار المدني ، جدة .

و – فائدة قوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل خلق الإنسان ، وفيه الإخبار بأن خلق الجان أسبق ؛ لأنه مخلوق من النار بنص الآية : ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ وهي الريح الحارة ، فكما كون الحمأة الصلصال المسنون لخلق الإنسان ، كون ريحا حارة وخلق منها الجن فهو مكون من حرارة زائدة على حرارة الإنسان ، والحكمة كلها في إتقان المزج والتركيب[1] .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ دل على الشمول والإحاطة ، وأفاد التأكيد ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ ؟

والجواب : فائدته توكيد بعد توكيد فيفيد زيادة تمكين المعنى ، وتقريره في الذهن ، فلا يكون تحصيل الحاصل ، بل يكون نسبة ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ إلى ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ كنسبة كلهم إلى أصل الجملة .

وقيل : قوله تعالى : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ يدل على اجتماعهم في زمان السجود ، و ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ تدل على وجود السجود من الكل ، فكأنه قال : فسجد الملائكة كلهم معا في زمان واحد[2] .

والأول قول الأكثر ، والله أعلم .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر:٣٤-٣٥] للسائل أن يسأل فيقول :

إذا كان المراد باللعنة وبلعنتي شيئا واحدا فما بال اللفظين اختلفا ، فجاء في سورة (الحجر) بالألف واللام ، وفي سورة (ص) مضافا ، وهل يصح أحدهما مكان الآخر ؟

والجواب : أن سورة (الحجر) ابتدأت بذكر خلق الإنسان والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام بقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر:٢٦] ثم قال : ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٣٢] وكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدأت بمثله القصة وهو اسم الجنس المعرف بالألف واللام .

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/٤١،٤٣) ، م ٧ ؛ وانظر بعض ذلك في : (البرهان في متشابه القرآن) ص"٢٣٧،٢٣٨" .

(٢) تفسير الرازي ص"٢٥٢" ؛ التحرير والتنوير (١٤/٤٥) .

وكان الأمر في سورة (ص) بخلاف ذلك ؛ لأن أول الآية : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ [ص:٧١-٧٥] .

فلم تفتتح الآية بذكر الصنفين : من الجن والإنس باللفظ المعرف بالألف واللام كما كان في سورة الحجر ، ولما كان موضع ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ من سورة الحجر بدله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ ثم قال في سورة (ص) ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ فجعل بدل ﴿ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ﴿ أَن تَسْجُدَ ﴾ ثم قال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ فخصصه بالإضافة إليه دون واسطة فكان لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ الإضافة كما قال : ﴿ بِيَدَىَّ ﴾ فقال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ ﴾ فكان الاختيار في التوفقة بين الألفاظ التي افتتحت بها الآية واستمرت إلى آخرها على ذلك[1] .

وعلى ذلك لا يصح أن يكون أحدهما في مكان الآخر ؛ لما لكل منهما من خصائص .

خامسا : قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٧٢] .

الله تعالى ذكر للملائكة المادة التي خلق منها البشر ؛ ليعلموا أن شرف الموجودات بمزاياها لا بالمادة التي ركب منها[2].

سادسا : قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر:٣٦-٣٨] .

فهنا عبر عن يوم البعث بـ﴿ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ تفاديا من إعادة اللفظ لئلا يختل النظم ، ولما فيه من التعليم بأن الله يعلم ذلك الأجل لديه تعالى ، ويجوز أن يراد : المعلوم للناس أيضا علما إجماليا .

---

(١) درة التنزيل ص"٢٠٦" ؛ وانظر : (كشف المعاني) ص"٢٢٣" .

(٢) انظر : (التحرير) (٤٤/١٤) ، م ٧ .

وفيه تعريض بأن من لم يؤمنوا بذلك اليوم من الناس لا يعبأ بهم فهم كالعدم[1] .

سادسا : قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

ففي قوله : ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ إشارة إلى غواية يعلمها الله ، وهي التي جبله عليها ؛ ولذلك اختار لها " ما " الموصولة ، وزيادة ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لاقتران الغواية بالنزول إلى الأرض الذي دل عليه قوله تعالى : ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر:٣٤] و [ص:٧٧] أي : إلى الأرض . كما جاء في الآية الأخرى ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[2] [البقرة:٣٦] والتزيين في الأرض يفيد انتشاره في جميع ما على الأرض من الذوات وأحوالها ، وجعل المغوين في الآية هم الأصل ، واستثنى عباد الله المخلصين ؛ لأن عزيمته منصرفة إلى الإغواء ، فهو الملحوظ عنده ابتداء على أن المغوين هم الأكثر[2] والاستثناء غرضه منه أن لا يقع في الكذب ؛ لأنه لو سكت و لم يستثن لظهر كذبه لأن لله عبادا صالحين لا يستطيع إغواءهم . وعند هذا يقال : إن إبليس ابتعد عن الكذب وفر منه ، فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه[3] !.

سابعا : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر:٤٢] .

والمعنى : أن الله وضع سنة في نفوس البشر أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاويا ، أي : مائلا للغواية مكتسبا لها دون من كبح نفسه عن الشر[4] .

رابعا : سورة الإسراء .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن

(١) التحرير والتنوير (٤٩/١٤) .

(٢) المصدر السابق (٥٠/١٤) ، م ٧ .

(٣) انظر : (التفسير الكبير) (٢٣٤/٢٦) .

(٤) التحرير والتنوير ٥٢/١٤ .

تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء:٦١-٦٥] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ...﴾ [الإسراء:٦١-٦٢] الآية .

في قوله : ﴿ طِينًا ﴾ حال من اسم الموصول المقدر بـ« الذي خلقته في حال كونه طينا » وإنما جعل جنس الطين حالا منه للإشارة إلى غلبة العنصر الترابي عليه ؛ لأن ذلك أشد في تحقيره في نظر إبليس ، ثم أعيد إنكار لفظ التفضيل بقوله ﴿ أَرَأَيْتَكَ ﴾ المفيد للإنكار .

وعلل الإنكار بإضمار المكر لذريته ، ولذلك فصلت جملة ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ ﴾ عن جملة ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ ﴾ كما وقع في قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه:١٢٠] الآية . كما سيأتي(١) .

واسم الإشارة في الآية مستعمل في التحقير ، كقوله تعالى : ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء:٣٦] والمعنى : أخبرني عن نيتك ، أهذا الذي كرمته علي بلا وجه(٢) .

ثانيا : في قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٢] أنه اقتصر على إغواء ذرية آدم ، ولم يذكر إغواء آدم وهو أولى بالذكر ، إذ آدم هو أصل عداوة الشيطان الناشئة عن الحسد من تفضيله عليه ، وسيكون له ذرية من بعده يشفي غليله فيهم ، ويأخذ منهم من يكون أهلا لصحبته بعد غوايته إلا من أخلص العبادة لله فإنه لا يستطيع غوايته . إذا العداوة بقيت مسترسلة في

(١) في لطائف سورة طه .

(٢) التحرير والتنوير (١٥٠/١٤،١٥١) بتصرف .

ذريته . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴾[1] [فاطر:٦] .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴾ [الإسراء:٦٣] .

أعيد في الآية كلمة ﴿جَزَآءٗ﴾ للتأكيد ، اهتماما وفصاحة . كقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ [يوسف:٢] ولأنه أحسن في جريان وصف الموفور على موصوف متصل به دون فصل ، وأصل الكلام : فإن جهنم جزاؤكم موفورا . أي : جزاء غير منقوص[2] .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء:٦٤] أظهر اسم الشيطان دون أن يأتي بضميره المستتر ؛ لأن هذا الاعتراض جملة مستقلة ، فلو أتى بالضمير العائد إلى جملة أخرى لكان في النثر شبه عيب التضمين[3] في الشعر ، ولأن هذه الجملة جارية مجرى المثل ؛ فلا يحسن اشتمالها على ضمير ليس من أجزائها[4] . وأما الأمر في (**واستفزز**) ، (**وأجلب**) ، (**وشاركهم**) فهو للتهديد لا أمر طاعة كقوله تعالى : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ ﴾ [المرسلات:٤٦] والمعنى شاركهم في الاثم لا في المال[5] .

خامسا : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾ [الإسراء:٦٥] .

هذا المفهوم يفيد أن الله تعالى قد حفظ فريقا من عباده من الشيطان حيث

---

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (١٤/١٥١) .

(٢) انظر : (التحرير والتنوير) (١٤/١٥٢) .

(٣) التضمين : يطلق على أشياء : أحدها : إيقاع لفظ موقع غيره لتضمينه معناه ، وهو نوع من المجاز . الثاني : حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم هو عبارة عنه ، وهو نوع من المجاز أيضا . والثالث : تعلق ما بعد الفاصلة بها . والرابع : إدراج كلام الغير في أثناء الكلام ؛ بقصد تأكيد المعنى ، أو ترتيب النظم ، وهذا هو النوع البديعي : - انظر : (الاتقان في علوم القرآن) للسيوطي (٣/٢٧٠) ط دار التراث تحقيق/محمد أبوالفضل إبراهيم .

(٤) التحرير والتنوير (١٤/١٥٥) .

(٥) كشف المعاني ص"٢٣٣" .

وقعت إلى تعيين هذا الفريق بالوصف وبالسبب .

فأما الوصف ففي قوله : ﴿ عِبَادِى ﴾ المفيد أنهم تمحضوا لعبودية الله تعالى كما تدل عليه الإضافة ، فعلم أن من عبدوا الأصنام والجن ، وأعرضوا عن عبودية الله تعالى ليسوا من أولئك .

٥ وأما السبب ففي قوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ المفيد أنهم توكلوا على الله واستعاذوا به من الشيطان ، فكان خير وكيل لهم ، إذ حاطهم من الشيطان وحفظهم منه[1] .

خامسا : سورة طه .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ١٠ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ ١٥ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١١٥-١٢٣] .

لطائف آيات سورة طه غير ما سبق بيانه من عقوبة إبليس :

أولا : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾ .

٢٠ يخبر الله أن آدم عليه السلام نسي عهد الله ووصيته وأكل من الشجرة ، وإذا كان فعله ناسيا ، فكيف وصفه بالعصيان وبالضلال بقوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ وعاقبه عليه بأعظم العقوبة : وهو الإخراج من الجنة ؟

والجواب : أن النسيان هنا بمعنى : الترك ، أي : ترك التحرز من الشجرة ، أو عهد الله ووصيته ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ﴾ [السجدة:١٤] أي : ٢٥ تركناكم في العذاب .

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/١٥٦) .

وقوله تعالى : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٧] إذا فمعناه : أنه ترك عهد الله ووصيته[١] ، وتأول وأراد الخير فلم يصبه[٢] ، أو ظن تدارك فعلته بالتوبة لحب الخلد[٣] .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه:١١٧] ولم يقل فتشقيا ؛ والخطاب لآدم وحواء عليهما السلام فكيف ؟

٥ والجواب من وجوه :

أحدها : أن الرجل قيم على أهله وأميرهم ، فشقاؤه يتضمن شقاءهم وسعادته تتضمن سعادتهم ، فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما تضمنه الكلام[٤] .

الثاني : أنه إنما أسنده إليه دونها ؛ للمحافظة على الفاصلة .

الثالث : أنه أراد الشقاء في طلب القوت وإصلاح المعاش ، وذلك وظيفة الرجل

١٠ دون المرأة[٥] .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [طه:١٢٠] وقال في الأعراف : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ﴾ [الأعراف:٢٠] فما الفرق ؟

والجواب : أنه عدى هنا فعل وسوس بـ« إلى » باعتبار انتهاء الوسوسة إلى آدم وبلوغها إياه ، وتعديته باللام في الأعراف باعتبار أن الوسوسة كانت لأجلهما[٦] .

١٥ **خامسا** : قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه:١٢٠] .

لم يذكر النهي عنها هنا ، وذكر النهي عنها في سورة البقرة ، وهذا العرض متقدم على الإغراء بالأكل منها المحكي في قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾

٢٠ [الأعراف:٢٠] ولم يدله الشيطان على شجرة الخلد حقيقة بل كذبه ودله على شجرة

---

(١) تفسير الرازي المسمى : (انموذج جليل) ص"٣٣١" .

(٢) تفسير القاسمي المسمى (محاسن التأويل) ، محمد جمال القاسمي (١٠٨/٢) عن الفقيه المشهور أبي محمد بن حزم ؛ الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٠/٤) .

(٣) المصدر السابق (١٠٨/٢) ؛ وانظر : (التحرير والتنوير) (٣١٩/١٦) .

(٤) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٣٣٢" ؛ وانظر : (التحرير والتنوير) (٣٢١/١٦) .

(٥) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٣٣٢" .

(٦) التحرير والتنوير (٣٢٥/١٦) ، م ٨ .

أخرى ، بدليل أن آدم لم يخلد ، فحصل لآدم توهم أنه إذا أكل من الشجرة التي دله عليها الشيطان أن يخلد في الحياة . وسماها هنا ﴿ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ [طه:١٢٠] بالإجمال ؛ للتشويق إلى تعيينها حتى يقبل عليها ثم عينها له عقب ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ [طه:١٢١] .

سادسا : إن قيل هل يجوز أن يقال : كان آدم عاصيا غاويا من قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ ؟ [طه:١٢١] .

والجواب : أنه يجوز أن يقال : عصى آدم كما قال الله تعالى ، ولا يجوز أن يقال : كان آدم عاصيا ؛ لأنه لا يلزم من جواز إطلاق الفعل جواز إطلاق اسم الفاعل ؛ ألا ترى أنه يجوز أن يقال : تبارك الله ، ولا يجوز أن يقال : الله متبارك ، ونحو ذلك .

ويجوز أن يقال : تاب الله على آدم ، ولا يجوز أن يقال : الله تائب ، ونظائره كثيرة ...[1] .

سابعا : قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه:١٢٣] وفي سورة البقرة : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ ﴾ [البقرة:٣٨] وفي الأعراف : ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ ﴾ [الأعراف:٢٤] فثنى في سورة طه ، وجمع في سورتي البقرة والأعراف ، فما وجه ذلك ؟

والجواب : إما لأن أقل الجمع اثنان كما قيل به ، أو لأن الخطاب يشملهما ويشمل ذريتهما . وقيل : الضمير يعود إلى آدم وحواء وإبليس[2] .

سادسا : سورة ص .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ

(١) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٣٣٢" .

(٢) أحكام من القرآن ص"١٧٣" ؛ وانظر : (زاد المسير في علم التفسير) ، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (٥/٢٢٧) ؛ التفسير الكبير (١٢٩/٢٢،١٣٠) ؛ البحر المحيط (٦/٢٦٥) .

أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٧١-٨٥] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : ورد في السورة تفصيل ما جرى من قول الملائكة ، فهو يبين ما أجمل هنا وإن كان متأخرا ؛ إذ المقصود من سوق القصة هنا الإتعاظ بكبر إبليس دون ما نشأ عن ذلك .

ثانيا : تبين من آيات سورة (الحجر) وسورة (ص) تشابه كبير في عرض الآيات حيث وقع في سورة الحجر ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ ﴾ [الحجر:٣١] وفي هذه السورة ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ ﴾ [ص:٧٤] فيكون ما في هذه الآية يبين الباعث على إباء إبليس .

ووقعت هنا زيادة ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص:٧٤] وهو بيان لكون المراد في سورة الحجر من قوله : ﴿ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٣١] الامتناع من أن يكون من الساجدين لله المنزهين له عن الظلم والجهل[1] .

ثالثا : في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص:٧٥] الآية .

فيه دلالة على أن لله تعالى يدين كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤] ومذهب السلف في هذا : أن لله يدين ليستا كأيدينا ، ولله سمع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ... منزه عن مشابهة المخلوقين ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] .

رابعا : إن قيل إن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص:٧٨].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠١/٢٣) ؛ وانظر ذكر ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٣٤] أيضا من لطائف سورة البقرة ص"٣٤" .

يدل على أن غاية لعنة الله لإبليس هي يوم القيامة ثم تنقطع .

فالجواب : كيف تنقطع وقد قال تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٤] ولكن مراده أن عليه اللعنة طوال مدة الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة اقترن له باللعنة من أنواع العذاب ما ينسي عنده اللعنة فكأنها انقطعت[١] .

٥ **خامسا** : قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾ [ص:٨٤] احتج بهذه الآية على أن الكل بقضاء الله ، حيث أخبر بأن إبليس لا يؤمن بقوله : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص:٧٧-٧٨] وصدور الإيمان منه محال مع أنه أمر به ؛ ولأنه تعالى قضى بأن يملأ جهنم من الكفرة ؛ فلو لم يكفروا للزم الكذب والجهل في حق الله تعالى[٢] ، وهذا محال أيضا . فكان قوله الحق عز وجل ،

١٠ وقضاؤه الحق ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣] .... ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:٧٣] .

سادسا : قوله تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٥] إن قلت : ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد لماذا؟ فالجواب : أنه لا يخلو أن

١٥ يؤكد به الضمير في (**منهم**) ، أو الكاف في (**منك**) مع (**من تبعك**) . والمعنى : لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين ، لا أترك منهم أحدا . أو لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت في ذلك بينهم[٣] .

---

(١) تفسير الكشاف (١٠٨/٤) ؛ وانظر : (تفسير الرازي) (انموذج جليل) ص"٤٤٠" .

(٢) التفسير الكبير (٢٣٥/٢٦) .

(٣) تفسير الكشاف (١٠٨/٤) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة

كبر إبليس وعصيانه لأمر الله وامتناعه عن السجود لآدم .

أخبر الله عز وجل ملائكته أنه سيخلق بشرا من طين ، فإذا سواه ونفخ فيه من روحه فليكرموه بالسجود له على وجه التحية له والتكريم ؛ اعترافا بفضله[1] . ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته بما شاء .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص:٧١-٧٤] .

هذا ، وقد اختلف العلماء في سجود الملائكة لآدم على ثلاثة أقوال[2] :

القول الأول : أن السجود كان تكريما لآدم – عليه السلام – وإظهارا لفضله وطاعة لله تعالى ، وكان آدم كالقبلة لنا ، كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة ، والصلاة لله عز وجل[3] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء:٧٨] والمقصود : أن الصلاة لله لا للدلوك ، لذا جاز أن يقال : صليت للقبلة مع أن الصلاة تكون لله تعالى لا للقبلة .

وممن ذهب لتأييد هذا القول ابن العربي في أحكامه[4] حيث قال :

« اتفقت الأمة على أن السجود لآدم لم يكن سجود عبادة ، وإنما كان على وجهين :

الأول : إما سلام الأعاجم بالتكفي والإنحناء والتعظيم .

الثاني : وإما وضعه قبلة كالسجود للكعبة وبيت المقدس ، وهو الأقوى لقوله في الآية الأخرى : ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٦٢] ولم يكن على معنى التعظيم، وإنما صدر على وجه الإلزام للعبادة واتخاذه قبلة ، وقد نسخ الله تعالى جميع ذلك في هذه الملة »[5] .

---

(١) سبق ذكره عند ذكر لطائف آيات سورة البقرة ص"١٢،١٣" .

(٢) انظر : (التفسير الكبير) (٢/٢١٢،٢١٣) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري) (١/٢٩٣) ، ط الثانية ، ١٤٠٥هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . وانظر : تفسير البغوي (معالم التنزيل) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (١/٨١) .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (١/١٦) ط دار الفكر .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي (١/١٦) .

القول الثاني : إن هذا السجود هو كما جاء في أصل اللغة ، وهو الانقياد والخضوع ، ولو لم يكن فيه وضع الجبهة على الأرض ، وإنما هو الإنحناء ؛ تحية وتكريما وإقرارا بالفضل .

قال القرطبي في كتابه الجامع : « وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم ، الذي هو وضع الجبهة على الأرض ، ولكنه بقي على أصل اللغة فهو من التذلل والإنقياد ، أي : اخضعوا لآدم ، وأقروا له بالفضل ، فسجدوا أي : امتثلوا ما أمروا به »[1] .

القول الثالث : إن السجدة كانت خاصة بآدم عليه السلام ؛ تعظيما وتحية له كالسلام منهم عليه ، ولا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا الله تعالى ، أو كان هذا مشروعا في الأمم الماضية ، ولكنه نسخ في ملتنا ومنع في شرعنا .

وقد كان ذلك مشاعا في الأمم السابقة ، فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين ما كان في زمن يعقوب – عليه السلام – والدليل على أنه فعل في زمنه قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف:١٠٠] .

قال ابن كثير : « وقد كان هذا سائغا في شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، و لم يزل هذا جائزا من لدن آدم عليه السلام إلى شريعة عيسى عليه السلام . فحرم هذا في هذه الملة ، وجعل السجود مختصا بجانب الرب سبحانه وتعالى . وفي الحديث : أن معاذا قدم الشام ، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال : ما هذا ؟ فقال : إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله فقال : « **لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها** »[2] .

وقد رجح هذا القول الرازي ، وضعف القولين الأولين وهما : كونه جعل قبلة ؛ إذ لا يظهر فيه شرف .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (١/٢٥٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي .
والحديث رواه أحمد في مسنده (٤/٣٨١) ، برقم [١٩٤٢٢] .
ورواه الترمذي ، كتاب الرضاع ، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة (٣/٤٥٦) ، برقم [١١٥٩] ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/٣٤٠) ، برقم [٩٢٦] .
ورواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة (١/٥٩٥) ، برقم [١٨٥٢]، [١٨٥٣] .

والثاني : إن المراد بالسجود : الخضوع لا الإنحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف ، ويدل عليه ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٧٢] ففي الآية أمر بالوقوع أي : اسقطوا وخروا على الأرض . والسقوط يكون بوضع الجبهة على الأرض وليس مجرد الإنحناء . وهذا التعليل كاف لضعف هذا القول ، فيبقى القول الثالث وهو الأرجح(1) .

٥ **أما سبب امتناع إبليس عن السجود :**

فزعمه أنه خير من آدم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢] لأنه بزعمه لا يمكن أن يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، ويعني بهذا أنه خير منه فكيف يؤمر بالسجود له ؟

ثم بين وجه هذه الخيرية بأنه خلق من نار ، والنار أشرف من الطين الذي خلق منه آدم .

١٠ فنظر اللعين إلى أصل العنصر الذي خلق منه ، و لم ينظر إلى التشريف العظيم الذي ناله آدم : وهو خلق الله لآدم بيده ، وأنه نفخ فيه من روحه ، وقاس(2) قياسا فاسدا في

---

(١) انظر : (التفسير الكبير) (٢/٢١٣) ؛ تفسير ابن كثير (١/٨١) .

(٢) في الحديث : عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « **أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس . قال الله تعالى له : اسجد لآدم . فقال : إنه خير منه** » . أخرجه ابن جرير بسنده قال : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن كثير عن ابن شوذب ، عن مطر الوراق ، عن الحسن . انظر : (تفسير الطبري) ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر ، محمد بن جرير الطبري (٢/٣٢٨) ، ط دار التربية والتراث ، قال ابن كثير : إسناده صحيح . وقال : حدثني عمر بن مالك ، حدثنا يحيى بن سليم الطائفي ، عن هشام ، عن ابن سيرين . وإسناده صحيح أيضا . انظر : (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) للحافظ أبي نعيم ، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٣/١٩٧) ط:دار الكتاب العربي . عن جعفر بن محمد، عن جده . انظر : (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) ، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٣/١٣٤) ، ط دار الكتب العلمية .

وقال ابن سيرين : (أول من قاس إبليس) فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس . انظر : (جامع البيان) بسنده السابق (١٢/٣٢٨) .

وهذا القياس الذي قاسه إبليس من أفسد الأقيسة وهو باطل من عدة وجوه :

الأول : أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود . والقاعدة الأصولية تقول : القياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل .

الثاني : أن قوله : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف:١٢] يدل على نقصه وبرهان ذلك إعجابه بنفسه وتكبره والقول على الله بلا علم ، وأي نقص أعظم من هذا .

الثالث : أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب كما ذكرناه . انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٩٨،٩٩) ، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي .

مقابلة نص وهو قوله تعالى : ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٧٢] كما أنه لم ينظر – لعنه الله – لأمر من أمره بالسجود (وهو الله جل جلاله) ، ثم إنه في ادعائه أن النار أشرف من الطين ادعاء غير صحيح . فإن الطين أحسن من النار . فإن الطين محل النبات والنمو والزيادة ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة(١) .

ثم إن امتناعه عن السجود واحتجاجه بالحجج الواهية جعله ينضح بما في داخله من الكبر والحقد والحسد على آدم وذريته ، قال تعالى : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾ [البقرة:٣٤] وتعاظم في نفسه أن يطيع أمر الله بالسجود لآدم ، فصار بفعله هذا من الكافرين الجاحدين المطرودين من رحمة الله عز وجل .

وفي الصحيح عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله** » ! « وفي رواية أبي كريب : **يا ويلي** » ! أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار »(٢) .

فهذا دليل على قدرته على السجود ؛ لذا استحق ذم الله تعالى له وتكفيره إياه ؛ لعدم امتثاله الأمر بالسجود ، ودليل على تكبره ، والكبر : بطر الحق وغمط الناس واحتقارهم كما في الحديث الصحيح(٣) وانطبق هذا على إبليس ؛ حيث رأى أنه أفضل من آدم في جنسه وعنصره فضلا عن أنه ترك طاعة الله تعالى في السجود لآدم ، واعترض على أمر الله وحكمته فقال : ﴿ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴾ [الإسراء:٦١] وقال : ﴿ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ [الحجر:٣٣] .

فأبدى غاية التكبر وأظهر حسده لآدم على ما أعطاه الله من الكرامة .

قال ابن كثير : قال قتادة(٤) : حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة وقال : أنا ناري وهذا طيني . وكان بدء الذنوب "الكبر" استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام، فكان جزاؤه الطرد من الجنة .

---

(١) انظر : (تفسير ابن جرير الطبري) (٣٢٧/١٢) ، تفسير ابن كثير (٢١٢/٢) .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨٧/١) ، برقم [٨١] .

(٣) رواه مسلم كتاب الإيمان – باب تحريم الكبر وبيانه (٧٨/١) برقم (١٤٩) .

(٤) قتادة : هو ابن دعامة – بكسر الدال – بن عزير ، مفسر حافظ رأس في العربية وأيام العرب ، ضرير أكمه ، قال فيه الإمام أحمد بن حنبل : قتادة أحفظ أهل البصرة ، مات بواسط من الطاعون سنة ١١٨هـ . انظر : (سير أعلام النبلاء) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٢٦٩/٥) ، ط مؤسسة الرسالة ؛ الأعلام ، خير الدين الزركلي (١٨٩/٥) ، ط دار العلم للملايين .

المطلب الثالث : نوع العقوبة

« لعنه وطرده من الجنة »

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأعراف:١٨] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر:٣٤-٣٥] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص:٧٧-٧٨].

تفيد الآيات أن الله تعالى طرد إبليس من الجنة ومن المنزلة الرفيعة التي كان فيها ، فقال له : ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾ أي : من الجنة . فما يصح أن تستكبر عن أمري وتسكن دار قدسي . اخرج ذليلا مهانا حقيرا مدحورا إلى الأرض التي هي مقر من يطيع ويعصي ؛ فمن تواضع لله رفعه ؛ ومن تكبر على الله وضعه[1] .

وفي الحديث : « **من تواضع لله درجة رفعه الله درجة حتى يجعله في عليين ، ومن تكبر على الله درجة وضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل السافلين** »[2]

عندها يئس إبليس اللعين من إدراك مقصده حيث خانه طبعه وجبلته ، عندها طلب من الله تعالى إمهاله إلى يوم البعث .

قال تعالى عنه : ﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤-١٥] .

---

(١) انظر : (تفسير القرآن الحكيم) ، الشهير (بتفسير المنار) (٨/٣٣٤) ، ط دار الفكر . بتصرف ؛ تفسير القاسمي ، المسمى (محاسن التأويل) ، لعلامة الشام : محمد جمال الدين القاسمي (٧/٢٦- ٢٧) ، ط دار الفكر .

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد (٣/٧٦) ، برقم [١١٧٤٣] ، وصححه ابن حبان في صحيحه برقم [٥٦٧٨] .

وأخرجه ابن ماجه في سننه (سنن الحافظ أبي عبد الله ، محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه) ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر (٢/١٣٩٨) ، برقم [٤١٧٦] ، وانظر : ما ذكره الشيخ الألباني في الصحيحة عنه (٥/٤٣٣) برقم [٢٣٢٨] .

وقال أيضا عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر:٣٦-٣٨] و [ص:٧٩-٨١] .

وهذه أيضا جهلة من جهالاته الخبيثة ، حين سأل الله تعالى النظرة إلى قيام الساعة؟ حيث أراد ألا يموت أبدا ، فخيب الله أمله فأجابه بما يبطل مراده ، وعامله بنقيض قصده ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ وهو اليوم الذي يعلمه الله فقط . وهو اليوم الذي تموت فيه الخلائق كلها ، ثم ينزل الله به سخطه وغضبه وأليم عقابه .

ولما علم اللعين بإمهال الله له كشف عن حقده وعداوته لآدم وذريته وما هو عازم عليه ليضلهم ويغويهم عن صراط الله المستقيم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف:١٦].

وقال في الآية الأخرى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٣٩] .

وقال عنه أيضا : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢-٨٣] .

وقال أيضا : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٢] .

وأنت ترى أيها المسلم في هذه الآيات أن إبليس يقسم بعزة الله ، أو بإغواء الله له لئن أخره إلى يوم القيامة ليغوي بني آدم كلهم ويستأصلهم بالإضلال ويقودهم كيف شاء ، بل ويزين لهم سلوك طرق أخرى ، فلا يستقيمون على الطريق الحق ، ولا يلتزمون بشرع يهديهم إليه .

إلا عباد الله المخلصين ، الملتزمين بطاعة ربهم ، الهاربين من حبائل شياطينهم ، المتوكلين على خالقهم ، المخلصين في عبادتهم . والحاصل : أن اللعين مواظب على الإفساد والاعتراض لبني آدم بالوسوسة مواظبة لا يفتر عنها ، وذلك بأن يزين لهم في الأرض بفعل المعاصي وتزيين الشهوات وتحسين القبائح لما علم من ميل بني آدم إلى ذلك .

هذا ما كشف عنه إبليس من حقده وحسده لآدم وذريته ، فماذا

كان رد الباري عز وجل عليه ؟ ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأعراف:١٨] ومثلها قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [ص:٨٤-٨٥] .

﴿ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴾ [الإسراء:٦٣] .

هذه الآيات تبين جزاء من يتبع إبليس فيما يدعو إليه من خبث وشر وهو نار جهنم يعذبون فيها ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ۝٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧] وعندها لا ينفعهم الشيطان الذي أغواهم ، بل يقوم فيخطب فيهم ويقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [إبراهيم:٢٢] .

وهذا من إبليس – لعنه الله – تيئيس لهم ؛ ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم .

لذا ينبغي للمسلم أن يعتصم بالله تعالى من شره ، ويدعو الله تعالى أن يعيذه منه وهذا ما سنعرض إليه في استخراج الدروس المستفادة من ذلك .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبة إبليس

الأول : أصول المعاصي ثلاثة[1] : الكبر ، والحرص ، والحسد .

فالكبر أول معصية عصى الله بها من إبليس ، ثم تلاه كل من تكبر عن وحيه وعتا عن أمره .

وأما الحرص فهو أيضا أول معصية عصي الله بها من الأبوين حين أكلا من الشجرة ، ثم تلاهما كل من تجاوز حدود الله في نهيه من بني آدم إلى قيام الساعة .

وأما الحسد فهو أول ذنب عصي الله به في الأرض من جهة قابيل حيث قتل هابيل حسدا . ثم إن جميع الفتن والجحود الحاصلة بين أهل الأرض منشؤها الحسد[2] .

لذا يجب على المسلم الاحتراز من الكبر والحسد ؛ لأنهما إثمان عظيمان .

قال الإمام الرازي : إن إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر[3] . فكان بدء الذنوب الكبر ؛ ولهذا جاء التحذير من الكبر ، والوعيد للمتكبرين قال ﷺ : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر** »[4] الحديث .

وحقيقة الكبر : بطر الحق ، وغمط الناس . كما جاء في تكملة الحديث السابق .

بطر الحق : أي دفعه ورده وعدم الخضوع له وعدم الانقياد له ؛ استخفافا به ، وترفعا عليه ، وعنادا له .

وأما غمط الناس : فاحتقارهم والازدراء بهم[5] .

وفي الحديث أيضا : أن رسول الله ﷺ قال : « **يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم**

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ، لعبد الرحمن بن محمد الدوسري (٨٩/٢) ، ط الأولى ، مكتبة دار الأرقم .

(٢) سنفرد له بحثا خاصا عند الحديث عن عقوبة قابيل .

(٣) التفسير الكبير (٢٢٧/٦) .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الايمان ، باب تحريم الكبر وبيانه (٧٨/١) ، برقم [١٤٩] أو [٩١] ص"٩٣" .

(٥) تفسير المنار (٩٦/٥) ، (٣٣٤/٨) ؛ وانظر : (صفوة الآثار) (٨٥/٢) .

يقال له : بولس . يسقون من طينة الخبال : عصارة أهل النار »[1] .

فعلى المسلم أن يحذر من الكبر والخيلاء ؛ حتى لا يصيبه عذاب الله المذكور . فهؤلاء المتكبرون الذين يظنون أنهم خرقوا الأرض ، وبالغوا الجبال طولا ، وصعروا خدودهم للناس ، ولبسوا ثياب الشهرة ، وسمعوا بأفعالهم ، وراءوا بأعمالهم ، يحشرون كالنمل هوانا ، يغشاهم الذل ، يساقون إلى سجن داخل جهنم ، ويسقون من عصارتهم نعوذ بالله من ذلك! .

فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يبينوا للناس حقيقة الكبر ومظاهره وآثاره ، وأن أخلاق المسلم يجب أن تكون بعيدة عن هذا المرض الخطير .

ثانيا : قلنا من قبل : إن القاعدة الأصولية تقول : القياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل[2] .

فلا رأي لأحد مع وجود النص والواجب على المسلم القبول والتسليم بما ورد عن الله تعالى ، أو عن رسوله ﷺ في السنة الصحيحة ، والإيمان بذلك بدون تردد ولا ضيق ولا حرج ولا كراهية . لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١] .

ثالثا : قول إبليس : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف:١٢] قول لا مبرر له ولا عذر له في مخالفة أمر الله ، وفصل هذه الخيرية بقوله : ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢] وهذا هو الكبر الصراح الذي يتعلل به كثير من بني البشر حين يعتزون ويفتخرون بأجناسهم وأحسابهم على غيرهم من البشر ، وقد يكونون من بني جلدتهم أو من أهل لسانهم أو ربما من أقربائهم مما نشأ عن ذلك الطبقية المقيتة التي أفقرت ناسا

(١) رواه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، كتاب صفة القيامة ، باب ٤٧ ، (٦٥٥/٤) ، برقم [٢٤٩٢] . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وحسنه الألباني . انظر : (صحيح سنن الترمذي) (٣٠٤/٢) ، برقم [٢٠٢٥] لمحمد ناصر الدين الألباني . الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج .

ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٤٩/٦) ، كتاب الأدب ، باب ٢٠٠ ما ذكر في الكبر (٢٤٩/٦) ، برقم [٥] .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٩٨/٢) .

من البشر على حساب جنسهم أو حسبهم . وتركوا الدين بعيدا عن حياتهم حتى جعلوه في المناسبات العامة فقط أو تراثا يرجع إليه حين الاحتياج إليه .

رابعا : أن افتخار إبليس اللعين بمادته التي خلق منها جهل ظاهر من وجوه[1] :

الأول : أن أصل بعض الأشياء النفيسة خسيس أو نجس أو قذر . فالمسك من الدم ، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم ، والأقذار التي تعاف من مادة الطعام الذي يحب ويشتهى .

الثاني : أن الملائكة خلقوا من النور ، والشيطان خلق من مارج من نار وما فوقه دخان وما تحته لهب صاف ، ولاشك أن النور خير من النار . والملائكة على قدرهم وحسن خلقهم امتثلوا لأمر الله وسجدوا لآدم فكان هو أولى بالسجود .

خامسا : إذا سلمنا جدلا أن خيرية الشيء تابعة لأصله الذي خلق منه فلا نسلم أن النار خير من الطين ؛ فإن جميع الأحياء النباتية والحيوانية في هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات أو بالواسطة ، وهي خير من النار بكل نوع من أنواع الاعتبارات التي تعرفها العقول . وليس للنار مثل هذه المزايا ولا ما يقرب منها[2] .

سادسا : أن عبارة إبليس ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾ [الأعراف:١٢] فيها عدة أمور يجب على المسلم أن يبتعد عنها :

أ – لو قالها المسلم ، فمعنى ذلك أنه تكبر على غيره ، والله تعالى أمر أحب الناس إليه بالتواضع . فقال له : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥] وقال عن المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤] .

ب – أنه لو قالها المسلم ، فمعنى ذلك أنه زكى نفسه ومدحها ، والله تعالى قال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢].

جـ – أنه لو قالها ، فمعنى ذلك أنه افتخر بأصله ونسبه كالشيطان حينما قال : ﴿ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [الأعراف:١٢] ومعنى مقولته تلك عند الرازي :

---

(١) تفسير المنار (٨/٣٣٠-٣٣٢) ؛ وانظر : (تفسير ابن كثير) (٢/٢١١،٢١٢) .

(٢) تفسير المنار (٨/٣٣١،٣٣٢) .

أنا أشرف منه في الأصل والنسب . فكيف أسجد له ، وكيف أتواضع له[1] ؟ .

ومن المعلوم أن التقوى هو الميزان الذي يرفع الإنسان المسلم في الدنيا والآخرة قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣] .

سابعا : بيان أن العناد والضلال يوردان المرء الموارد الوبيلة ، ويسوقانه سوقا إلى التردي في مهاوي الهالكين ، وهذا ما حصل لإبليس حين عاند ورد أمر الله وافتخر وتكبر بأصله وامتنع عن السجود و لم يتنازل عن مبدئه مع علمه بهلاكه نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه! .

ثامنا : بيان جهل إبليس وحمقه حين غفل عما خص الله به آدم من خلقه بيده والنفخ فيه من روحه وشرفه بسجود الملائكة له وجعله أفضل من الملائكة وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة .

تاسعا : معصية إبليس معصية عظيمة وخطيرة ، ولهذا كررها الله في القرآن الكريم وأعادها بضع مرات ؛ لنعتبر ونكون منها على غاية الحذر[2] . ومعصية الكبر أو ما يسمى (جنون العظمة) أو المخيلة تؤدي في الغالب إلى الكفر – والعياذ بالله – لأن المتكبر يرى غيره لا شيء ، فيغمط الناس حقوقهم ، ويرد الحق ولو كان مثل الشمس .

ذلك أن المعاصي نوعان : إما مخالفة أمر ، أو مخالفة نهي .

والشنيع الفظيع هو مخالفة الأمر ؛ لأنه في الغالب لا يجري إلا من استخفاف بالأمر وانتقاص لجنابه وعدم مبالاة به ، ولذا كان منشؤه الاستكبار والغطرسة كما جرى من ذنب إبليس الذي أرداه وأكسبه الشقاوة في الدارين ؛ لأن عصيانه عن تكبر من خبث في نفسه جره إلى الكفر .

وعلى كل فترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المنهيات ؛ لأن تركها منشؤه العزة والكبر ، ثم إن فعل المأمور أحب إلى الله من اجتناب المحظور ، فكل تارك لأمر من أوامر الله فهو وارث لإبليس ، كتارك الصلاة فإنه من جند إبليس الذي قيل له :

---

(١) انظر : (المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة) (١/٤٠-٤١) ، د/ عبد الكريم زيدان ، ط مؤسسة الرسالة .

(٢) صفوة الآثار (٢/٨٩) .

اسجد . فلم يسجد ، ولهذا وردت النصوص بكفره ووجوب قتله[1] .

عاشرا : بيان أن ما سلط به الشيطان على بني آدم لا يعدو أن يكون من المكايد الخفية والأسباب الدقيقة ؛ ليعلم الناجي أنه إنما نجا بتوفيق الله ولطفه ، لذا عليه أن يقبل على الشكر متبرئا من حوله وقوته[2] .

الحادي عشر : على المسلم أن يلجأ إلى الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ، ويكثر من إيرادها عند كل أمر ذي بال :

فالمسلم إذا أراد أن يقرأ القرآن فإن عليه أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨] . والمسلم إذا ألقى الشيطان في نفسه وسوسة فإنه يشرع له أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأنه لا ينفع معه مدارة ولا حسن كلام ولا مقابلة إساءة بإحسان ولا أي شيء آخر من أمور التلطف ، إنما الذي يرضيه أن يطيعه في كل معصية لله . قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦] أي : وإما يلقين الشيطان في نفسك وسوسة ليحملك على مجازاة المسيء بالإساءة والانتقام منه ، فاستجر بالله من وساوس هذا الشيطان ونزغه وشره ؛ فإنه يسمع استعاذتك ويعلم بحالك[3] .

والمسلم إذا أراد أن يجيره الله من الشيطان فعليه أن يكثر من ذكره تعالى ليلا ونهارا ، صباحا ومساء ، سرا وجهارا . لقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨] لأن الذكر يطرد الشيطان ويرضي الرحمن ، ويذكره فيمن عنده ، ويحيي الله قلبه .... الخ

وفي الحديث : « **مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت** »[4].

---

(١) نفس المصدر (٢/٩٠) .

(٢) انظر : (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (٧/٣٨٠) ، ط دار الكتاب الإسلامي .

(٣) انظر : (تفسير ابن كثير) (٤/١٠٩) .

(٤) رواه البخاري ، باب فضل ذكر الله تعالى (٤/١٧٣) ، برقم [٦٤٠٧] .

ومن أراد الاستزادة من فوائد الذكر فليرجع إلى كتاب " الوابل الصيب من الكلم الطيب " ص"٥٦-١٢١" ، ط الكتاب العربي .

المبحث الثاني

عقوبة آدم وحواء عليهما السلام

ذكرت عقوبة آدم عليه السلام في ثلاث سور من القرآن الكريم صراحةً هي : سورة البقرة ، سورة الأعراف ، سورة طه .

أما سور : الحجر ، والإسراء ، والكهف ، وص فلم تتعرض لعقوبة سيدنا آدم وإنما فصلت عقوبة إبليس فقط . فلْيُعلم ذلك .

المطلب الأول : الآيات التي ذكرت عقوبته وعقوبة زوجه من سورة البقرة :

أولاً : سورة البقرة :

قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] [البقرة:٣٥-٣٨] .

ثانياً : سورة الأعراف :

قال تعالى : ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا

(١) وقد ذكرنا لطائف الآيات فيما سبق عند ذكر عقوبة إبليس لعنه الله .

تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (١) [الأعراف:١٩-٢٥] .

ثالثاً : سورة طه :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١١٥-١٢٣] .

(١) وقد ذكرنا لطائف الآيات فيما سبق عند ذكر عقوبة إبليس .

المطلب الثاني : سبب العقوبة

سيكون الحديث عن سبب العقوبة في النقاط التالية :

أولاً : آدم وزوجه في الجنّة .

ثانياً : تحذير الله لآدم وزوجه – عليهما السلام – من طاعة إبليس .

ثالثاً : ضعف آدم وزوجه – عليهما السلام – أمام وسوسة إبليس .

أولاً : آدم وزوجه في الجنّة .

قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥] .

بعد أن طرد الله إبليس من الجنّة لاستكباره وامتناعه عن السجود لآدم ؛ أسكن الله تعالى آدم وزوجه الجنّة ، وأطلق لهما حرية الأكل من الجنة من حيث شاءا إلا من شجرة واحدة حددها لهما ونهاهما عن قربها والأكل من ثمرها ؛ حتى لا يكونا من الظالمين . وفي هذا امتحان لهما ليظهر ما في استعدادهما وبنيهما من قوة الإرادة والثبات ، أو الميل إلى المحظور لمعرفته واختياره أو الشغف به . ثم قال : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ إن فعلتما وتجاوزتما ما نهيتكما عنه ، ولم يقل : فتكونا ظالمين ، بل قال : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي : من العريقين في الظلم[1] ، والنهي عن قرب الشيء أبلغ في النهي عنه ؛ فهو يقتضي البعد عن موارد الشبهات التي تغري به وتفضي إليه ؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . كما في حديث رسول الله ﷺ . فظاهر النهي هو التحريم . والمنهي عنه : الأكل من الشجرة ، غير أنه سبحانه وتعالى نهى عن قربانها مبالغة ؛ ولهذا جعل جل شأنه العصيان مرتباً على الأكل[2] .

غير أن صاحب تفسير « غرائب القرآن » قال : إن النهي عن الأكل من الشجرة كان نهي تنزيه ؛ لأن الأصل في الأشياء الإباحة ، والجواز ثابت بحكم الأصل ، فإذا ضممنا هذا الأصل إلى مدلول اللفظ صار المجموع دليلاً على التنزيه ، وهذا أولى ؛ ليرجع حاصل معصيته إلى ترك الأولى ، فيكون أقرب إلى عصمة الأنبياء[3] .

ولعله يشير بذلك إلى أنه لا يجوز في حق الأنبياء ارتكاب الكبائر . وهذا حق . ويمكن أن يرد عليه بأن آدم ما نبئ إلا بعد أن هبط إلى الأرض ، إذ هي دار التكليف .

---

(١) صفوة التفاسير (٨٧/٢) .

(٢) انظر : (تفسير المنار) (٣٤٦/٨) ؛ صفوة الآثار (٨٦/٢) .

(٣) تفسير غرائب القرآن ، ورغائب الفرقان ، لنظام الدين الحسن (٢٤٨/١) ، ط دار الباز .

أما وهو في السماء فما كان قد نبئ بعد ، وأكله من الشجرة لم يترتب عليه عقاب أكثر من الخروج من الجنّة ؛ لأنها ليست دار إقامة لمن يخالف فيها أمر الله تعالى[1] .

والخلاصة : أن الله تعالى أسكن آدم وزوجه الجنّة ونهاهما عن الأكل من شجرة معينة ؛ اختباراً منه تعالى وابتلاء لهما ؛ ليمضي قضاؤه تعالى فيهما وفي ذريتهما .

ثانياً : تحذير الله لآدم وزوجه عليهما السلام من طاعة إبليس .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥] و [الأعراف:١٩] .

وفي السورة الأخرى قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه:١١٧] .

فالآية الأولى توجد في سورتي (البقرة ، والأعراف) تكررت للتأكيد على آدم من مغبة طاعة إبليس .

وأما آية سورة (طه) فقد كشفت لآدم عليه السلام العداوة الحقيقية التي تؤدي به في النهاية إلى إخراجه من الجنّة .

هذه رعاية من الله وعنايته حيث نبه آدم إلى عدوه وحذره عقب عصيان إبليس وامتناعه عن السجود له ورغبه فيما عنده من خيرات الجنّة فقال له : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه:١١٨-١١٩]

أما عداوته له فكان أولها بتكبره عن السجود وحسده له حين أكرمه الله بهذه الكرامات وطرده منها ، فكان زعمه أن آدم هو سبب بليته ولابد أن ينتقم منه ويخرجه منها ؛ فكان لابد أن يظهر سخطه من جهة كفره بالله تعالى أولاً واعتراضه على قضائه ثانياً ثم محاولته إقامة الدليل على عدم استحقاق آدم لهذا التكريم كله ثالثاً .

فهذه ثلاثة أمور . واحد منها يكفي لكفره وإخراجه من الجنة . فالله تعالى ما ظلمه وإنما حكم عليه بعدله عز وجل ، وانتقامه من آدم وذريته ما هو إلا تحقيق لما قدر الله على آدم وذريته امتحاناً وابتلاء منه تعالى ، فكان لابد من تحذير آدم وذريته من مغبة طاعة إبليس وذريته قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف:٥٠] .

---

(١) انظر : (أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير) ، لأبي بكر : جابر الجزائري (٤٥/١) ، ط مكتبة العلوم والحكم .

أي : إن فعلوا ذلك بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن ، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته[1] .

وقال سبحانه محذرا لآدم أشد مما سبق : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه:١١٧] أي : إياك أن يسعى إبليس في إخراجك منها فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك ، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء لا كلفة فيه ولا مشقة ولا عناء[2] .

ومما يدل على أن آدم لم يخلق للخلود في الجنة أن الله تعالى حذره من الوقوع في شراك إبليس بقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة:٣٥] وقوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه:١١٧] وفي هذا إشعار له بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنة ، لأن المخلد لا يحظر عليه شيء ، ولا يؤمر ولا ينهى والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] فدل على خروجه منها[3] . وإليك بيان ذلك :

ثالثا : ضعف آدم وزوجه عليهما السلام أمام وسوسة[4] إبليس :

قال تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة:٣٦] الآية .

وقال سبحانه : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف:٢٠] أي : استزلهما بالوسوسة والإغراء اللذين لهما أعظم التأثير في القلوب ، وقد أخبرنا عن طريقته في إغواء أبوينا بالكلام المعسول الذي يدخل القلوب حيث غزاهما بدغدغة العواطف وتحريك الأنانية الكامنة في القلوب قائلا لهما : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف:٢٠] وحلف لهما بالأيمان المكررة أنه ناصح لهما فيما يقول .

فدلهما بغرور ، أي : أنزلهما عن رتبة الطاعة والمقام الرفيع حيث ظل يخدعهما

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٦٤/٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣٢٠/٥) .

(٣) تفسير القرطبي (٣٠٤/١) .

(٤) الوسوسة : هي حديث خفي مكرر يلقيه الشيطان في قلب الإنسان . انظر : تفسير البغوي (معالم التنزيل) للإمام أبي محمد : الحسين بن مسعود البغوي (٢١٩/٣) ، ط دار طيبة ؛ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٩٩/٨) ، ط دار إحياء التراث الإسلامي .

بالترغيب في الأكل من الشجرة حتى أكلا منها . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأعراف:٢٢].

لقد نجحت الخدعة وآتت ثمرتها المُرَّة حين نزلا وتنازلا عن طاعة الله إلى معصيته تحت الضغط الشيطاني المشؤوم . لقد غرهما بالحلف الكاذب وظنّ آدم وزوجه عليهما السلام أن لا أحد يحلف بالله كاذباً .

قال قتادة[1] : حلف لهما بالله حتى خدعهما . وقد يخدع المؤمن بالله .

وكان بعض العلماء يقول : من خادعنا بالله خدعنا[2] . وفي الحديث عنه ﷺ : « **المؤمن غرّ كريم ؛ والفاجر خبٌّ لئيم** »[3] .

عندها نادى الله عز وجل آدم وحواء ﴿ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأعراف:٢٢] بغروره ووسوسته ، فما كان من آدم وزوجه إلا أن قالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣] .

ومن تأمل كيف وصلت وسوسة الشيطان إلى آدم عليه السلام مع علمه بعداوته ، وجد للمفسرين أقوالاً كثيرة يغلب عليها التكرار وأحياناً التعارض .

وأحسن من لمح ذلك بثاقب ذهنه الإمام الرازي حيث قال : « لا يبعد أن يقال : إن إبليس لقي آدم مراراً كثيرة ، ورغبه في أكل الشجرة بطرق

---

(١) قتادة وسنده عند ابن جرير (٣٥١/١٢) : حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد عن قتادة . صححه محمود شاكر ، واستشهد به ابن حجر في « العجاب في بيان الأسباب » ، أحمد بن علي بن حجر (٣٩٤/١) ، ط دار ابن الجوزي .

(٢) تفسير القرطبي (١٨٠/٧) .

(٣) رواه أحمد (٣٩٤/٢) ، برقم [٩١٠٧] . وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ، برقم [٤١٨] . ورواه الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في البخيل (٣٤٤/٤) ، برقم [١٩٦٤] وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وكذلك رواه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في حسن العشرة (١٤٤/٥) ، برقم [٤٧٩٠] .

والحاكم في المستدرك ، كتاب الايمان (١٠٣/١) ، برقم [١٢٨] وقال : تابعه ابن شهاب عبد ربه بن نافع الحناط ، ويحيى بن الضريس ، عن الثوري في إقامته هذا الإسناد . وغيرهم . وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٤٥/٢) .

كثيرة . فلأجل المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلامه في آدم عليه السلام »[1] .

وأما عن كيفية حصول الوسوسة فالصحيح أننا لا نعلم كيف تتم ، لأننا لا نعرف كنه الشيطان حتى ندرك أفعاله وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه ، وإنما الذي نعلمه أنه يحصل إغواؤه بصورة من الصور وإيحاء له بارتكاب المعصية حيث يدخل من نقطة ضعفه حتى يقع . نسأل الله العافية[2] .

وهنا وقفة تأمل مع آية :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه:١١٥] مع أنه قال في سورة الأعراف : ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف:٢١] ويعني : أن الأمر لم يأت بالسهولة المتصورة حتى ذاقا ، فكيف نسي ؟ ولماذا عوتب ؟

والجواب : قال ابن حزم الفقيه المشهور : إن آدم عليه السلام أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسيا بنص القرآن ، ومتأولا وقاصدا إلى الخير ؛ لأنه قدر أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملكا مقربا أو خالدا فيما هو فيه أبدا ، فأداه ذلك إلى خلاف ما أمره الله به . وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره ، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه[3] .

وقال الرازي : في نسيان آدم قولان[4] :

أحدهما : ما هو نقيض الذكر . وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان . وكان الحسن يقول : والله ما عصى قط إلا بنسيان .

الثاني : أن المراد بالنسيان : الترك . وأنه ترك ما عهد إليه من الاحتراز من الشجرة والأكل من ثمرتها ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ أي : لم نجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة .

والقول الراجح في هذه المسألة : ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من المتأخرين : الصواب أن آدم عليه السلام لما قاسمه إبليس بأنه ناصح ، وأكد كلامه

---

(١) انظر : (التفسير الكبير) (٣٦/١٤) .

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب (١٢٦٨/٣) ، ط دار الشروق .

(٣) تفسير القاسمي (١٠٨/٢) نقلا من كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ، لأبي محمد : علي بن أحمد ، المعروف بابن حزم الظاهري (١٠/٤) ، ط دار الجيل .

(٤) التفسير الكبير (١٢٤/٢٢) .

بأنواع من التأكيدات أحدها : القسم بالله (إلى أن قال) ولم يظن آدم أن أحدا يحلف بالله كاذبا فظن صدقه ، وأنه إن أكل من الشجرة المنهي عنها لم يخرج من الجنة ، ورأى أن الأكل منها وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح ، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة الأكل في أثناء ذلك باعتذار أو توبة ، كما تجد هذا التأويل في نفس كل مؤمن أقدم على معصية[1] .

وهذا ما أميل إليه ؛ لكثرة ما يخطر ببال الإنسان إذا أراد فعل معصية فيفتي نفسه ليجد له مخرجا ، إضافة إلى إثارة حب ما جبلت عليه النفس من بلوغ المراتب العالية ، وحب الخلود في النعيم ، والقسم الذي أقسمه له إبليس .

كل ذلك كان مسهلا لوقوع آدم في نسيان ما عهد إليه[2] .والله أعلم .

المطلب الثالث : نوع العقوبة

قال تعالى : ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأعراف:٢٢] .

وقال سبحانه : ﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١] .

توضح الآيتان أنه لما أكلا من الشجرة الممنوعة أخذتهما العقوبة وهما في الجنة حيث سقط عنهما لباسهما الذي كان يستر عورتهما .

قيل : كان لباسهما الظفر[3] . وقيل : كان لباسهما نورا على فروجهما ، لا يرى هذا عورة هذه ولا العكس[4] .

والقول الصحيح : إنه لا دليل على نوع اللباس الذي كان يلبسانه في الجنة ، ولم يصح به أثر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم[5] .

والمهم أنه سقط عنهما لباسهما ، وشرعا يلصقان عليهما من أوراق الجنة ورقة

---

(١) انظر : (تفسير القاسمي) (١٠٨/٢) ؛ وانظر : (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) (١٠٠/٨) ، ط دار إحياء التراث العربي .

(٢) انظر : (المستفاد من القصص القرآني) (٢١،٢٠/١) .

(٣) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، لأبي جعفر : محمد بن جرير الطبري (٣٥٣،٣٥٢/١٢) ؛ وانظر : (تفسير ابن كثير) (٢١٥/٢) ، ط دار التربية والتراث .

(٤) التفسير الكبير (١٢٧/٢٢) ؛ تفسير ابن كثير (٢١٥/٢) .

(٥) انظر : (تفسير المنار) المسمى (تفسير القرآن الحكيم) ، لمحمد رشيد رضا (٣٤٩/٨) .

ورقة ليستترا بها[1] .

عندها جاء النداء الإلهي ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف:٢٢] والاستفهام هنا للعتاب والتوبيخ ؛ حيث حذرهما سابقا من عصيان أمره ، وأخبرهما أن الشيطان عدو لهما فلا يطيعاه ، فاعتذر آدم إلى الله وتاب وأناب وقالا ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣] قالها آدم عليه السلام ودعا بها بخشوع وتضرع إلى الله تعالى . وهذا ما يدل عليه المقام وتقتضيه الحال من معنى كلمات آدم التي تلقاها من ربه وهي التي أشير إليها في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2] [البقرة:٣٧] .

لقد تاب الله على آدم وحواء - عليهما السلام - كما قلنا ، ولكن هذه التوبة لم تمنع إخراجهما من الجنة ؛ لأن الله قال بعد دعائهما : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة:٣٦] و [الأعراف:٣٧] .

فكان هذا عقابا آخر على تلك المعصية (معصية الأكل من الشجرة) لكونها ظلما منهما لأنفسهما ، وهو من نوع العقاب الذي قضت سنته تعالى في طبيعة الخلق أن يكون أثرا للعمل السيء ، مترتبا عليه ترتب المسبب على السبب .

وأما النوع الآخر من العقاب عليه من حيث هو عصيان للرب تعالى الذي يكون في الآخرة ، فقد غفره تعالى لهما بالتوبة التي ذهبت بأثره من النفس وجعلتها محلا لاصطفائه تعالى . كما قال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[3] [طه:١٢١-١٢٢] لتبدأ المعركة الخالدة إلى ميدانها الحقيقي . ما تهدأ لحظة وتفتر هنيهة بين الإنسان والشيطان .

وهكذا تحقق وعد الله تعالى وقضاؤه ؛ ليكون آدم مخلوقا لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ، وما كان فيها من عقوبات إنما كان تربية لهذا الخليفة وإعدادا له ؛ ليكون يقظا لهذا العدو يحذره كل حين[4] ، ويستعين عليه بالله عز وجل كلما نزغه نزغ ، أو ألم به هم ، أو قذف في قلبه ريب .

---

(١) انظر : المصدر السابق (٨/٣٥٠) .

(٢) تفسير المنار (٨/٣٥٠،٣٥١) .

(٣) تفسير المنار (٨/٣٥١) والآية من سورة طه برقم (١٢٢) .

(٤) انظر : (في ظلال القرآن) (١/٥٨،٥٩) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبة سيدنا آدم عليه السلام

أولا : إن الله تعالى خلق آدم ؛ ليكون خليفة في الأرض ؛ ليعبده هو وذريته ؛ لأنها هي الغاية من خلقهم كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] والعبودية المطلوبة من الخلق لا تحصل في الجنة ؛ وإنما تحصل في الأرض موقع الابتلاء والامتحان[١] .

ثانيا : إن الله تعالى جعل هذه القصة لنا معتبرا . وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد ، فكبر إبليس وحسده لآدم صيره إلى ما ترى ، وحرص آدم وزجه حملهما على تناول الشجرة ، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلى الهلاك ، ولكن رحمة الله تكمل الناقص ، وتجبر الكسير ، وتنجي الهالك ، وترفع الساقط[٢] .

ثالثا : إن هذه القصة العظيمة ذكرها الله في كتابه في مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولاشك ، وهي من أعظم القصص التي اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب السماوية كلها واعتقدها وآمن بها جميع أتباع الأنبياء . حتى بغت في هذه الأزمان فرقة خبيثة متزندقة أنكروا جميع ما جاءت به الرسل وأنكروا وجود الباري وأنكروا خلق آدم وحواء وما ذكره الله ورسوله عنهما . وزعموا أن هذا الإنسان كان حيوانا قردا أو شبيها بالقرد[٣] حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة ، وهؤلاء اغتروا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة ، خصوصا ما جاءتهم به الرسل ، وصدق عليهم قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر:٨٣] ، ولكن تسرب إلى بعض المسلمين من هذا المذهب الدهري بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول ؛ إذ فسرت طائفة من

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم (٢/١٠٠) ، مكتبة دار الأرقم ، محمد عبد الرحمن الدوسري .

(٢) خلاصة تفسير اللطيف المنان ص"١٠٦" ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي .

(٣) يشير إلى نظرية دارون .

العصريين[1] سجود الملائكة لآدم أن معناه : تسخير هذا العالم للآدميين ، وأن المواد الأرضية والمعدنية ونحوها قد سخرها الله للآدمي ، وأن هذا هو معنى سجود الملائكة ، ولا يستريب مؤمن بالله واليوم الآخر أن هذا مستمد من ذلك الرأي الأفن ، وأنه تحريف لكتاب الله لا فرق بينه وبين تحريف أهل البدع لها ، وأنه إذا أولت هذه القصة إلى هذا التأويل توجه نظير هذا التحريف لغيرها من قصص القرآن ، وانقلب القرآن بعدما كان تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة رموزا يمكن كل عدو للإسلام أن يفعل بها هذا الفعل ، فيبطل بذلك القرآن ، وتعود هدايته إضلالا ، ورحمته نقمة . سبحانك هذا بهتان عظيم! .

والمؤمن في هذا يكفيه لإبطال هذا القول الخبيث أن يتلو ما قصه الله علينا من قصة آدم وسجود الملائكة ، فيعلم أن هذا مناف لما قصد الله ورسوله ، وإن زخرفه أصحابه ولووا له العبارات ونسبوه إلى بعض من يحسن بهم الظن . فالمؤمن لا يترك إيمانه ولا كتاب ربه لمثل هذه الترويجات المغررة أو المغرور أصحابها بها[2] .

رابعا : إن الله تعالى اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب ممتزج بداعي الشهوة والفتنة ، وداعي العقل والعلم . والعقل والشهوة يتنازعان بمقتضياتهما ليتم مراده سبحانه وتعالى ، وليظهر لعباده عزته في حكمته ورحمته ولطفه في سلطانه وملكه ؛ ولهذا كان من حكمته ورحمته أن يذيق أباهم وبال مخالفته ، ويعرفه ما خفي عليه من عواقب إجابة الشهوة والهوى ؛ ليكون بعد الهبوط أعظم حذرا وأشد هروبا من الهوى[3] .

خامسا : إن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة كان أول عقوبة لهما ظهور سوءاتهما ، فعمدا فورا إلى سترها بورق الجنة . فدل على أن كشف العورات من عظائم

---

(١) ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده في تفسير المنار .

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص"١٤٢" ، دار طيبة .

(٣) صفوة الآثار ، الدوسري (١/١٠٠) .

الأمور ، وأنه لم يزل مستهجنا في الطباع مستقبحا في العقول[1] .

قلت : وما يفعله كثير من الناس المنحطين في العصر الحاضر بتعمد كشف العورات وإظهار السوءات علنا أو من وراء آلات التصوير انتكاس عن كرامة الإنسان وحرمته وارتكاس وانحطاط إلى الحيوانية البهيمية ومزلقها .

سادسا : إن آدم وحواء عوقبا بالإخراج من الجنة بسبب معصية واحدة ، فما بالك بمن كان عنده من المعاصي مالا يعلمه إلا الله[2] ؟ فحري بالإنسان أن لا يعرض نفسه للعقوبة العظيمة ويتوب من أعماله السيئة قبل فوات الأوان .

سابعا : إثبات العداوة بين الشيطان وآدم وبنيه ﴿ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾[البقرة:٣٦] ومادام أنه عدو لنا عداوة أكيدة فإنه يجب على الإنسان أن يحترز غاية الإحتراز من كيد الشيطان ، وألا يخنع له وألا يأتمر بأمره ؛ لأنه عدو وكل عدو للإنسان فإنه يحمله على أسوأ الحالات[3] ؛ إما تدريجيا أو مباشرة ، ولهذا حذرنا الله تعالى من الشيطان بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦] وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ [النور:٢١] .

ثامنا : إن الله سبحانه أراد أن يبتليهم بالأمر والنهي ؛ ليختبرهم بالطاعة والإنقياد وعكسهما وبالإخلاص من الشرك وبالصدق من النفاق والجنة ليست دار تكليف[4] .

تاسعا : إن الله أراد أن يتخذ منهم رسلا وأنبياء وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه ، فخلى بينهم وبين عدوهم الشيطان وجنوده في هذه الحياة وامتحنهم بهم . فمن راغم الشيطان منهم وآثر مراد الله على مراده وبذل نفسه وماله في سبيل مرضاة ربه ، نال من محبته ورضوانه والفوز بجواره في جنانه ماليس ممكنا أن

(١) الكشاف ، للزمخشري ٩٢/٢ .

(٢) أحكام القرآن الكريم ، محمد بن صالح بن عثيمين (١٧٦/١) ، دار طويق .

(٣) أحكام القرآن الكريم (١٧٦/١) .

(٤) صفوة الآثار والمفاهيم (١٠٠/١) ، الدوسري .

يناله لولا ذلك أبدا ، فإن تحقيق حصر الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله وبذل النفس والنفيس في ذات الله ، أمر لا يحصل من بعض البشر لولا إهباطهم إلى الأرض بمشيئته وحكمته[١] .

عاشرا : إنه سبحانه هو الله المتفرد بعقوبة البشر في الآخرة ، الآمر الناهي الذي لا يرد قوله ولا يتوقف عند أمره ، ولا يسأل عما يفعل ، المشرع لعباده ، المثيب لهم ، المعاقب والمعز والمذل ، فاقتضت حكمته إنزال آدم وذريته إلى الأرض ؛ لتظهر آثار ألوهيته وملوكيته بإجراء تلك الأحكام الملكية عليهم التي يستحقون بطاعته وتنفيذ شريعته وإقامة حكمه مثوبته العاجلة في الدنيا من العز والنصر والتمكين والعيشة الراضية ، ثم مثوبته الآجلة في جنان الخلد والنعيم ، كما يستحقون عقوباته الشرعية والقدرية في الدنيا على مخالفة أوامره والإعراض عن حكمه ونبذ هدايته ، ثم يسحبون إلى نار الجحيم في الآخرة[٢].

الحادي عشر : إنه لما كان سبحانه يحب الصابرين ، ويحب الشاكرين والتوابين والمتطهرين والمحسنين ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، اقتضت حكمته أن يجعل في الأرض من يعمل بمحابه ليجازيهم عليها ، وذلك نعمة منه وفضلاً[٣] .

الثاني عشر : إنه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم وذريته من يواليهم ويوالونه ويحبهم ويحبونه ، ولا يحصل تحقيق تلك المحبة إلا بالمسابقة في مرضاته ، والصدق معه في بيع النفس والمال ، وترك ما يكرهه من الشهوة المحرمة . وهذا لا يحصل إلا في الأرض[٤] .

الثالث عشر : لما خلق الله سبحانه خلقه أصنافاً وفضل آدم وذريته على كثير من خلقه وجعل عبوديته الشرعية الاختيارية أفضل الدرجات ، اقتضت حكمته إسكان آدم وذريته الأرض ؛ لينالوا فيها تلك العبودية الشريفة التي لا يخرج

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١٠٠/١) .
(٢) نفس المصدر (١٠١/٢) .
(٣) نفس المصدر (١٠١/٢) .
(٤) نفس المصدر (١٠١/٢) .

منها إلا الذي يدخل في عبودية الشيطان ، فيفوز من قام بعبودية الله مجاهداً نفسه وهواه ومراغماً للشياطين وكان من السعداء في الدنيا والآخرة من نال رضوان الله ووعوده التي لا تتخلف في الدارين[١] .

الرابع عشر : إن الله تعالى اختار أن يذيق آدم وذريته من نصب الدنيا وغمومها وأوصابها وهمومها ما يعظم عندهم به مقدار دخول الجنّة المحفوفة بالمكاره ، والتي لا تنال بدون ذلك فيعودوا إلى الجنّة على أحسن حالة وأرفع درجة ، والشيء يعرف بحسن ضده[٢] .

الخامس عشر : إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، والأرض فيها : الطيب والخبيث ، والسهل والحزن ، فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمجاورته في داره ، فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه . فمن كان معدنه طيباً فعمل صالحاً وهو مؤمن كان أهلاً لجوار الله ؛ ومن كان معدنه خبيثاً وعمل غير صالحٍ كان من أهل النار (دار الخبثاء)[٣] .

السادس عشر : إنه سبحانه له الأسماء الحسنى . ولابد من ظهور آثار هذه الأسماء ، فاقتضت حكمته إنزال آدم داراً يظهر عليهم فيها آثار أسمائه الحسنى ، فيغفر فيها لمن يشاء ويرحم من يشاء ، ويستر على من يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء .... إلى غير ذلك من ظهور آثار أسمائه الحسنى التي من أجلها أيضاً قدر المقادير[٤] .

السابع عشر : إنه لما كانت محبة الله وحده هي غاية الكمال والسعادة للعبد ولا كمال ولا سعادة له بدونها ، وكانت المحبة الصادقة لا تتحقق إلا بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفس ، واحتمال كل مشقة في طاعته ومرضاته ، اقتضت حكمته سبحانه إنزالهم في الأرض المحفوفة بالشهوات التي بإيثار الله عليها والإعراض عنها تتحقق محبتهم له ؛ ولهذا يحتمل العبد المشاق

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١٠١/٢) .
(٢) نفس المصدر (١٠٢/٢) .
(٣) نفس المصدر (١٠٢/٢) .
(٤) نفس المصدر (١٠٢/٢) .

الشديدة وركوب الأخطار في هذا السبيل ، ولولا ذلك الإنزال ما عمل بمحبة الله[1] .

الثامن عشر : إنه سبحانه لا شيء أحب إليه من التذلل (تذلل العبد بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه إليه) ، وهذا لا يحصل إلا بالأسباب التي اقتضتها حكمته من إنزال آدم إلى الأرض وإسكان ذريته فيه[2] .

التاسع عشر : الجنّة ليست دار تكليف ، فما شرعه سبحانه من أمر ونهي كله تكاليف يمتحن الله بها العباد ؛ ليظهر المؤمن ويتميز عن الكافر ونحوه[3] .

العشرون : إن الله تعالى يحب من عباده أموراً لا تحصل منهم إلا بحصول أسباب لا تكون إلا في الأرض ولا تكون في الجنّة[4] .

الحادي والعشرون : إن الله تعالى جعل الجنّة دارَ جزاء وثواب ، وقسم منازلها على قدر أعمال أهلها ولهذا خلقها ، وجعل النار دارَ جزاء أخرى للعصاة ، وقسمها على قدر أهلها وكفرهم ، فلابد لكل دار من ساكن[5] .

الثاني والعشرون : إنه لما اختاره للأرض وعَلِمَ بسابق علمه أنه يطمع فيما لا يعرف عاقبته ؛ لأنه خلق من عجل . فأراد الله أن يربيه ويذيقه مرارة العجلة . هذا من جهة .

ومن جهة أخرى : أراد أن يريه النعيم في الجنّة ؛ حتى لا يؤثر الدنيا على الآخرة .

الثالث والعشرون : إن قبول الله تعالى توبة آدم فيها دحض لشبهات النصارى المدسوسة عليهم من شياطين الإنس من ماسونية[6] وغيرها من كون خطيئة

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١٠٣/٢) .

(٢) نفس المصدر (١٠٣/٢) .

(٣) نفس المصدر (١٠٣/٢) .

(٤) نفس المصدر (١٠٣/٢) .

(٥) نفس المصدر (١٠٣/٢) .

(٦) الماسونية : هي جمعية أسسها اليهود هدفها القضاء على الإسلام والسيطرة على العالم . المرجع : اليهودية والماسونية ، تأليف : الشيخ عبد الرحمن الدوسري ، ط دار السنة ١٤١٤ هـ .

آدم يتحملها بنوه البشر جميعاً ، وإن صلب عيسى بزعمهم الكاذب لتكفيرها عنه . فالله يقرر لنا أن الخطيئة فردية ناشئة عن حرص وشهوة وقوة إغراء وتلبيس من عدوه ، فوفقه الله للتوبة وتاب منها فتاب الله عليه كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه:١٢٢] فلم يبق لخطيئته أثر لا على نفسه ولا على أحد من ذريته أبداً . كما قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر:٣٨] فآدم تخلص من خطيئته بالتوبة المباشرة ، واصطفاه الله بعدها ؛ لحسن توبته وقبولها . وطريق التوبة مفتوح لكل مذنب من بني آدم ، إذا تاب تاب الله عليه ، ثم إذا كان صلب عيسى على زعمهم للتخلص من خطيئة آدم ، فكيف يجعل عيسى كبش فداء من بين سائر الأنبياء والمرسلين وبني آدم أجمعين ؟[1] .

الرابع والعشرون : أن يشهد بنو آدم حكمة الله في تخليته بينه وبين الذنب ، وإقداره عليه ، وتهيئته أسبابه له ، وأنه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه ، ولكنه خلى بينه وبينه لحكم عظيمة لا يعلم مجموعها إلا الله[2] :

١- أنه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم ، فلذلك قضى على عبده بالذنب . فإن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة .

٢- تعريف العبد عزة الله سبحانه في قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه .

٣- تعريفه حاجته إلى حفظه ، وأنه إن لم يحفظه ويصنه فهو هالك ولابد ، والشياطين قد مدت أيديها إليه تمزقه كل ممزق .

٤- استجلابه من العبد استعانته به واستعاذته به من عدوه وشر نفسه ودعاءه والتضرع إليه والابتهال بين يديه .

٥- إرادته من عبده تكميل مقام الذل والانكسار ، فإنه متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وظن أنّه وأنّه . فإذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسه وذلّت ، وتيقن وتمنّى أنّه وأنّه ..

---

(١) صفوة الآثار (٢/٩٩) .

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ص"١٦٩" وما بعدها .

٦- تعريفه بحقيقة نفسه وعيوبها ، وأن كل ما فيها من عِلمٍ أو عملٍ أو خيرٍ فمن الله . مَنّ به عليه لا منْ نفسه .

٧- تعريفه بسعة حلمه وكرمه في ستره عليه ، فإنه لو شاء لعاقبه على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يَصْفَ له معهم عيش .

٨- تعريفه أنه لا نجاة من عقوبة الله سبحانه إلا بعفوه ومغفرته .

٩- تعريفه كرمه في قبوله ومغفرته له على ظلمه وإساءته .

١٠- إقامة الحجة البالغة على عبده فإن عذبه فبعدله وببعض حقه عليه ؛ وإن عفا عنه فبلطفه ورحمته .

١١- أن يعامل عباد الله تعالى في إساءتهم إليه بما يحب أن يعامله الله به ، فإن الجزاء من جنس العمل فيعمل في ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله بذنوبه .

١٢- أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية وتوابعها من البكاء والإشفاق والندم .

١٣- أن يعرف مقداره مع معافاته وفضله في توفيقه وعصمته ، فإن من تربى في العافية لا يعرف ما يعانيه المبتلى ولا يعرف مقدار العافية .

١٤- أن يستخرج منه محبته وشكره لربه إذا تاب إليه ورجع ، ويوجب له مزيد محبة وشكر ورضا لا يحصل بدون التوبة .

١٥- أنه إذا شهد إساءته وظلمه استكثر القليل من نعم الله ، واستقل الكثير من عمله لتحصل له المغفرة لذنوبه الكثيرة ، ولو لم يكن في فوائد الذنب وحِكَمِه إلا هذا وحده لكان كافياً .

١٦- أنّه يوجب له التيقظ والحذر من مصايد العدو ومكايده ، ويعرّفه من أين يدخل عليه ، وبماذا يحذر منه ، كالطبيب الذي ذاق المرض والدواء ، وأن مثل هذا ينتفع به المرضى ، لمعرفته بأمراضهم وأدوائها .

١٧- أنه يرفع عنه حجاب الدعوى ، ويفتح له طريق الفاقة ، فإنه لا حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب من العبودية . فإن دوام الفقر إلى الله مع الذنب والاعتراف به خيرٌ من الصفاء مع العجب .

١٨- أن تكون في القلب أمراضٌ مزمنة لا يشعر بها فيطلب دواءها فيقضي عليه الله

بذنب ظاهر فيجد ألم مرضه فيحتمي ويشرب الدواء النافع فتزول تلك الأمراض التي لم يكن يشعر بها .

وكما قيل[1] :

لعل عتبكَ محمودٌ عواقبه   وربما صحت الأجسامُ بالعللِ

١٩- أن يذيقه ألم الحجاب والبعد بارتكاب الذنب ، ليكمل له نعمته وفرحه وسروره إذا أقبل بقلبه وأقامه في طاعته ، فيتلذذ بها التذاذ الظمآن بالماء العذب الزلال ، والشديد الخوف بالأمن ، والمحب الطويل الهجر بوصل محبوبه ، وإن لطف الرب وبره وإحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا ، فيا بؤس من أعرض عن معرفة ربه ومحبته .

٢٠- أن يمتحن العبد ويختبره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا ؟ فإذا وقع في الذنب وقع في الوحشة ، وسلب حلاوة الطاعة والقرب . فإن كان ممن يصلح اشتاقت نفسه للذة الطاعة فحنّت وأنّت وتضرعت واستعانت بربها ليردها إلى ما عوّدها من بره ولطفه . فإن أعرضت و لم تحنّ و لم تحس بضرورتها وفاقتها الشديدة إلى مراجعة قربها من ربها علم أنها لا تصلح لله.

٢١- أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان أو لبعضها ، ولو لم يخلق فيه هذه الدواعي كان ملكاً . فالذنب من موجبات البشرية ، كما أن النسيان من موجباتها قال النبي ﷺ : « **كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون** »[2] ولا يتم الابتلاء والاختبار إلا بذلك .

٢٢- أن يشغله برؤية ذنبه وينسيه رؤية طاعته ؛ فإن الله إذا أراد بعبد خيراً سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه والإخبار بها من لسانه ، وشغله برؤية ذنبه فلا

---

(١) هو : المتنبي (أحمد بن الحسين) انظر : ديوانه (٢٦٠/٣) بشرح البرقوقي ط الثانية ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

(٢) رواه الترمذي - كتاب صفة القيامة - باب "٤٩" - (٦٥٩/٤) برقم [٢٤٩٩] وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من حديث علي بن مسعدة عن قتادة ، ورواه ابن ماجة - كتاب الزهد - باب ذكر التوبة (١٤٢٠/٢) برقم [٤٢٥١] ، وانظر : (إتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين) للزبيدي : محمد بن محمد الحسيني الشهير بمرتضى (٤٠٩/١) ط دار الفكر ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٠٥/٢) .

يزال نصب عينه حتى يدخل الجنّة .

قال بعض السلف : إنّ العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنّة ، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينه ، إذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله وبادر إلى محوها وانكسر وذل لربه وزال عنه عجبه وكبره ، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه ، يراها ويمّن بها ويعتد بها ويتكبر بها حتى يدخل النار .

٢٣- أنه يوجب له الإحسان إلى الناس ، والاستغفار لإخوانه الخاطئين من المؤمنين فيصير دعاؤه : ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨] ، فهو يعرف أن إخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أصيب به ، ويحتاجون إلى مثل ما هو محتاج إليه ، فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم يحب أن يستغفر هو لأخيه المسلم .

٢٤- أنه يوجب له الإمساك عن عيوب النّاس والفكر فيها ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب النّاس ، وويل لمن تفرغ لعيوب النّاس ، فالأول علامة السعادة ، والثاني علامة الشقاوة .

٢٥- أنه يوجب له سعة إبطائه وحلمه ومغفرته لمن أساء إليه ، فإنه إذا كان مسيئاً مخطئاً مذنباً مع ربه مع إحسانه إليه وبره ومع هذا فهو لا يستغني عنه طرفة عين ، فكيف يطمع أن يستقيم له الخلق ويعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة، وكيف يطمع أن يطيعه رعاته من مملوك وولد وزوجة في ما يريد وهو مع ربه ليس كذلك ، فهذا يوجب أن يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم[1] .

الخامس والعشرون : ومن الدروس المستفادة : إثبات الأسباب لقوله سبحانه : ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦] وسبب هذا الإخراج أنه لما أكل هو وزوجه من الشجرة ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٢] وأمرهما الله تعالى بالخروج منها ؛ لأنه من

---

(١) تابع كتاب : طريق الهجرتين وباب السعادتين ص"١٦٩" وما بعدها .

المعلوم أن للأسباب تأثيراً في مسبباتها لقوله : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ لأن الذي أخرجهما هو الله عز وجل . وأمرهما أن يهبطا من الجنّة ، والسبب في هذا الإخراج هو الشيطان ، فنسب الإخراج إليه لأنه سببه ، ولا ريب أن الأسباب مؤثرة في مسبباتها ، ولكن تأثيرها في مسبباتها من الله عز وجل ، فهو الذي أودع فيها هذه القوة المؤثرة فمن هنا كان من فوائد هذه القصة إضافة الشيء إلى سببه[1] .

السادس والعشرون : ومنها : أن الأرض هي مستقر بني آدم ، بل مستقر آدم وبنيه لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة:٣٦] ثم إن هذا المستقر والمتاع لن يدوم ولن يؤبد . لقوله : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ وما كان غير دائم ولا مؤبد فهو سريع الانتهاء ؛ لأن هذا المؤجل ينطوي بسرعة ولا يعود مرة أخرى . فلهذا يجب علينا أن نستعد وأن ننتهز الفرصة بعمل ما يقربنا إلى الله عز وجل[2] .

(١) أحكام القرآن ، لابن عثيمين ص"١٧٤،١٧٥" .

(٢) نفس المصدر .

المبحث الثالث

عقوبة قابيل

المطلب الأول – الآيات التي تحدثت عن ذلك:

قال الله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٢٧-٣١] .

لطائف الآيات :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ ﴾ [المائدة:٢٧] معنى ابني آدم : ولداه . وأما ابن آدم مفرداً : فقد يراد به واحد من البشر . نحو أكثر بدايات الأحاديث القدسية « يا ابن آدم » ، أو مجموعاً نحو ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ ﴾(١) [الأعراف:٣١] .

ثانياً : في قوله : ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٢٧] أي : بالغرض الصحيح لا لمجرد التفكه واللهو ، ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ إشارة إلى ما لحق بالقصة من زيادات زادها أهل القصص من بني إسرائيل في أسباب قتل أحد الأخوين أخاه(٢) .

ثالثاً : في قوله : ﴿ قَرَّبَا ﴾ [المائدة:٢٧] معنى ما يتقرب به المرء إلى ربه من صدقة أو نسك أو صلاة ، إذاً فهو مشتق من القربات ، فتقول : قرب قرباناً ، ونسك نسيكة ، وضحى أضحية ، وعق عقيقته – وليس معنى ﴿ قَرَّبَا ﴾ بمعنى : أدنيا ؛ إذ لا معنى لذلك هنا(٣) .

---

(١) وانظر : المرجع في ذلك : (التحرير والتنوير) (١٦٨/٦) .

(٢) التحرير والتنوير (١٦٩/٦) .

(٣) التحرير والتنوير (١٦٩/٦) .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا ﴾ [المائدة:٢٧] فلمَ لمْ يقل : قربا قربانين ، كما قد حصل فعل ذلك ؟

والجواب : أراد الجنس . فعبر عنه بلفظ المفرد ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ ﴾ [الحاقة:١٧] والعرب تطلق الواحد وتريد الاثنين ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴾[1] [ق:١٧] .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧] يَرِدُ سؤال هو : كيف صح أن تكون هذه الآية جواباً لقوله تعالى : ﴿ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ ﴾[المائدة:٢٧] .

والجواب : أنه لما حمله الحسد على توعد أخيه بالقتل قال ذلك كناية عن حقيقة الجواب الذي معناه : أنك ما أُتيت إلاّ من قبل نفسك ؛ لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلي فلِمَ تقْتُلني[2] ؟

سادساً : لم جاء الشرط بلفظ الفعل ؟ والجزاء بلفظ اسم الفاعل في قوله تعالى : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ... ﴾ [المائدة:٢٨] الآية .

والجواب : ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع ، ولذلك أكده بالباء الموكد للنفي[3] .

سابعاً : إن قيل : كيف قال هابيل لقابيل : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾[4] [المائدة:٢٩] .

والجواب أن معناه : إني أريد أن تنصرفا بخطيئتك في قتلك إيّاي وإثمك السابق في أعمال سواه[5] وتفصيله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله بل يكفّ عنه يده طالباً إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه[6] .

---

(١) تفسير الرازي المسمى " انموذج جليل " ص"١١٤" .

(٢) المصدر السابق ص"١١٤" .

(٣) تفسير الكشاف (٦٢٤/١) ، وانظر : (التفسير الكبير) (١٦٢/١١،١٦٣) .

(٤) وانظر : المصدر السابق ص"١١٤" .

(٥) انظر : تفسير ابن جرير (٢١٦/١٠-٢١٧) .

(٦) انظر : تفسير ابن كثير (٤٧/٢) .

ثامنا : كان مقتضى الإيجاز أن يحذف ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة:٣٠] ويقتصر على قوله : ﴿ فَقَتَلَهُۥ ﴾ [المائدة:٣٠] لكن عدل عن ذلك ؛ لقصد تفظيع حالة القاتل في تصوير خواطره الشريرة وقساوة قلبه ، إذ حدثته بقتل من كان شأنه الرحمة به والرفق ، فلم يكن ذلك من الإطناب[1] .

تاسعا : في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٣١] يرد سؤال : أليس في ندمه معنى التوبة ، فلم لم تقبل توبته ؟

والجواب من وجوه[2] :

أولها : أن الندم توبة خصت به أمة محمد ﷺ .

الثاني : أنه ندم على قتل أخيه ؛ لأنه لم ينتفع بقتله ، وسخط عليه أبواه ، فندمه لذلك لا لكونه معصية .

الثالث : أنه ندم على حمله لا على قتله . فلا جرم لم ينفعه ذلك الندم ، إذ كان ندمه عن عدم جدوى فعلته ، وما أعقبه له من تعب وعناء وقلق .

---

(١) التحرير والتنوير (١٧٢/٦) .

(٢) انظر : (زاد المسير في علم التفسير) لجمال الدين عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (٢٦٧/٢) ؛ الكشاف (٦٢٦/١) ؛ التفسير الكبير (٢١٠/١١) ؛ تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٣٢/٢) ، ط دار الوطن .

المطلب الثاني – سبب العقوبة :

حسده لأخيه ثم قتله :

قال تعالى : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ[1] بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧] .

توضح الآية أن ابني آدم قربا قرباناً معيناً « لا نبحث في تفاصيله » حيث قرب هابيل أحسن ما عنده ، وقرب قابيل أردأ ما عنده . فتقُبل قربان هابيل و لم يتقبل قربان قابيل ، فحسده لذلك وهدده بالقتل ؛ لقبول قربانه . فقال أخوه : وما ذنبي ؟! إنما يتقبل الله من المتقين ، أي : ممن اتقى الله في فعله[2] . وأنت إنما أتيت من قبل نفسك السيئة لا من قبلي ، فلِمَ تقتلني ؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب للقبول[3] .

ثم أخذ يعظه ويتلطف معه ؛ علّه يتوب لرشده وينزع عن غيه فقال له : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٨] أن يعاقبني وإن كان ذلك لدفع عداوتك عني ، فما ظنك بحالك وأنت البادىء ؟

فلم يُجدِ ذلك معه فأخذ يحذره ويخوفه من عذاب الله تعالى ، فقال له : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٢٩] إن عقدت عزمك ومضيت في تدبيرك فإني أترك الأمر لله مخافة

---

(١) قال الشوكاني : اختلف أهل العلم في ابني آدم المذكورين ، هل هما لصلبه أم لا ؟ . فمذهب الجمهور إلى الأول . وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني وقالا : إنهما كانا من بني إسرائيل ، فضرب بهما المثل في إبانة حسد اليهود ، وكانت بينهما خصومة فتقربا بقربانين و لم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل .
قال ابن عطية : وهذا وهم ، كيف يجهل صورة الدفن أحدٌ من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم : واسمهما قابيل وهابيل . فتح القدير ، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (٢/٣٠) ، ط أم القرى .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٤٥) .

(٣) تفسير الكشاف (١/٦١٤) .

أن يلحقني إثـم ، أو يتعلق بنفسي أثـر العصيـان فتحمـل وحـدك الإثـم ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٢٩] قال هذا بعد أن غلـب علـى ظنـه أنه قاتله . فانظر إلى تحذيره إياه وتخويفه حيث خوفه بالله فلـم ينفـع ؛ لأن الله في نفسـه غير آبه به . وحذره من حمل إثمه وإثم قتله فلم ينفـع ؛ لأن المقـدم علـى فعـل المنكـر لا يهمه الإثم . وخوفه من أن يكون من أهل النار لأنه ظالم . هنـا يـتردد في قتـل أخيـه ، وكلمات أخيه لا يزال يسمعها وتحدثه نفسه بها ولكن سرعان ما تـأمره نفسـه الأمـارة بالسـوء بقتـل أخيـه وتشـجعه علـى العـودة في التفكـير في ذلـك ، فنفسـه بـين إقـدام وإحجام . مرة يقدم ويحب أن يقتل ، ومرة يحجم ويجد ما يصرفه عن ارتكاب جريمته ، وهذا الحس وهذا التفكير يؤيد ما في الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيبة ، ولكـن ما إن يذهب هذا الصارف حتى تعود نفسه الشريرة وتندفع وتقع في الجريمة ، وأخوه لا يدفع عن نفسه ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾[1] [المائدة:٣٠] طوعـت لـه نفسه وصرفت عنه كل مانع ، وذللت له كل الصعاب ، وقتل ولكـن مـن قتـل ؟! قتـل أخاه؛ فيالخسارته! خسر نفسه فأوردها المهالك ، وخسر أخـاه ففقـد النـاصر والرفيـق ، وخسر دنياه فما تهنأ لقـاتل حيـاة ، وخسـر آخرتـه فبـاء بإثمـه الأول وإثمـه الأخـير[2] . وصدق الله ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٣٠] وتحير في أمره مـاذا يفعـل بـه؟ لقد غدا جثة هامدة لا حراك فيها . فحمله علـه يجد طريقة يـهتدي إليـها فيخفـي معـالم جريمته . وبينما هو كذلك لا يدري ما يفعل! حمله لا يفيد ، وتركه لا يفيد ، لقد حـن عليه الآن وندم ، ويخاف أن تأكله الهوام والدواب وهو ينظر . فبعـث الله غرابـا يبحـث بمنقاره في الأرض ؛ ليدفن فيها غرابا آخر ميتا . ففطـن ابـن آدم القـاتل لأمـره واهتـدى لفعلته فقال : يا حسرتي ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ [المائدة:٣١] فـأدفن أخي مثله .

وهكذا دفن أخاه ليواري سوءته[3] في عجالة من أمره متعلما من الغـراب ، وليعلـم

(١) وعند البغوي في تفسيره قتله وهو مستسلم ، وقيل : اغتاله ، وهو في النوم ٦/٤٤ .

(٢) انظر : (تفسير المنار) (٦/٣٤٥) ؛ في ظلال القرآن (٢/٨٧٦) .

(٣) السوءة : المراد بها العورة . وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمـام بـها ، ولأن سترها أوكد .

⇦

الله أهل السوء أنهم أحط من الحيوان حين ينزلون في تفكيرهم وخبثهم إلى ما حرّم الله عليهم من الكفر بالله والصد عن سبيله وإيذاء أوليائه .

قال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤] .

٥ أخرج ابن جرير عن علي بن طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : جاء غراب إلى غراب ميت فحثى عليه من التراب حتى واراه ، فقال الذي قتل أخاه : ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ ...﴾[1] [المائدة:٣١] .

وهكذا شاء الله وأراد أن يوقفه أمام عجزه وهو الباطش القاتل عن أن يواري سوءة أخيه . عجزه عن أن يكون كالغراب في أمة الطير[2] .

=

وقيل : جميع جيفته . فإن كله عورة ؛ ولذلك كفن بالأكفان .

قال ابن عطية الأندلسي : ويحتمل أن يراد بالسوءة : الحالة التي تسوء الناظر بمجموعها ، وأضيفت إلى المقتول من حيث نزلت به النازلة لا على جهة الغض منه ، بل الغض لاحق للقاتل لأنه هو الذي أتى بالسوءة . اهـ انظر : (البحر المحيط) (٣/٤٨٠) .

(١) وسنده عن ابن جرير قال : حدثني المثنى ، قال : حدثني عبد الله بن صالح قال : حدثني معاوية عن علي بن طلحة عن ابن عباس . انظر : (تفسير ابن جرير) (١٠/٢٢٦) ، الدر المنثور (٢/٤٨٩) ؛ تفسير ابن كثير (٢/٤٨) ؛ صحيفة علي بن طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم ص"١٧٦" اعتنى بها راشد عبد المنعم الرجال ، ط مكتبة السنة .

(٢) في ظلال القرآن (٢/٨٧٧) .

المطلب الثالث – نوع العقوبة :

لا يتصور القاتل العقوبة الدنيوية حين الهم أو الإقدام على القتل ؛ بل همه أن يقضي على هذا البنيان الإلهي بأي وسيلة كانت ، وإن فكر أو تردد فسرعان ما يعود إلى سابق عهده . وكل ذلك من وساوس الشيطان ، فإذا نفذ جريمته صار خائفاً متوجساً نادماً حائراً يبحث عن مخرج يتمنى أنه ما فعل يعض أصابع الندم ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١] وهذا ما حصل للقاتل قابيل.

كان أول ما ذكر الله عنه أنه أصبح من الخاسرين بعد قتل أخيه وإخماد أنفاسه ظلماً وعدواناً حيث حكم الله عليه بالخسران وسوء المصير ، ثم انظر إلى التعبير القرآني ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٣٠] بعد أن كان في فسحة من أمره . وأي خسارة أعظم من هذه بعد الشرك بالله – عز وجل؟ – لقد أسخط ربه وصار إلى النار.

ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « **أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء** »[١] .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يزال المؤمن معنقاً صالحاً مالم يصب دماً حراماً ..** »[٢] .

ثم ذكر الله حيرته حتى رأى الغراب يحثو على أخيه . وقد ذكر المفسرون في حمله لأخيه بعد قتله مدة طويلة لم يرد بها نص أو أثر صحيح ؛ إنما الذي أخبرنا الله عنه أنه رأى غراباً يبحث في الأرض يواري غراباً آخر ؛ ليعلّمه كيفية الدفن بعد قتله و لم يحدد مدة لذلك .

ثم ذكر ثالثاً أنه ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٣١] وندمه كما سلف ذكره[٣] لم يكن ندم توبة ؛ إنما كان لما أصابه من عدم الانتفاع بقتل أخيه وسخط أبويه .

وأما عن عذابه في الدنيا فقد ذكر المفسرون أنواعاً عديدة من العذاب ؛ بل وكلاماً

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الديات ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء:٩٣] (٤/٢٦٥) ، برقم [٦٨٦٤] .

ورواه مسلم ، كتاب القسامة ، باب المجازاة بالدماء في الآخرة (٣/١٣٠٤) ، برقم [١٦٧٨] .

(٢) رواه أبو داود ، كتاب الفتن والملاحم، باب تعظيم قتل المؤمن ٤/ ٤٦٣ ، برقم [٤٢٧٠] ومعنى معنقاً : مستعفاً .

(٣) عند ذكر لطائف آية ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١] .

متبايناً لا يصح[١] . والذي صح في عقوبته ما رواه ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقتل نفسٌ ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه كان أول من سنّ القتل** »[٢] .

لأن من سن شيئاً كتب له أو عليه . وقد بوب البخاري في ذلك باباً

---

(١) منها : ما رواه ابن جرير بسنده (٢١٨/١٠) قال : « عُلقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذٍ ، ووجهه في الشمس حيثما دارت دار ، عليه في الصيف حظيرة من نار ، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج) وفي سنده القاسم بن الحسن . قال محمود شاكر محققه أنه لم يجده . وقد ترجم الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال (٣٧٠/٣) ، برقم [٦٨٠٠] ، ط دار المعرفة ، للقاسم بن الحسن الهمداني الفلكي عن ابن وهب الدينوري تكلّم فيه و لم يترك .

وأيضاً وفي سنده الحسين بن داود المصيصي : هو سنيد بن داود . قال في الميزان (٥٣٤/١) وهَاهُ النسائي . وقال ابن حجر (أحمد بن علي) في كتابه تقريب التهذيب ، ص"٢٥٧" ، ط (دار الرشيد) ضُعّف مع إمامته ومعرفته ؛ لكونه كان يلقن حجاج بن محمد شيخه .

وعند البغوي (أنه اسود جسمه بعد قتله أخاه) بدون سند .

وقال مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لما قتل قابيل هابيل ، وآدم بمكة اشتاك الشجر وتغيرت الأطعمة وحمضت الفواكه وأمرّ الماء واغبرت الأرض .

وقد ضعف مقاتلَ بن سليمان غيرُ واحد من الأئمة منهم : الإمام أحمد بن حنبل حيث قال : « لا يعجبني أن أروي عن مقاتل بن سليمان شيئاً » وقيل : كان يروي عن مجاهد وعن الضحاك و لم يسمع منهما . ومن استحسن تفسيره كان يقول : « ما أحسن تفسيره لو كان ثقة » . انظر : (التفسير والمفسرون) د/ محمد بن حسين الذهبي (٨٠/١،٨١) ، ط دار إحياء التراث العربي .

وفي كتاب الفتن ، لمؤلفه (أبي عبد الله نعيم بن حماد المروزي) قال : حدثنا بقية بن الوليد عن أبي بكر بن أبي مريم عن عبد الرحمن بن فضالة قال : لما قتل قابيل هابيل ، مسخ الله عقله ، وخلع فؤاده ، فلم يزل تائهاً حتى مات (٦٥/١) ، ط دار التوحيد ، وفي سنده ابن أبي مريم ، ضعفه ابن حجر في التقريب ص"٦٢٣" .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب (من عاش بعد الموت) قصة ضعيفة جداً ، يذكر فيها أن رجلاً رأى ابن آدم القاتل معلقاً منكوساً على رأسه . يريد أن يشرب الماء من بركة فلا يستطيع . انظر الكتاب ص"٤٧" ، ط مكتبة السنة .

(٢) رواه الجماعة سوى أبي داود . رواه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته ٤٥٢/٦ ، برقم [٣٣٣٥] ، ومسلم ، كتاب القسامة ، باب بيان إثم من سن القتل (١٣٠٣/٣) ، برقم [١٦٧٧] . والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في الدال على الخير كفاعله (٤١/٥) ، برقم [٢٦٧٣] . والنسائي ، كتاب تحريم الدم ٨٤/٧ ، برقم [٣٩٨٥] .

بقوله : « باب إثم من دعا إلى ضلالة ، أو سن سنة سيئة »[1] لقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل:٢٥] الآية . وفي الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا** »[2] .

وقوله ﷺ : « **من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً** »[3] .

فهذه الأحاديث تدل على أن ابن آدم القاتل عليه من وزر كل جريمة قتل إلى يوم القيامة . وما أخطأ من قال : « إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب عليه شطر عذابهم »[4] . فاللهم إنا نسألك العافية .

وبعد هذه الأحاديث والأثر يظهر أن قابيل عوجل بالعقوبة ؛ لأن النبي ﷺ قال : « **ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم** »[5] وقد اجتمع في فعل قابيل هذا ، وهذا فإنا لله وإنا إليه راجعون[6] .

---

(١) صحيح البخاري (٤/٣٦٨) .

(٢) رواه مسلم، كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٤/٢٠٦٠) ، برقم [٢٦٧٤].

(٣) رواه مسلم، كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٤/٢٠٥٩) ، برقم [١٠١٧].

(٤) انظر : (تفسير ابن جرير) (١٠/٢١٨) موقوفاً ؛ الدر المنثور في التفسير المأثور موقوفاً ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٢/٤٨٨) ، ط دار الكتب العلمية . وأخرجه البيهقي (أبو بكر : أحمد بن الحسين) في شعب الإيمان موقوفاً على عبد الله بن عمرو بن العاص (٤/٣٤٠) ، ط دار الكتب العلمية .

(٥) رواه الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب (٥٧) (٤/٦٦٤) ، برقم [٢٥١١] .
ورواه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في النهي عن البغي (٥/٢٠٨) ، برقم [٤٩٠٢] .
وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب البغي (٢/١٤٠٨) ، برقم [٤٢١١] .
والحاكم ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة النحل (٢/٣٨٨) ، برقم [٣٣٥٩] .
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ، برقم [٩١٨] .

(٦) تفسير ابن كثير (٢/٤٨-٤٩) .

المطلب الرابع – الدروس المستفادة من قصة قابيل :

أولاً : مشروعية التقرب إلى الله – تعالى – بما يحبُ أن يتقرب إليه سبحانه[1] لقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ﴾ [المائدة:٢٧] .

والقربان : ما يتقرب به إلى الله وصار في التعارف اسماً للنسيكة التي هي الذبيحة[2] . وفي آيات الكتاب العزيز قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢] وقال سبحانه : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ [الحج:٣٤] الآية .

ثانياً : إنما يتقبل الله من المتقين . التقوى أساس لكل طاعة ، فهي تشتمل على ركني القبول : الإخلاص لله تعالى ، والمتابعة لهدي النبي ﷺ . والله – تعالى – لا يقبل طاعة إلا من مؤمنٍ متق ؛ لقوله سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] وقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٤] .

فاشترط مع العمل الصالح الإيمان . والله – تعالى – قال : (يتقبل) ولم يقل : يقبل ؛ لأن التقبل أخص من القبول ؛ لأنه ترق فيه إلى العناية بالمقبول والإثابة عليه[3] .

ثالثاً : كان الحسدُ سببَ أول جريمةٍ قتل في البشر ، فهو أصل المفاسد والمعايب والرذائل في المجتمع . فالأمة المتحاسدة أمة متمزقة متعادية متباعدة لا تجتمع على خير ولا تلتقي على فضيلة ولا تتعاون على بر وصلاح ، فيهوي بها إلى الذل والهوان والضعف ، ولا أدل على ذلك من قوله ﷺ : « **دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد ، والبغضاء ، والبغضاء : هي الحالقة . أما إني لا أقول : تحلق الشعر ولكن تحلق الدين** »[4] ثم إنه يرد هنا أسئلة :

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، أبي بكر : جابر الجزائري (١/٥٢٣) .

(٢) معجم مفردات القرآن ، للراغب الأصفهاني ص"٤١٤" .

(٣) تفسير المنار (٦/٣٤٢) .

(٤) رواه الترمذي ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ، باب ٥٦ ، برقم [٢٥١٠] (٤/٥٧٣) ، ط المكتبة التجارية .

ورواه الإمام أحمد (١/١٦٥،١٦٧) رواية الزبير بن العوام . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٣٠) وقال : ورواه البزّار وإسناده جيد ، وحسّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٣٠٧) برقم (٢٠٣٨) .

إذا كان الحسد يؤدي بالمجتمعات إلى الهلاك والدمار ، فما هو الحسد؟ وما أسبابه ؟ وما علاجه ؟

قال العلماء : الحسد : هو تمني زوال نعمة الغير . بمعنى : أنه إذا أنعم الله على أحد بنعمة ، فإن أردت زوالها فهذا هو الحسد ، وإن أردت مثلها فهذا هو الغبطة . أما الأولى فحرام على كل حال إلا نعمة أصابها فاجر يستعين بها على الشر والفساد ، فلا تضرك محبتك لزوالها ؛ لأجل فجوره وفساده[١] .

وله مراتب أربعة :

الأولى : أن يحب زوال تلك النعمة عن المحسود وإن كان ذلك لا يحصل له ، وهذا غاية خبث الحسد .

الثانية : أن يحب زوال تلك النعمة إليه وأن تكون له لا للمحسود .

الثالثة : أن يشتهي لنفسه مثلها ، ولا يشتهي زوالها عنه بادئ الأمر ، لكن إذا لم يحصل له مطلوبه حسده وتمنى زوالها عنه .

الرابعة : أن يشتهي لنفسه مثلها ، فإن لم يحصل فلا يحب زوالها ، وهذا معفو عنه ، والثالث بين الذم والمدح ، والثاني على خطر ، والأول هو المذموم الخطير[٢].

أسبابه :

ذكر العلماء للحسد سبعة أسباب :

أحدها : العداوة والبغضاء ، سواء كان عدواناً أو بسبب إيذاء .

ثانيها : أن ينال أحدٌ منصباً عالياً فيحسده ويريد زوال ذلك عنه ، وقد يسعى بقدرته لذلك .

ثالثها : أن يكون من طبيعته استخدام غيره فيريد زوال النعمة عمن يستخدمهم .

رابعها : التعجب ، كما حكى الله عن أعداء رسله أنهم قالوا : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم:١٠] وقوله : ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٤] وقوله : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون:٤٧] .

خامسها : الخوف من فوت المقاصد ، كالمتزاحمين على صنعة واحدة أو وظيفة

(١) صفوة الآثار والمفاهيم ، الدوسري (٣٥/١) .

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم (٣٠٥/١،٣٠٦) .

واحدة . فإن كلا منهما يحسد صاحبه على كل نعمة تكون عونا له في الانفراد بمقصوده .

ومنها أيضا : تحاسد الضرات ، والأخوة عند الوالدين لنيل منزلة عندهما .

سادسها : حب الرئاسة وطلب الجاه لنفسه ، كالذي يكون يسمع بنظير له ولو بعيدا ساءه ذلك وأحب هلاكه وزوال نعمته أو سلطانه .

سابعها : شح النفس بالخير على عباد الله . وهذا أكثر أنواع الحسد[1] .

أما عن علاج الحسد فسنتناوله من جهة الحاسد أولا ، ثم من جهة المحسود ثانيا :

أولا : من جهة الحاسد :

ينبغي للحاسد أن يعلم أن من لوازم صحة إيمانه بالله تعالى الرضاء بقضاء الله وقدره ، وأنه بحسده لا يكون راضيا بقضائه بل يكون ساخطا لحكمه وقضائه ، منازعا له في قسمته التي قسمها لعباده ، وعدله الذي أقامه بينهم . وهذه جناية تقدح في أصل التوحيد والإيمان . هذا **من جهة** ، ومن **جهة أخرى** : فعلى الحاسد أن يعلم أنه إذا غش مؤمنا لأجل الحسد خرج من صفة المؤمنين الذين يحبون لإخوانهم الخير ، وشارك إبليس وجميع الكافرين في محبتهم الشر للمؤمنين ، ومن **جهة ثالثة** : فإنه إذا عادى مؤمنا لأجل الحسد كان مبارزا لله بالمحاربة ، ومن **جهة رابعة** : يجب عليه أن يتذكر عقاب الله العظيم للحاسد في الآخرة ، ومن **جهة خامسة** : يجب عليه أن يرحم نفسه ويرثى لها من آثار الحسد من الهموم والغموم والكمد الذي لا يفارق قلبه وصدره مما قد ينقلب عليه مرضا عضالا . فإذا علم الحاسد واستيقن أن الضرر عليه في دينه ودنياه ، وأن حسده لا يضر محسوده ، بل يضره هو ، فقد يقلع عن الحسد ويسلم صدره منه ، فيسلم له دينه وتسلم له صحته ؛ حيث يسلم من الوساوس والمنغصات والهموم والغموم المؤذية بالصحة . والعياذ بالله! ومن **جهة سادسة** : يجب على الحاسد أن يستيقن أن المحسود لا يزال في نعمة من الله وفضل ، سواء من نعم الله التي تنزل عليه وهو في الدنيا أو مما يدخره الله له من الأجر والمثوبة في الآخرة ؛ لكثرة ما يذكره من مساوئ له أمام

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (٣٠٦/١) .

الناس وفي مجالسهم . فإذا علم أن ذلك يزيد في حسنات المحسود وينقص من سيئاته . إذا عرف كل هذا واستيقن أنه هو الخاسر دونه أقلع عن حسده وتاب إلى ربه[١] .

وبعد هذا كله فالشأن بالمسلم أن يقتدي بأصحاب النبي ﷺ من الأنصار الذين مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾ [الحشر:٩] قال الرازي – رحمه الله – : فأثنى عليهم بعدم الحسد[٢] . وقال ابن كثير – رحمه الله – أي : لا يجدون حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة ، وقال الحسن : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعني : الحسد[٣] . بل إنهم يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم[٤] .

ثم إن على الحاسد وهو يسمع قصص أولئك الأخيار أن يخجل من نفسه ويستحي من التمرغ في أقذار الحسد ويدعي أنه من المؤمنين ، فلا يليق به أن يبقى في هذا المستوى الهابط ومن سبقوه من أهل الإيمان قد وصلوا إلى مرتبة الإيثار[٥] . فما بالك لو قيل لهذا الحاسد : تصدق ، أو ضيّف ضيفاً ، أو أقرض فلاناً قرضاً ، فماذا يكون شعوره ؟ بل فماذا يتوقع منه لو جاء إليه من حسده وقد ألمت به حاجة ؟ فالجواب : أنه يتوقع منه التشفى منه والغيبة فيه ونشر خبره بين الناس . فاللهم لا تشمت بنا عدواً ولا حاسداً! .

ثانياً : علاج الحسد من جهة المحسود :

الأول : الاستعاذة الصادقة بالله من شر حاسد إذا حسد ومن فعل ذلك صادقاً لاجئاً أعاذه .

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (٣٠٧/١) . وانظر : (أدب الدنيا والدين) للماوردي أبي الحسن علي بن محمد ص"٤٣٢:٤٢٦" ، ط دار ابن كثير .

(٢) تفسير الرازي (٢٣٨/٣) .

(٣) زاد المسير (٣٣٨/٧) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣٦٢/٤) .

(٥) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ، د/ عبد الكريم زيدان (١٢٥/١) .

الثاني : الالتزام بتقوى الله – تعالى – وحفظ حدوده ؛ فمن حفظ الله حفظه.

الثالث : التوبة الصادقة من الذنوب التي من أضرارها : تسليط الحاسد .

الرابع : الصبر على عدوه الحاسد وعدم التعرض له بأذى أو شكوى ؛ بل يكل أمره إلى الله ويستعين به عليه :

أصبر على كيد الحسو ... د فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله[1]

الخامس : قوة التوكل على الله ، والتحصن بملازمة كثرة الذكر .

السادس : أن يفرغ قلبه من الاشتغال بالحاسد والتفكر به ؛ بل يقتلعه من قلبه ولسانه ؛ ويجعله نسياً منسياً .

السابع : الإقبال على الله بقوة محبته والإخلاص له والإنابة إليه والضراعة إليه وحده .

الثامن : من الأمور التي لها تأثير عجيب في دفع البلاء ونزول الكرب الصدقة والإحسان .

التاسع : الإحسان إلى الحاسد قدر المستطاع ومهاداته ؛ لعل ذلك يطفئ حسده ويليّن قلبه ، وهذا شاق[2] ولكن اتباعاً لأمر النبي ﷺ « **تهادوا تحابوا** »[3] .

---

(١) انظر : (ديوان ابن المعتز) عبدالله بن المعتز ص"٣٨٩" ، دار بيروت ، دار صادر ١٣٨١هـ ١٩٦١م .

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم ، الدوسري (٣٠٨/١) .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد – باب قبول الهدية – ص"٢٠٥" برقم [٥٩٤] ط عالم الكتب سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

ورواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الهبات ، باب التحريض على الهبة والهدية صلة بين الناس (١٦٩/٦) ط دار المعرفة سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .

وذكره ابن عبدالبر واسمه (يوسف بن عبدالله) في كتابه (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) (١١٦/٦) .

وأخرجه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال والنسائي في الكنى عن أبي هريرة . انظر : (فيض القدير على الجامع الصغير) للمناوي (محمد بن عبدالرؤوف) (٢٧١/٣) ط دار المعرفة .

وانظره في : (تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير) لابن حجر (٨٠/٣) ط مكتبة ابن تيمية وقال عنه الألباني في صحيح الجامع الصغير أنه (حسن) (٥٦/٣) .

وعلى هذا فإنه ينبغي للدعاة وخطباء المنابر والعلماء التحذير من داء الحسد ، فقد لا ينصاع الحاسد من أول مرة ، وإنما إذا كثر ذلك وسمعه من هؤلاء جميعاً فقد يلين قلبه ويرجع إلى رشده ، ونحن جميعاً مطالبون بالنصح والإرشاد ولكن من الباب الذي يحب هو لا ما يحب الداعية ؛ لأن غرضه هو انتشاله من أوحال الحسد وإخراجه إلى الصفاء والنقاء المتمثل في الجماعة المسلمة قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾ [الحجرات:١٠] .

رابعا : ومما يستفاد : أن الآيات تشير إلى أن أول من سن القتل والعدوان هو قابيل ، وأن عليه جزءا من إثم كل نفس تقتل ظلما إلى يوم القيامة[١] .

قلت : وهكذا تتابعت بعد هذه الجريمة النكبات والمآسي والمذابح البشرية الجماعية ، كله بسبب الحقد والحسد والبغي . و لم تتوقف حتى يومنا هذا بل ازدادت حدة بعد اكتشاف الأسلحة الفتاكة (الكيماوية ، والنووية ، والأسلحة الآلية) ولا نعلم ماذا سيأتي بعد هذه الاكتشافات ، لكننا كل يوم تقريبا نسمع عن مذابح يصل ضحاياها إلى الآلاف من البشر وتكتشف المقابر الجماعية لرفات مئات من البشر أبيدوا جماعيا و لم يعلم عنهم إلا بعد حين من الدهر ، وهكذا ترخص الدماء ويستباح القتل تحت اسم أي شعار لا يمت للدين بصلة ، وخذ مثالا على ذلك ما يحصل للمسلمين في بقاع الأرض من تشريد وقتل وظلم لا لأجل شيء ؛ وإنما لأجل أنهم مسلمون[٢] .

خامسا : تشير الآيات إلى أول دفن في الإنسانية ، وكيف أن الدفن في التراب كان وحيا من الله – تعالى – عن طريق عمل الغراب . وحكمة ذلك : إرشاد الإنسان إلى أن الدفن يمنع انتشار الأمراض ، وبجانب ذلك فإنه إكرام للميت[٣] .

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (٥٢٣/١) .

(٢) للمزيد من المعلومات ، انظر : كتاب أفغانستان الجريحة ، محمد محمد توفيق ص"٣٨" ، مؤسسة الجزيرة ؛ قضية البوسنة والهرسك ، الأرقم الزعبي ، دار النفائس ص"٥٢" ؛ الجهاد ضد الإلحاد ، أحمد الحصين ص"٣٥" وما بعدها . الناشر مكتبة البخاري ، ملحمة البوسنة والهرسك الجريمة الكبرى ، د/ عدنان النحوي ، دار النحوي ص"٩٦" .

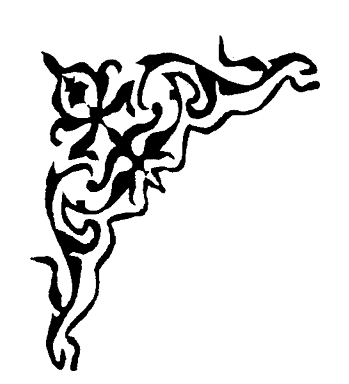
(٣) المنتخب في تفسير القرآن والسنة ص"١٥٠" ، لجنة القرآن والسنة ، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

سادساً : خير ابني آدم : المقتول ظلماً ، وشرهما : القاتل ظلماً[1] .

سابعاً : قلت : لا مانع أن يتعلم الإنسان ممن حوله إذا كان في ذلك عظيم فـائدة ، كما تعلّم قابيل من الغراب في كيفية الدفن ، والواقع يشهد بذلك . فالإنسان في العصـر الحديث لم يصنع الطائرة حتى فكر في كيفية إقلاع وهبوط وتوازن الطـائر ، واستفادته من قوة شم بعض الحيوانات ، وهكذا ترى الله تارة يقول : ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة:٤] وتارة يقول : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ [المائدة:٣١] والعجيب أنهما في سورة واحدة .

---

(١) أيسر التفاسير (١/٥٢٣) .




الفصل الثاني

العقوبات الإلهية من زمن نوح عليه السلام إلى بداية زمن موسى عليه السلام

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : عقوبة قوم نوح عليه السلام .

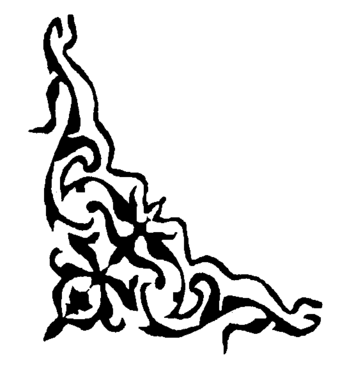
المبحث الثاني : عقوبة قوم هود عليه السلام .

المبحث الثالث : عقوبة قوم صالح عليه السلام .

المبحث الرابع : عقوبة قوم لوط عليه السلام .

المبحث الخامس : عقوبة قوم شعيب عليه السلام .

المبحث السادس : عقوبة قوم الرسل المذكورين في سورة يس .




المبحث الأول

عقوبة قوم نوح - عليه السلام -

تمهيد :

بعث الله نوحاً – عليه السلام – إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام[1] . بعثه بعد أن غيّر أهل زمانه أمانة التوحيد وصرفوها لغير مستحقها (وهو الله عز وجل) فأرسله ليُعيدهم إلى توحيد الخالق ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٥٩] ونبذ ما سواه من أصنام وأحجار لا تضر ولا تنفع ، فأبوا وكابروا وعاندوا ، فحاول جهده أن يدعوهم بلطف وإحسان وحكمة ولين كلام ، فما زادهم ذلك إلا نُفوراً ، ومع هذا لم ييأس . ومكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت:١٤] الآية . يدعوهم ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، إلى أن أخبره الله ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﴾ [هود:٣٦] فدعا الله عليهم ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦] ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ [القمر:١٠] ﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:١١٨] .

قال الضحاك : فدعا عليهم لما أخبره الله بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن[2] .

وقال ابن كثير : وإنما دعا عليهم بهذا الدعاء لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً[3] . واستجاب الله دعوته ، وأقال عثرته ، فأغرقهم ونجاه ، وأضعفهم وقواه ، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:١٠٣] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر:٥١] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٠) ؛ وتفسير القرطبي (٩/٤٢) .

(٢) تفسير القرطبي (٩/٢٩) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٤٥٦) .

المطلب الأول : الآيات التي ذكرت العقوبة :

ذكرت قصة نوح – عليه السلام – في بضع عشرة سورة . جاء بعضها أثناء الحديث عن الأقوام المكذبين أو عن الأنبياء المؤيدين بنصر الله ، بينما جاء بعضها الآخر قصصاً مستقلاً .

القسم الأول : جاء في سور : التوبة ، إبراهيم ، الأنبياء ، الحج ، والفرقان ، ص ، وغافر ، ق ، الذاريات ، النجم ، والحديد .

فسورة **التوبة** : ذكرت قوم نوح وتكذيبهم رسولهم في هذه الآية قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة:٧٠] فهنا ذكر عدد الأقوام المكذبين . وأن الله تعالى أرسل إليهم الرسل فكذبوا ، فكان ذلك منهم ظلماً لأنفسهم أي ظلم! .

وسورة **إبراهيم** : يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم:٩] .

وهنا كما ترى تشابه في الاستفهام في سورة التوبة وسورة إبراهيم وكذلك في ذكر عدد الأقوام المكذبين وما قاله في سورة إبراهيم من قوله : ﴿ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩] يشمل أهل مدين وأصحاب الرس وقوم تبع والمؤتفكات وغيرهم ممن قال الله فيهم أيضا في سورة الفرقان : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾[الفرقان:٣٨] .

وانفردت سورة **إبراهيم** بقوله تعالى: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [إبراهيم:٩].

قال صاحب التحرير والتنوير : وهذا التركيب لا أحد سبق مثله في كلام العرب ، فلعله من مبتكرات القرآن وله عدة وجوه من الاحتمالات أنهاها في الكشاف إلى سبعة ، وفي بعضها بعد ، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواههم ، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل[1] ، وأولى من ذلك ما اختاره ابن جرير في تفسيره

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/١٩٦) .

من رواية عبدالله بن مسعود أنهم ردّوا أيهديهم في أفواههم عاضّين عليها غيظاً على الرسل[١] .

وسورة **الأنبياء** : جاء فيها قوله تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧] .

وفي الآيات طلب نوح – عليه السلام – من ربه أن ينصره على قومه المكذبين ، فاستجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب العظيم (كرب الطوفان) ووجه كونه كرباً عظيماً ؛ لأنه يهول الناس عند ابتدائه وعند مدّه يلحقهم إذا هربوا ؛ فيبقون زمناً يذوقون آلام الخوف والغرق حتى يغرقوا ، وفي ذلك كله كرب متكرر ، فلذلك وُصِفَ بالعظيم[٢] .

وفي سورة **الفرقان** : جاء قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٣] [الفرقان:٣٧] تقدم ذكرها عند ذكر الأقوام المكذبين لسورة إبراهيم والتوبة . وزاد أنهم بتكذيبهم نبيهم فكأنهم كذبوا الرسل جميعاً ، وهذه إشارة إلى أن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – أمة واحدة ، فكان ذلك سبباً في إغراقهم وجعلهم عبرة للناس .

وفي سورة **ص** : جاء قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾ [ص:١٢] وفي ذكرها في موضعها هذا لطيفة ، حيث جاءت إثر خصومة المشركين للنبي ﷺ تسلية له وتطميناً له حيث قال عنهم : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ [ص:١١] وذكر الآية .

وفي سورة **غافر** : جاء قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر:٥] .

وسورة غافر تكرر ما سبق من تكذيب الأمم السابقة من عاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وقوم موسى والمؤتفكات المذكورة في سورة التوبة وضمناً في سورة إبراهيم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي : فأنزلت بهم من الهلاك ما همّوا به بإنزاله بالرسل وأرادوا أن يأخذوهم فأخذتهم أنا ، فكيف كان عقابي إياهم ، أليس كان مهلكاً مستأصلاً[٤] ؟

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره بسند صحيح انظره (١٦/٥٣١و٥٣٢)، وانظر : ابن كثير (٢/٥٤٣و٥٤٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/١١٣) .

(٣) انظر فوائد الآية في : (تفسير القرطبي) (١٣/١١٩) ؛ التفسير الكبير (٢٤/٨١) .

(٤) التفسير الكبير (٢٧/٣٠) .

والاستفهام في الآيات للتعجب من حالة العقاب ، وذلك يقتضي أن المخاطب قد شاهد ذلك الأخذ والعقاب ، وترى أنه بنى ذلك على مشاهدة آثارهم في البلاد والديار .

وقد يكون الاستفهام في معنى التقرير بناءً على أن المقصود التعريض بتهديد المشركين من قريش وتنبيههم إلى ما حل بالأمم قبلهم[1] .

وفي سورة **ق** : جاء قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق:١٢-١٤] مثلها مثل الآيات السابقة ذكرت تكذيبهم ، وزاد هنا أنه عقب بأصحاب الرس بعد قوم نوح للجامع الخيالي بين القومين ، وهو جامع التضاد ؛ لأن عذابهم كان ضد عذاب قوم نوح ؛ إذ كان عذابهم بالخسف . وعذاب قوم نوح بالغرق ، ثم ذكرت ثمود لشبه عذابهم بعذاب أصحاب الرس من بقايا ثمود ، ثم ذكرت عاداً لأن عذابها كان بالريح ، ثم ذكر فرعون وقومه لأنهم كذبوا أشهر الرسل قبل الإسلام ، وأصحاب الأيكة وهم من خلطاء بني إسرائيل[2] .

وفي سورة **الذاريات** : جاء قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الذاريات:٤٦] وفيها : الوصف الجديد اللائق بهم (وهو الفسق) . وجاء وصفهم أيضاً بالفسق في سورة تليها في الترتيب ، ألا وهي سورة الحديد مع ذرية قوم إبراهيم – عليه السلام – قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:٢٦] .

وهذه الإشارات السريعة في هذه السور جاء أكثرها كما ذكرنا في معرض ذكر الأقوام المكذبين ، بينما جاءت واحدة فقط منها في سياق الحديث عن الأنبياء ، ومع ذلك فإننا نلحظ عدم التكرار ؛ بل في كل واحدة إشارة ومعلومة جديدة .

القسم الثاني : السور التي فصلت عقوبتهم .

أولاً – سورة الأعراف :

كان حديثها عن بعض ما قاله نوح – عليه السلام – لقومه ، وبعض ما ردوا به عليه .

---

(١) التحرير والتنوير (٨٧/٢٤) .

(٢) المصدر السابق (٢٩٥/٢٦) .

الآيات : قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٩-٦٤] .

لطائف الآيات في عقوبة قوم نوح عليه السلام من سورة الأعراف :

أولا : لم قال نوح – عليه السلام – ﴿ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ بالتاء . و لم يقل : ليس بي ضلال ، كما وصفه قومه وذلك أشد مناسبة ؛ ليكون نافيا عين ما أثبتوه ؟

والجواب : أن الضلالة أقل من الضلال ، فكان نفيها أبلغ من نفي الضلال عنه . كأنه قال : ليس بي شيء من الضلال . كما لو قيل : ألك تمر ؟

فقلت : مالي تمرة ! كان ذلك أبلغ في النفي من قولك : مالي تمر[1] !

ورد هذا ابن عاشور بقوله : لما تقدم لفظ « ضلال » استحسن أن يعاد بلفظ يغايره في السورة دفعا لثقل الإعادة[2] .

ثانيا : لم يوصف الملأ هنا بالذين كفروا ، أو بالذين استكبروا استغناء بدلالة المقام على أنهم كذبوا وكفروا[3] .

ثالثا : تجريد « ليس » من تاء التأنيث مع كون اسمها مؤنث اللفظ جرى على الجواز في تجريد الفعل من علامة التأنيث إذا كان مرفوعه غير حقيقي التأنيث[4] .

رابعا : التكذيب حصل من قادتهم . فهو بالنسبة للملأ يؤول إلى الاستمرار على التكذيب ، وأما العامة فكذبوا رغما عنهم تبعا لقادتهم .

وقدم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق ؛ للاهتمام بإنجاء المؤمنين وتعجيلا

---

(١) تفسير الرازي المسمى " انموذج جليل " ص"١٥١" .

(٢) التحرير والتنوير (١٩٢/٨) القسم الثاني .

(٣) انظر المصدر السابق (١٩٠/٨) القسم الثاني .

(٤) نفس المصدر (١٩٢/٨) القسم الثاني .

لمسرة السامعين من المؤمنين بأن إرادة الله عز وجل وقضاءه أنه إذا أهلك المشركين أن ينجي الرسول والمؤمنين . إذاً فتقديمه يفيد التعريض بالإنذار ، وإلا فإن الإغراق وقع قبل الإنجاء ، لأن نجاة نوح حصلت بعدما غرق قومه(١) .

خامساً : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف:٦٤] عمين : مشتق من العمى ، وأصله فقدان البصر ، ويطلق مجازاً على فقدان الرأي النافع ، ويقال : عمي القلب . وقد غلب المعنى المجازي على من فقد الرأي النافع حتى صار سجية عنده ، ولذلك لم يقل : عمياً ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء:٩٧] وقول الشاعر :

ولكنني عن علم ما في غدٍ عم(٢)

والذين كذبوا كانوا عمين ؛ لما قد وصفنا سابقاً من أن قادتهم داعون للضلالة مستمرون عليها ، وأتباعهم متقبلون لدعوتهم سماعون لها(٣) .

ثانياً – سورة يونس :

الآيات التي ذكرت عقوبتهم :

قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس:٧١-٧٣] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [يونس:٧٣] الآية.

---

(١) نفس المصدر (١٩٧/٨) القسم الثاني .

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى وأوله :

وأعلمُ ما في اليوم والأمس قبله

قافية الميم ص"٨٦" ، دار صادر .

(٣) انظر التحرير والتنوير (١٩٨/٨، ١٩٩) .

وقال في سورة **الأعراف** : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ [الأعراف:٦٤] الآية . فما الفرق بين (فنجيناه) هنا ، و(فأنجيناه) في الأعراف .

والجواب : أن أنجينا ونجينا للتعدي ، لكن التشديد يدل على الكثرة والمبالغة ، فكان هنا في يونس ﴿ وَمَن مَّعَهُ ﴾ ولفظ : « من » يقع على أكثر مما يقع عليه ﴿ الَّذِينَ ﴾ ؛ لأن ﴿ مَن ﴾ تصلح للواحد والتثنية والجمع ، والمذكر والمؤنث ، بخلاف الذين فإنه لجمع المذكر فحسب ، فكان التشديد مع « من » أليق[1] .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس:٧٣] الخطاب بـ« انظر » يجوز أن يكون لكل من يسمع ، فلا يراد به مخاطب معين ، ويجوز أن يكون خطابا لمحمد ﷺ ؛ فخص بالخطاب تعظيما لشأنه وتسلية له على ما يلاقيه من أذاهم وإظهارا لعناية الله به .

ثالثا - سورة هود :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن

(١) البرهان في متشابه القرآن ص"١٩٠" .

يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٢٥-٤٨] .

لطائف من الآيات :

أولا : قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [هود:٢٥] و[المؤمنون:٢٣] وقال في سورة **المؤمنون** مثلها .

وحذف الواو في سورة **الأعراف** بقوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف:٥٩].

للسائل أن يسأل عن إثبات الواو في سورتي يونس والمؤمنون وحذفه في سورة **الأعراف** . ثم اختلاف المحكيات بعدها؟ .

والجواب : أن في سورة الأعراف دعوى نبوة أو تكذيب قومه له . فهو كلام مبتدأ . أما في سورتي هود والمؤمنون فقد تقدم ما يشعر بذلك وهو قوله : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود:١٧] فحسن العطف عليه بالواو ، تسلية للنبي ﷺ وتخويفاً لقومه بقوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ [هود:١٢] وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [هود:١٣] .

وأما سورة المؤمنون : فلتقدم ذكر نعمه على المكلفين بحملهم على الفلك الذي كان سبباً لوجودهم ونسلهم ، فعطف عليه بالواو . وبقوله : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون:٢٢] فلأنه تقدم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ [المؤمنون:١٧] فناسب العطف عليه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ [هود:٢٥] .

وأما عن اختلاف المحكيات بعد كل آية منها . كقوله بعد ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ .. ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:٥٩] .

وقوله : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود:٢٦] .

وقوله : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون:٢٣] .

فالجواب : أن يقال : للأنبياء مقامات مع أممهم يكون فيها الإعذار والإنذار ويرجع فيها عوداً على بدء الوعد والوعيد ، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله ورفض عبادة ما سواه في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير عن حاله ، بل الواعظ ينوع مقاله . والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه . فإذا جاءت المحكيات على اختلافها لم يطالب فيها بالبيان ، وقد اختلف في الأصل باتفاقها ؛ لأنه قال مرة باللفظ الذي حكي ومرة بلفظ آخر في معناه كما ذكر ، وكذلك الجواب يرد من أقوام يكثر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدهم ، وصدق الخبر يتناول الشيء على ما كان عليه(١) . والله أعلم .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:٢٩] عن نوح ، وقال عن هود : ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:٤٦] بدون واو ، فما الفرق ؟

والجواب : لأنّ الضمير في قولهما ﴿ عَلَيْهِ ﴾ لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأول

(١) درة التنزيل ص"١٢٨" .

الكلام في القصتين ، ولكن في قصة نوح – عليه الصلاة والسلام – وقع الفصل بين الضمير وما هو عائد عليه بكلام آخر فَجِيءَ بواو الابتداء[1] .

والكلام الآخر هو ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ [هود:٢٨] وما قبلها ... أما (آية) ما قاله هود فلا يوجد فصل بينها وبين ما سبقها من تبليغ هود لقومه . والله أعلم .

ثالثاً : وقع بعد قوله : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ ﴿ مَالًاۖ ﴾ وفي غيرها ﴿ أَجۡرًاۖ ﴾ فهل من فرق ؟

والجواب : لأن قصة نوح وقع بعدها ﴿ خَزَآئِنُ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ... ﴾ [هود:٣١] ولفظ المال بالخزائن أليق[2] .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾ [هود:٣٥] الآية .

قد يقول قائل : ما علاقتها بقصة قوم نوح ؟ وما القول في الشرط في الآية ﴿ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي ﴾ [هود:٣٥] والشرط لا يكون إلا مستقبلاً ؟

والجواب : أن هذه الجملة معترضة وليست من القصة ، ومناسبة هذا الاعتراض أن تفاصيل القصة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة ، تدعو المنكرين إلى أن يتذكروا إنكارهم لنبوة محمد ﷺ ويعيدوا ذكر ذلك ؛ لتشابه ما بينهم[3] . وأما عن الشرط فتقديره : إنْ بِنتُ ، أو بَانَ ، أو صح أني افتريته فعليَّ إجرامي[4] .

خامسا : في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ [هود:٢٩] المراد بالنهي هنا : المخاطبة التي ترفع العذاب عنهم لا مطلق المخاطبة ، ولعل هذا توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح – عليه السلام – سؤال نجاته ؛ حتى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف[5] .

سادسا : في قوله تعالى : ﴿ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾

(١) تفسير الرازي " انموذج جليل " ص"٢٠٦" .

(٢) البرهان في متشابه القرآن ص"٢٢٢" .

(٣) انظر : (التحرير والتنوير) (٦٣/١٢) ؛ في ظلال القرآن (١٨٧٦/٤) .

(٤) كشف المعاني ص"٢١١" .

(٥) التحرير والتنوير (٦٧/١٢) .

[هود:٤٠] في تقييد الجملة باثنين بيان ؛ لئلا يتوهم أن يحمل من كل زوجين واحدا منهما ؛ لأن الزوج هو واحد من اثنين متصلين ، ولئلا يحمل أكثر من اثنين من كل نوع لتضيق السفينة وتثقل(١) .

سابعا : إن قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:٤٣] لا يناسبه المستثنى في الظاهر ، وهو قوله : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود:٤٣] لأن المرحوم معصوم من الغرق ، فظاهره يقتضي : لا معصوم إلا من رحم .

والجواب : أن (عاصم) هنا بمعنى معصوم كقوله تعالى : ﴿ مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:٦] أي مدفوق وقوله : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٢١] أي : مرضية ، ومنه قول العرب : سر كاتم ، أي : مكتوم(٢) .

ثامنا : إن قيل : كيف صح الأمر في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ [هود:٤٤] وهما لا يعقلان ، والأمر والنهي إنما يكون لمن يعقل ويفهم الخطاب .

والجواب : **أولا** : أن المراد الخطاب للملائكة الموكلة بتدبيرها .

ثانيا : أن هذا الأمر أمر إيجاد لا أمر إيجاب ، وفي أمر الإيجاد لا يشترط العقل والفهم ؛ لأن الأشياء كلها بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعة منقادة لله تعالى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل:٤٠] وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [فصلت:١١] كل ذلك أمر إيجاد(٣) .

تاسعا : قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤] .

قال الألوسي : اعلم أن هذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها ، واستذلت مصاقع العرب ، فسفعت بنواصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان ... الخ

(١) المصدر السابق (٧٢/١٢) .

(٢) تفسير الرازي المسمى " أنموذج جليل " ص"٢٠٦،٢٠٧" .

(٣) تفسير الرازي المسمى " انموذج جليل " ص"٢٠٧" .

وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان حيث قال : في هذه الآية واحد وعشرون نوعا من البديع[1] .. الخ

وذكر الألوسي : أن شيخه ألف فيها رسالة ، وذكر من مزاياها ما بلغ مائة وخمسين مزية ؛ إلا أنها فقدت و لم يظفر بها[2] .

وقد تصدى السكاكي[3] في المفتاح في بحث البلاغة والفصاحة لبيان بعض خصائص البلاغة في هذه الآية ، رادا بها على كلام الكشاف فيما يراه ابن عاشور فقال : « والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية ... »[4] .

والمقصود من كل ذلك : أن هذه الآية فيها من المعاني واللطائف والفوائد ما يعجز القلم عن بيانه والذهن عن كشف مكنونه وبيان أسراره ، ولولا الطول لذكرت من ذلك الشيء الكثير .

عاشرا : قوله : ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود:٤٥] .

أولا : في حال الدعاء لابنه : أن نوحا – عليه السلام – كان غير منهي عن الدعاء للكفار . و لم يكن تقرر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين، وكان حال نوح – عليه السلام – كحال النبي ﷺ حين قال لأبي طالب : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » قبل أن ينزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣] الآية[5] .

---

(١) البحر المحيط وبهامشه النهر الماد لأبي حيان ، ط دار المؤيد (٥/٢٢٧) .

(٢) روح المعاني (١٢/٦٨) .

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٨٠،٨١) ، والسكاكي : هو يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي ، أبو يعقوب سراج الدين ، عالم بالعربية والأدب ، مولده ووفاته بخوارزم ، من كتبه : رسالة في علم المناظرة ، مات بخوارزم سنة ٦٢٦هـ . انظر : (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) ، جلال الدين السيوطي (٢/٣٦٤) ؛ شذرات الذهب (٧/٢١٥) ؛ الأعلام (٨/٢٢٢) .

(٤) المصدر السابق (١٢/٨٠،٨١) .

(٥) الحديث رواه البخاري – كتاب الجنائز – باب إذا قال المشرك عند الموت "لا إله إلا الله" (١/٤١٧) برقم [١٣٦٠] ، ورواه مسلم – كتاب الإيمان – باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت مالم يشرع في النزع (١/٥٤) برقم [٣٩] .

ثانيا : أدب الدعاء في الآية حيث عرض بالمطلوب لأنه لم يذكره ، وذلك ضرب من ضروب التأدب . والتردد في الإقدام على المسؤول استغناء بعلم المسؤول ؛ فلامه الله على ذلك لوم عتاب حيث لم يتبين منه جواز ذلك قبل أن يسأل[1] .

الحادي عشر : قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾ [هود:٤٨] كان مقتضى الظاهر أن يقول : قال يا نوح اهبط ، ولكنه عدل عنه إلى بناء الفعل ليجيء على وتيرة أجزاء القصة من قبل ، من قوله : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] [هود:٤٤]

الثاني عشر : في قوله تعالى : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود:٤٨] تعريض بالمشركين من العرب فإنهم من ذرية نوح و لم يتبعوا سبيل جدهم نوح عليه السلام ، فأشعروا بأنهم من الأمم التي أخبر الله نوحا بأنه سيمتعهم ثم يمسهم عذاب أليم ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣] أي : وكان المتحدث عنهم غير شاكرين للنعمة[3] .

رابعا : سورة المؤمنون .

الحديث عن قوم نوح جاء نتيجة للعصيان المستمر ، ثم احتجاجهم في هذا المقطع بتقليد الآباء وأن الله لا يرسل بشرا إذا أراد الهداية لبشر وإنما يرسل ملائكة ، ثم ختمت الآيات بهداية نوح إلى هذا الدعاء ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٩] .

الآيات : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (١٢/٨٧) .

(٢) انظر : (التحرير والتنوير) (١٢/٨٨) .

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٩١) .

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٣-٣٠] .

لطائف الآيات غير ما سبق من سورة المؤمنون :

أولا : الحديث عن عقوبة قوم نوح في هذه السورة بدأ بذكر عصيانهم وعنادهم في احتجاجهم بتقليد الآباء وأن الله تعالى لا يرسل بشرا إذا أراد الهداية للبشر ، إنما يرسل ملائكة ترشدهم إلى الحق والهدى ، ثم ختمت الآيات بدلالة نوح عليه السلام إلى هـذا الدعـاء ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٩] .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ [المؤمنون:١٨] وقال تعالى بعده في قصة هود : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [المؤمنون:٢٨] فقدم الجار والمجرور ثانيا . فما الفرق ؟ ولم عطف جواب الملأ هنا بالفاء ؟

والجواب : أن الجار في قصة نوح – عليه السلام – جاء بعد تمام الصلة والانتقال إلى المقول فما فصل بين متلازمين ، ولو أخره في قصة هود – عليه السلام – لفصل بين الصلة وتمامها المعطوف عليها ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبُوا۟ ﴾ [المؤمنون:٣٣] من تمام الصلة[1] .

وأما الجواب عن العطف فلوجهين :

الأول : أنهم لم يوجهوا الكلام إليه ؛ بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفندون لهم ما دعاهم إليه نوح .

الثاني : ليفيد أنهم أسرعوا بتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر وإعمال الفكر[2] .

(١) كشف المعاني ص"٢٦٦،٢٦٧" ؛ وانظر : (درة التنزيل) ص"٢٥٦" ؛ البرهان ص"٢٧٥" .

(٢) التحرير والتنوير (٤١/١٨) .

ثالثا : في سورة هود والمؤمنون ورد ذكر الملأ لبشرية هود وتحذيرهم لقومهم ممن يضلهم ويغويهم عما هم عليه . وزادت هذه القصة بحكاية قولهم : ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون:٢٤] متذرعين بها خوفا على سيادتهم ، فهم بهذا حرموا أنفسهم وحرموا غيرهم الخير متوهمين أن الذي يأتي بإبطال عبادة الأصنام إنما أراد منازعتهم سلطانهم[١] .

رابعاً : كان كلام الله في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا ﴾ [هود:٤٠] وجاء هنا فقال : ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا ﴾ [المؤمنون:٢٧] فما الفرق ؟

والجواب : لأن آية هود حكت ما خاطبه الله به عند حدوث الطوفان ، وذلك وقت ضيق ، فأمر بأن يحمل في السفينة من أراد الله إبقاءهم ، فأسند الله الحمل إلى نوح للإسراع بحمل من عينهم الله حتى كأن حاله في إدخاله إياهم حال من يحمل شيئاً ليضعه في موضع .

وآية ﴿ ٱسْلُكْ ﴾ [القصص:٣٢] حكت ما خاطبه الله به من قبل حدوث الطوفان إنباء بما يفعله عند حدوث الطوفان[٢] .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون:٣٠] ترى أنه عطف على جملة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ﴾ جملة (وإن كنا لمبتلين) لأن مضمونها يفيد معنى : إن في ذلك لبلوى . فكأنه قال : إن في ذلك لآيات وابتلاء وكنا مبتلين ، أي : وشأننا ابتلاء أوليائنا ؛ فإن الابتلاء من آثار الحكمة الإلهية لترتاض به نفوس أوليائه وتظهر مغالبتها للدواعي الشيطانية فتُحمد عواقب البلوى[٣] .

خامساً : سورة الشعراء .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ

---

(١) انظر المصدر السابق ص"٤٢" .

(٢) التحرير والتنوير (٤٦/١٨) .

(٣) نفس المصدر (٤٨/١٨) .

حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٠٥-١٢٢] .

لطائف الآيات غير ما سبق من سورة الشعراء :

أولاً : جاء ذكر عقوبة نوح – عليه السلام – في سورة الشعراء بأسلوب آخر فيه بلاغة رصينة ولطافة في الدعوة سديدة ، وكأنه في كل يوم يبلغهم بأسلوب ويتحدث إليهم بكل وجه يرى أنه نفع لهم . ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، لا يفتأ يذكّرهم بتقوى الله ويحذّرهم عصيانه . وانظر ذلك في أوائل الآيات .

ثانياً : أنث الفعل المسند إلى قوم نوح لتأويل ﴿قَوْمُ﴾ في قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] بمعنى الأمة أو الجماعة ، كما يقال : قالت قريش ، وقالت بنو عامر ، وذلك قياس في كل اسم جمع لا واحد له من لفظه ، هذا في الآدميين . أما في غيرهم نحو (إبل) فمؤنث لا غير[١] . وجُمع (المرسلين) لأن تكذيبهم برسول واحد مقتض تكذيب كل رسول ؛ لأنه (أي : كل رسول) قال مثل ما قال نوح لقومه .

ثالثاً : لم كرر ذكر ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٠٨،١١٠] في الآيات المتعلقة بقصة قوم نوح ؟

والجواب : يحتمل أنه لطول مدة تبليغهم وأمرهم بالإيمان والتقوى . فكرر ذلك لذلك[٢] .

أو بمعنى آخر : كررها لزيادة التأكيد والتنبيه على أن كلاً منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة . فكيف إذا اجتمعا[٣] ؟!!

(١) التحرير والتنوير (١٥٩/١٩) ؛ وانظر : (تفسير أبي السعود) (٢٥٤/٦) .

(٢) كشف المعاني ص"٢٨١" .

(٣) تفسير أبي السعود (٢٥٤/٦) ؛ وانظر : (التحرير والتنوير) (١٥٩/٩) .

رابعاً : تقدم في سورة هود أنه قال لقومه : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ ﴾ [هود:٢٩] .

وهنا قال : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الشعراء:١١٤-١١٥] موقفان متشابهان وبينهما اختلاف ما ، فلعلهما موقفان ، أو هما كلامان في موقف واحد : حكى أحدهما هنالك ، والآخر هنا على عادة القصص القرآني .

فما في الآيتين من زيادة يحمل على أنه مكمل للآخر[1] .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴾ [الشعراء:١١٦] الموضع الوحيد الذي ذكر صفة العقوبة التي سينزلونها بنوح – عليه السلام – وكان هذا في نهاية الأمر حين أعياهم المضي في الجدل بالحجة والبرهان .

سادساً : إن قيل : لم كرر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٨،٦٧،١٠٣،١٣٩،١٥٨،١٧٤،١٩٠] في أكثر من موضع في السورة ؟

والجواب : أن ذلك أبلغ في الاعتبار ، وأشد تنبيهاً للقلوب ، وأيضاً : فإن كل قصة منها كأنها كلام قائم مستقل بنفسه ، فختمت بما ختمت به صاحبتها[2] .

سادساً : سورة العنكبوت .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٤-١٥] .

لطائف الآيات :

أولاً : السورة التي اعتنت بذكر الدعوة من أولها إلى آخرها تقريباً . حيث ذكرت أساليب الدعوة المتبعة أو التي يجب على الدعاة أن يسلكوها في تبليغ دعوة الله تعالى ، ومنها : الصبر على الدعوة والأذى في سبيل الله ونأخذ ذلك من قول الله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا ﴾ وغيرها من مثل قول الله تعالى :

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/١٥٩) .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لـ محمد بن أحمد بن جزى الكلبي (٣/٩٠) ، ط دار الكتاب العربي .

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت:٤٦] وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره .

ثانيا : إن قيل : ما فائدة العدول عن قوله : « تسع مئة وخمسين ، إلى قوله : ألف سنة إلا خمسين عاما » مع أن العادة عند أهل الحساب هو اللفظ الأول .

فالجواب : أنه لما سيقت القصة تسلية للنبي ﷺ بذكر ما ابتلي به نوح – عليه السلام – من أمته ، ومكابدته من طول مصابرتهم ، كان ذكر أقصى العدد الذي لا عقد أكثر منه في مراتب العدد أفخم وأعظم[١] مما يفضي إلى الغرض المقصود[٢] .

ثالثا : إن قيل : كيف جاء المميز أولا بالسنة ، وثانيا بالعام؟ .

فالجواب : لأن تكرار اللفظ الواحد عيب عند الفصحاء والبلغاء إلا لغرض تفخيم أو تهويل أو تنويه ونحو ذلك[٣] .

رابعا : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:١٤] في الآية إشارة إلى أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب ، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم ، فقوله : ﴿ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي : وهم على ظلمهم[٤] .

سابعا : سورة الصافات .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾ [الصافات:٧٥-٨٢] .

لطائف الآيات :

أولا : الحديث يتعلق فيها بمنة الله على نوح حين نجاه من الكرب العظيم ، وزكاه

---

(١) لأن مراتب الأعداد : هي الآحاد إلى العشرة ، والعشرات إلى المائة ، والمئات إلى الألف ، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير ، فيقال : عشرة آلاف ، ومائة ألف ، وألف ألف . التفسير الكبير (٤٢/٢٥) .

(٢) تفسير الرازي " انموذج جليل " ص"٣٩٠" .

(٣) تفسير الرازي ص"٣٩١" ؛ وانظر : (التسهيل لعلوم التنزيل) (١١٤/٣) .

(٤) التفسير الكبير (٤٢/٢٥) .

تزكية عظيمة حين جعله من عباده المؤمنين ، وجعل ذكره وذريته في الخالدين ، وأغرق قومه الآخرين ، فجعلهم عبرة للمعتبرين .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات:٧٦] فهنا ذكر نجاته وأهله و لم يذكر المؤمنين . فمن هم أهله ؟ و لم لم يذكر المؤمنين ؟

والجواب : المراد بأهله عائلته إلا من حق عليه القول منهم ، وكذلك المؤمنون من قومه ، كما دل عليه قوله : ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود:٤٠] وقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء:١١٩] ثم توالت عليه النعم بعد نجاته : **ومنها** : عمران الأرض بذريته . **النعمة الثانية** : أبقى نعمه عليه في أمم بعده. **النعمة الثالثة** : ثناء الله عليه وسلامه . **النعمة الرابعة** : أنه أول من أوذي في الله ، فسن الجزاء لمن أوذي في الله ، فلربما يكون له من كل جزاء يجازى به من صبر على الأذى في سبيل الله . **النعمة الخامسة** : أن الله جعله مثلا للمحسنين في جزائهم على إحسانهم . **النعمة السادسة** : أنه شرفه بأن جعله من عباده بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات:٨١] ومن المعلوم أن وصف « عبد » إذا أضيف إلى ضمير الجلالة أشعر بالتقريب ورفع الدرجة . واقتصر على وصف العباد بالمؤمنين تنويها بشأن الإيمان ؛ ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويقلع المشركون عن الشرك[1] .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:٧٩] اقتصر السلام في هذه السورة عليه وعلى إبراهيم وموسى وهارون وإلياسين ، و لم يرد السلام و لم يقل في قصة لوط ولا يونس ولا إلياس ﴿ سَلَـٰمٌ ﴾ فلم هذا التخصيص؟

والجواب : أنه سلم عليهم جميعا آخر السورة في قوله تعالى : ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات:١٨١] وهذا من إعجاز القرآن في أسلوب نظمه[2] ، إلا أنه زيد في سلام نوح خاصة بأنه في العالمين دون غيره ؛ للإشارة إلى أن التنويه بنوح كان سائرا في جميع الأمم ؛ لأنهم كلهم ينتمون إليه ويذكرونه ذكر صدق[3] .

---

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (٢٣/٣١-١٣٥) .

(٢) البرهان في متشابه القرآن ص"٣١٦" .

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/١٣٤) .

رابعا : إن قيل : كيف مدح سبحانه نوحا – عليه السلام – بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات:٨١] مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين ؟

فالجواب : إنما مدحه بذلك تنبيها لنا على شرف الإيمان وجلالة قدره ، وترغيبا في تحصيله والثبات عليه والازدياد منه .

خامسا : إن قيل : كيف قال : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴾ [الصافات:٨٢] وما حصل مما ذكر من النعم لنوح والمؤمنين إنما حصل بعد إغراق الظالمين ؟

فالجواب : أن ثم هنا : تفيد الترتيب والتراخي الرتبيين .

ومعناه هنا : أن إغراق الذين كذبوه مع نجاته ونجاة أهله أعظم رتبة في الانتصار له والدلالة على وجاهته عند الله تعالى وعلى عظيم قدرة الله تعالى ولطفه[1] .

ثامنا : سورة القمر .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:٩-١٧] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : جاء الحديث هنا عن نوح وقومه إثر الحديث عن تكذيب أهل مكة تسلية للنبي ﷺ ، وأجملت ما جرى بين نوح وقومه بعبارة موجزة هي قوله تعالى : ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر:١٠] فاستجاب الله دعوته وتولى تعذيبهم . ولم يأمر أحدا بذلك .

ثانيا : إن قيل : ما فائدة إعادة التكذيب في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ [القمر:٩] ولماذا لم يقل : كذبت قبلهم قوم نوح عبدنا ؟

والجواب : أن معناه : كذبوا تكذيبا بعد تكذيب .

(١) التحرير والتنوير (١٣٥/٢٣) .

وقيل : التكذيب الأول منهم لله تعالى ، والثاني لرسوله ﷺ . وقيل : كذبوا بالتوحيد أولا ، وكذبوا بالرسالة ثانيا[١] .

والأول أظهر ؛ لاجتماع القولين الأخيرين تحته ضمنا .

ثالثا : إن قيل : كيف قال تعالى في وصف ماء الأرض والسماء : ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ [القمر:١٢] ولم يقل : فالتقى الماءان ؟

والجواب : أراد جنس المياه[٢] .

رابعا : إن قيل : الجزاء إنما يكون للكافر ، لا للمكفور ، فكيف قال تعالى: ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر:١٤] ؟

والجواب : أن معناه : جزاء . مفعول له ، فمعناه : فتحنا أبواب السماء وما بعده مما كان سبب إغراقهم جزاء لله تعالى ؛ لأنه مكفور به . فحذف الجار ، وعدى الفعل بنفسه ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾ [الأعراف:١٥٠] والجزاء يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر .

أو أن المراد به نوح – عليه السلام – إما لأنه مكفور به بحذف الجار من الكفر الذي هو ضد الإيمان ؛ لأن كل نبي نعمة من الله – تعالى – على قومه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فكأنه قال : جزاء لهذه النعمة المكفورة .

أو أن « من » بمعنى « ما » فمعناه : جزاء لما كان كفر من نعم الله – تعالى – على العموم . وقرئ « كفر » – بفتح الكاف والفاء – أي : جزاء للكافرين[٣] .

خامسا : قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر:١٣] عدى فعل « حملنا » إلى ضمير نوح دون من معه ؛ لأنه كان إجابة لدعوته . فهو المقصود الأول من هذا الحمل ، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾[٤] [الأعراف:٦٤] ونحوه من الآيات الدالة على أنه المقصود بالإنجاء ونجاة قومه بمعيته .

---

(١) تفسير الرازي ص"٤٨٨" .

(٢) تفسير الرازي ص"٤٨٨" .

(٣) تفسير الرازي " انموذج جليل " ص"٤٨٨،٤٨٩" .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٦٤) ؛ وانظر : (التحرير والتنوير) (١٨٤/٢٧) .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٥]

أي : أبقينا سفينة نوح محفوظة لتكون آية يشهدها الأمم الذين أرسلت إليهم الرسل متى أراد واحدٌ من الناس رؤيتها ممن هو بجوار مكانها ؛ فكانت حجة دائمة . فلم تنته حتى رآها ناس من جميع الأمم[1] .

قال قتادة كما في الصحيح : « أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة »[2] وفي الفتح : عند ابن أبي حاتم بسنده عن قتادة قال : أبقى الله السفينة في أرض الجزيرة عبرة وآية حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة نظراً ، وكم من سفينة بعدها صارت رماداً[3] .

سابعاً : قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٦-١٧] ختم به قصة نوح وعاد وثمود ولوط ؛ لما في كل واحدة من التخويف والتحذير مما يتعظ به حافظ القرآن وتاليه ويعظ غيره[4].

تاسعاً : سورة نوح .

قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا

---

(١) انظر : (تفسير القرطبي) (١٧/١٣٣) ؛ تفسير ابن كثير (٤/٢٨٣) ؛ التحرير والتنوير (٢٧/١٨٦).

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر:١٤] (٤/٣٠٠) .

(٣) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة . انظر : (فتح الباري شرح صحيح البخاري) (٨/٧٧٦) .

(٤) البرهان في متشابه القرآن ص"٣٣٨،٣٣٩" .

﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح:١-٢٨] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : مزايا عامة :

١ – انفردت سورة نوح بالحديث عن نوح وقومه من أولها إلى آخرها .

٢ – أن نوحاً – عليه السلام – دعاهم فيها إلى العبادة والتقوى ، ولم تذكر بمجموعها لفظاً في سورة واحدة من قبل .

٣ – هذه السورة ذكرت أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها « وداً ، سواعاً ، يغوث ، يعوق ، نسرا » .

٤ – ختمت بالدعاء عليهم بالإهلاك والاستئصال فلا خير يرجى منهم ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ ﴾ [نوح:٢٦-٢٧] .

ثانياً : مزايا خاصة :

١ – إن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [نوح:٤] فإن كان المراد به تأخيرهم عن الأجل المقدر لهم في الأزل فهو محال لقوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ ﴾ [المنافقون:١١] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ ﴾ [نوح:٤] ، وإن كان المراد به تأخيرهم إلى مجيء الأجل المقدر لهم في الأزل ،

فما فائدة تخصيصهم بهذا ؟

فالجواب : معناه : ويؤخركم عن العذاب الذي لابد منه إلى منتهى آجالكم . وعلى تقدير الإيمان فإنه لا يعذبكم في الدنيا كما عذب غيركم من الأمم الكافرة[١] .

٢ - إن قيل : كيف أمرهم بالاستغفار ، والاستغفار إنما يصح من المؤمن دون الكافر ؟

فالجواب : أن معناه : استغفروا ربكم من الشرك واعبدوه وحده[٢] .

٣ - قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح:١٧] والإنسان ضد النبات ، فكيف أنبتنا منه ؟ وهلا قال : أنبتكم إنباتا .

والجواب : أي : أنبت أباكم من الأرض ، كما قال عن عيسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران:٥٩] .

أو أن معناه : أنه تعالى أنبت الكل من الأرض ؛ لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف ، وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض .

أما لم لم يقل : أنبتكم إنباتا ، وإنما قال « نباتا » ؟ فالتقدير : أنبتكم ، فنبتم نباتا .

وفيه لطيفة دقيقة : وهي أنه لو قال : أنبتكم إنباتا ، لكان المعنى : أنبتكم إنباتا عجيبا غريبا ، ولما قال : أنبتكم نباتا ، كان المعنى : أنبتكم ، فنبتم نباتا عجيبا[٣] .

٤ - إن قيل : كيف دعا نوح - عليه السلام - على قومه بقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ [نوح:٢٤] مع أنه أرسل إليهم ليهديهم ويرشدهم ؟

والجواب : إنما دعا عليهم بعدما أعلمه الله أنهم لا يؤمنون[٤] ، قال تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود:٣٦] .

٥ - إن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧] حيث وصفهم بالفجور والكفر في حال ولادتهم وهم أطفال ، وكيف علم أنهم لا يلدون إلا من يفجر ويكفر إذا بلغ ؟

---

(١) تفسير الرازي " أنموذج جليل " ص"٥٢٨" .

(٢) المصدر نفسه ص"٥٢٨" .

(٣) التفسير الكبير (١٤٠/٣٠) .

(٤) تفسير الرازي " انموذج جليل " ص"٥٢٩" ؛ وانظر : (كشف المعاني) ص"٣٦٧" .

والجواب : إنما علم ذلك بإعلام الله – سبحانه وتعالى – له[1] .

٦ – قوله تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ ﴾ [نوح:٢١] بغير واو ، ثم قال : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ ﴾ [نوح:٢٦] بزيادة واو ؟

والجواب : لأن الأول ابتداء دعاء ، والثاني عطف عليه[2] .

٧ – قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ [نوح:٢٤] وقال بعده : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ [نوح:٢٨] فلم فرق بينهما ؟

والجواب : أنه لما قال قبل ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾ ناسب قوله : ﴿ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ .

وقال في آخر السورة : ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦] وهو دعاء بالهلاك ، ناسب قوله : ﴿ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ أي : هلاكا[3] .

(١) المصدر السابق . ص"٥٢٩" .

(٢) البرهان في متشابه القرآن ص"٣٥٠،٣٥١" .

(٣) كشف المعاني ص"٣٦٦" ؛ وانظر : (البرهان في متشابه القرآن) ص"٣٥١" .

المطلب الثاني – سبب العقوبة :

لاشك أن نوحا – عليه السلام – سلك في دعوته أساليب متعددة لعل وعسى أن يستجيب قومه ، وهو مع كل هذا لا يمل من التنقل من أسلوب إلى آخر حسب ما يقتضيه المقام ، فتراه مرة يتلطف معهم في الأسلوب ، وتراه تارة يظهر شفقته بهم ، وتراه تارة يحذرهم من مغبة عصيانهم وعنادهم وإصرارهم على رفض دعوته ، وتارة يرغبهم فيما عند الله . ومع كل هذا وذاك يصبر على أذاهم وجهلهم وسخريتهم منه .

نماذج من دعوة نوح عليه السلام :

أولا : أسلوبه في التلطف معهم :

قال تعالى : ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ... ﴾ [الأعراف:٥٩] الآية .

قال أبو حيان : فيه استعطاف وتذكير بأنهم قومه فناداهم بإضافتهم إليه ؛ استمالة لهم نحو الحق ، فالمناسب أن لا يخالفوه[(١)] .

وقال سبحانه : ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء:١٠٦] فكلمة أخوهم تثير فيهم عاطفة الأخوة . ونصح الأخ لأخيه أنجع ، وكان الأليق أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق ، ولكن قومه لم يأبهوا بهذه الصلة و لم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم ألا تتقون[(٢)] .

ثانيا : أسلوبه في إظهار الشفقة عليهم :

قال الله تعالى : ﴿ ... إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:٥٩] وهذا من نصحه – عليه الصلاة والسلام – وشفقته عليهم حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء السرمدي كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم وهو مع هذا يتهم بالضلال فيرد عليهم ردا لطيفا ؛ لعلهم ينقادون له فيقول : ﴿ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ ﴾ [الأعراف:٦١] وإنما أنا هاد مهتد . بل إن هدايته من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين أعلى أنواع الهدايات وأتمها ولهذا

---

(١) البحر المحيط (٣٢٤/٤) ؛ روح المعاني (١٥٠/٨) ، ط دار إحياء التراث .

(٢) في ظلال القرآن (٢٦٠٧/٥) .

قال : ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٦١] أي : فربي وربكم ورب جميع الخلق بأنواع التربية الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلا فأمرهم بالأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والعقائد الحسنة ، ثم إن وظيفتي تبليغكم ببيان توحيده وأمره ونواهيه على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم[١] .

٥

ثالثا : أسلوبه في الترغيب والترهيب :

علمنا أن سيدنا نوحا – عليه السلام – دعاهم ليلا ونهارا ، سرا وجهارا . وكان طوال تلك المدة مرة يرغبهم وأخرى يحذرهم إن هم تمادوا في العصيان والتكذيب .

ولعل أصرح الآيات في ترغيبهم آيات صدر سورة نوح حيث قال سبحانه على لسانه : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [نوح:٢-٤] فهذه بشارة وترغيب لهم بمغفرة الذنوب وطول العمر .

١٠

قال ابن كثير : ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [نوح:٤] أي : يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه أوقعه بكم[٢] .

١٥

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ ﴾ [نوح:١١-١٢] أي : إذا تبتم واستغفرتم وأطعتموه كثر رزقكم وأسقاكم بعد جدبكم وأنبت لكم الزرع وأدر لكم الضرع ، وأعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم بساتين فيها الثمار المتنوعة وخللها بالأنهار الجارية ، وهذا هو مقام الدعوة بالترغيب[٣] .

٢٠

أما مقام الترهيب : فيأتي بعد الترغيب ، وهذا هو الأسلوب الأمثل في الدعوة ، وأصرح آيات في ذلك ما كان من قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:٥٩] أي : أخاف عليكم عذاب يوم القيامة إذا خالفتم أمري

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (٣/٤٥-٤٦) .

(٢) ابن كثير (٤/٤٥٢) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٤٥٣) .

ولقيتم الله وأنتم مشركون به[١] .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [نوح:١] .

أي : أنذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم[٢] .

وقال مقاتل : يعني الغرق بالطوفان[٣] .

وبعد هذا كله من تصح فيه الشفقة والترغيب والترهيب يرد عليها ويحاجهم فيما يأتون من شبهات[٤] ، ويدافع عن مبدئه بكل قوة بل إنه لم يستجب لأدنى مطالبهم حتى يؤمنوا على زعمهم ، وذلك بطرد من آمن به حتى يستطيعوا الجلوس معه بدون هؤلاء بل إنه يخاف عقاب الله لو فعل ذلك .

إذا فكان مبدؤه واضحا أمامهم لئلا يجدوا ثغرة ينفذون منها لتحقيق مآربهم ، وعندها أيسوا فلجأوا إلى التهديد والوعيد بالأذى وبالقتل إن استمر في دعوته قال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴾ [الشعراء:١١٦] قال ابن عباس : أي من المقتولين[٥] . عندها تحداهم نوح – عليه السلام – وأرشدهم إلى طريقة يفعلونها للتخلص منه إن قدروا ، فهو لا يخافهم ولا ترهبه تهديداتهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس:٧١] .

أي : إن كان ثقل عليكم لبثي فيكم وتذكيري وتخويفي لكم من عذاب الله فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم ، فأجمعوا ما تريدون مع شركائكم الذين تعبدونهم وليكن أمركم ظاهراً تتمكنون فيه مما تريدون ، فتوجهوا إليّ ولا تؤخروني

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤٥٣) ، ط دار المعرفة .

(٣) تفسير الرازي (٣٠/١٣٤) ، ط إحياء التراث .

(٤) ذكرت ذلك في الدروس المستفادة مفصلة .

(٥) تفسير القرطبي (١٣/١٢١) .

ساعة واحدة فإني لا أباليكم ولا أخافكم فأنا ماضٍ في طريقي لا أعتمد إلا على الله[١].

[إنه التحدي الصريح ، الذي لا يقوله القائل إلا وَهو مالِيء يديه من قوته ، واثق كل الوثوق من عُدّته ، حتى ليغري خصومه بنفسه ، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه ، فماذا كان وراء نوح من القوة والعدّة ؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعاً ؟

كان معه الإيمان .... القوة التي تتصاغر أمامها القوى ، وتتضاءل أمامها الكثرة ، ويعجزُ أمامها التدبير][٢] .

وقفة تأمل قبل نزول العذاب :

وقبيل النهاية المحتمة والغلبة الساحقة يستعجل قوم نوح العذاب ، ويطلبون من نبيهم إنزاله عليهم فقد جادلهم كثيراً ، فلم يعد هناك حلّ فائدة من إبلاغهم . فإن كان صادقاً في نبوته فليدع عليهم بالعذاب الذي يزعم أنه واقع بهم إن لم يصدقوه .

قال تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود:٣٢] .

إنه العجز يلبس ثوب القوة ، والضعف يرتدي رداء القوة ، والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود:٣٢] وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا فلسنا نصدقك ولسنا نبالي وعيدك ، فرد عليهم بأسلوب لا يخرجه تكذيبهم وعنادهم عن سمت النبي الكريم ، ولا يقعده عن بيان الحق لهم وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجهلوها في طلبهم من أن يأتيهم بما أوعدهم ، وردهم إلى هذه الحقيقة : وهي أنه ليس سوى رسول ، وليس عليه إلا الإبلاغ ؛ أما العذاب فمن أمر الله الذي يدبر الأمر كله فيعجل العذاب أو يؤجله فهو لا يملك أن يرد سنة الله أو يحولها في عذاب المجرمين[٣] .

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ [هود:٣٣] أي :

---

(١) انظر : (تفسير ابن كثير) (٢/٤٤٠،٤٤١) ؛ تفسير فتح القدير (٢/٦١) ؛ في ظلال القرآن (٣/١٨١١) .

(٢) في ظلال القرآن (٣/١٨١١) .

(٣) في ظلال القرآن (٤/١٨٧٥) .

بمانعين الله من إنزال العذاب بكم ، إذا شاءه أخره لحكمة يعلمها ولكن متى شاء وقوعه فلابد أن يقع[١] .

وبعد هذا أعلم الله نوحاً ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود:٣٦] وفي الكلام تيئيس له وأنهم مستمرون على كفرهم فلن يؤمن أحد إلا من قد سبق إيمانه ، ثم دعاه إلى عدم الحزن[٢] .

وكان من الممكن أن يستمر في دعوته لولا أن الله آيسه منهم ، وعندها أدرك أن لا خير يرجى منهم فقد توصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريقة : من فعال ومقال فدعا عليهم ؛ فغضب الله عليهم ولبى دعوته وأجاب طلبه قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات:٧٥] فألهم الله نوحاً أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر الخالص الذي عمّ وطمّ في زمانه ، وأحياناً لا يصلح أي علاج آخر غير الاستئصال الشامل والتطهير الكامل لوجه الأرض من الظالمين ؛ لأن وجودهم يجمد الدعوة نهائياً ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين وهي الحقيقة التي عبر عنها نوح وهو يطلب القضاء عليهم قضاءً كاملاً ، فهم يضلون عباد الله بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة العاتية أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين .

ثم إنهم يوجدون بيئة وجواً يولد فيه الكفار ، وتوحي بالكفر للناشئة بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون ، فلا يوجد فيه فرصة لترى الناشئة النور من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها وهي الحقيقة التي أشار إليها قول نوح – عليه السلام – وحكاها عنه القرآن ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧] فهم يطلقون في جو الجماعة أباطيل وأضاليل وينشؤن عادات وأوضاعاً ونظماً وتقاليد ينشأ معها المواليد فجاراً كفاراً كما قال نوح عليه السلام[٣] .

إذاً أسباب العقوبة باختصار نلخصها فيما يلي :

أولاً : الظلم كان أهم الأسباب في إهلاكهم ، قال تعالى في آخر قصة غرقهم

(١) تفسير الرازي (٢١٨/١٧) ؛ ابن كثير (٤٥٩/٢) ؛ المنار (٦٩/١٢) .
(٢) فتح القدير (٤٩٦/٢) .
(٣) في ظلال القرآن (٣٧١٧/٦) .

﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤] وفي سورة أخرى قال سبحانه : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:١٤] وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ [يونس:١٣] .

والواقع أن الله ذكر لنا أكثر من آية في القرآن الكريم تبين أن الظلم سبب مؤكد لهلاك الأمم وأن هذا الهلاك هو من مقتضيات ولوازم سنة الله في الظلم والظالمين[1] .

وأعظم الظلم : الشرك بالله تعالى كما قال سبحانه في وصية لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] وقوم نوح – عليه السلام – قد صرفوا العبادة لمعبوداتهم التي صنعوها وصوروها بأيديهم وجعلوا لها أسماء رجال صالحين قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح:٢٣] .

روى البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : « **صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ، أما (ودا) فكانت لكلب بدومة الجندل[2] ، وأما (سواعا[3]) فكانت لهذيل ، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف[4] عند سبأ ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان[5] ، وأما (نسرا) فكانت بحمير[6] لآل ذي كلاع. وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح – عليه السلام – فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت** »[7] .

ثانيا : إقامة الحجة عليهم .

ما كان الله ليعذب قوما حتى يقيم الحجة عليهم فمن سنة الله – تعالى – في عباده أن لا يعذب أحدا منهم إلا إذا ذكرهم وأنذرهم . ومن أنذر فقد أعذر ؛ فإذا نسوا ما ذكروا به أهلكهم بغتة وبدون تقدم إعلام ولا إنذار قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:٨] وقوله : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٨] وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ

---

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ، د/ عبد الكريم زيدان ص"١٢١" .

(٢) دومة الجندل : مدينة من الشام مما يلي العراق . انظر : معجم البلدان (٥٥٤/٢) برقم (٤٩٣٣) .

(٣) سواع : كان صنما بمكان لهذيل يقال له : رهاط بينبع من أرض الحجاز من جهة الساحل . انظر : معجم البلدان (٣١٤/٣) برقم (٦٧٢٧) .

(٤) الجرف : عند سبأ باليمن . انظر : معجم البلدان (١٤٩/٢) برقم (٣٠٥٣) .

(٥) همدان : بلاد همدان باليمن . انظر : معجم البلدان (٤٧١/٥) برقم (١٢٧٤٥) .

(٦) حمير : مدينة باليمن غربي صنعاء . معجم البلدان (٣٥٢/٢) .

(٧) رواه البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة نوح ، باب ودا ، سواعا (٤٥٥/٤) .

أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [القصص:٥٩]... بل لابد وأن يرسل إليهم داعيا يدعوهم إليه ويوضح لهم طريق الهداية ويبعدهم عن الغواية ، وفي ذلك إقامة الحجة عليهم وقطع لما قد يعتذرون به ؛ فلا أحد أحب إليه العذر من الله – تعالى – ، فإذا أعرضوا أو نسوا ما ذكروا به جاءهم الله بنقمته[١] كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥] أي : فتحنا عليهم أبواب الأرزاق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه – تعالى – وإملاء لهم – عياذا بالله من كل مكروه – ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ ﴾ أي : من الأموال والأولاد والأرزاق أخذهم على غفلة وغرة منهم ، فإذا هم آيسون من كل خير[٢] .

---

(١) انظر : (أسباب هلاك الأمم ، وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين) ، الشيخ عبد الله التليدي ، دار البشائر الإسلامية . ص"٢٦" .

(٢) تفسير ابن كثير (١٣٧/٢) .

المطلب الثالث - نوع العقوبة :

وفيه تمهيد يشتمل على عدة أمور :

أولا : الأمر الإلهي بصنع السفينة .

ثانيا : محاولة أخيرة لنوح في الدعوة .

ثالثا : عظم هول العقوبة .

رابعا : نداء ومناجاة .

خامسا : توبة نوح ونجاته .

إن الله - تعالى - لا مكره له ولا معقب لحكمه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١] .

إذا فعل أمرا فلحكمة بالغة ، وإذا عاقب فلمصلحة راشدة ، غالب لا يقهر ، عزيز لا يذل ، قوي لا يخاف ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:١٥] أي : لا يخاف من أحد تبعة[1] .

دمر قوم نوح بالغرق ونجاه ، وصارعتهم أمواج الطوفان فقهرتهم وقواه، وأشرفوا فإذا الموت يحيط بهم من كل مكان ، وأشرف هو على ظهر السفينة فإذا الحياة تحيط به من كل مكان ﴿هَلْ يَسْتَوِيَٰنِ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٥] .

وإليك ملخصا لرحلته مع النجاة ومع ما حصل فيها من مشاهدات وأحوال وأهوال .

أولا : الأمر الإلهي بصنع السفينة .

أخبر الله نوحا بأن هلاك قومه سيكون بالغرق ، وأمره أن يصنع سفينة ليركبها ، والمؤمنون للنجاة . قال تعالى : ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧] أي ولا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم[2] .

وامتثل نوح لأمر ربه وبدأ بصنع السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٧] أي :

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٤٦١) ، تحقيق أحمد شاكر ؛ تفسير القرطبي ٧٩/٢٠ ؛ تفسير ابن كثير (٤/٥٥٣) .

(٢) تفسير القرطبي (٩/٣٠) .

بعلم الله وتعليمه بغرس الشجر ، والنظر حتى كبر قطعه ، وبدأ نجارته والملأ يمرون عليه ويسخرون منه لصناعته السفينة في غير مكانها بزعمهم ، فيرد عليهم رد الواثق العارف بأمر الله يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة أنه يبادلهم بسخرية ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود:٣٨] لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود:٣٩] أنحن أم أنتم يوم ينكشف المستور عن المحذور[١] .

وصنع نوح السفينة عظيمة الطول والارتفاع والمتانة . وقد اختلف المفسرون في مقدار حجمها ، وهيئتها ، وعدد طبقاتها ، ومدة جريانها على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء كما قال ذلك الفخر في تفسيره : « اعلم أن هذه المباحث لا تعجبني ؛ لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا »[٢].

وركب نوح – عليه السلام – السفينة بعد أن رأى العلامة التي أعلمه الله بها ، وحمل معه من كل زوجين اثنين . فما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء وأهله من استحق عذاب الله . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود:٤٠] .

وسارت السفينة . باسم الله مجراها ومرساها . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣] [هود:٤١] .

ثانيا : محاولة أخيرة لنوح في الدعوة .

قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:٤٢-٤٣] .

الأب ينادي ابنه فيأبى عليه في أحلك الظروف وأصعبها ، يناديه لظنه – عليه

---

(١) في ظلال القرآن (١٨٧٧/٤) .

(٢) تفسير الفخر الرازي (٢٢٤/١٧) .

(٣) في ظلال القرآن (١٨٧٧/٤، ١٨٧٨) .

السلام - أنه مؤمن و لم يكن يعلم أنه غير ذلك حتى أخبره الله أنه كافر .

دعاه ليركب مع المؤمنين لينجو من الغرق لظنه الظن الحسن به ، ولكن سرعان ما عصى الابن أباه وقال له في جفاء ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٤٣] . فسارعت عاطفة الأبوة لتقول له ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود:٤٣] أي : ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله .

فإن قيل : لم نادى ابنه مع أنه كان كافرا وقد دعا الله عليهم بقوله : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦] .

فالجواب عن ذلك من وجوه :

الأول : أنه كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن .

الثاني : أنه كان يعلم أنه كافر ، لكنه ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فإنه يقبل على الإيمان .

الثالث : أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء ، والذي تقدم من قوله : ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود:٤٠] كان كالمجمل ، فلعله - عليه السلام - جوز أن لا يكون داخلا فيه[1] .

وبعد هذا النداء الأبوي الرحيم الذي لم يأبه به الابن وظن أن ما يجري عوارض طبيعية عادية سرعان ما تنقشع ، ولكن أنى له ذلك؟ ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:٤٣] .

ثالثا : عظم هول العقوبة .

يصور القرآن الكريم عظم هول العقوبة أو المشهد الهائل المرهوب في هذه الآيات ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر:١١-١٢] . وقوله سبحانه : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ

(١) تفسير الرازي (١٧/٢٣١) ؛ تفسير أبي السعود (٤/٢١٠) .
ومثله تفسير المحرر الوجيز (٧/١٠٣) .

لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ [هود:٤٢-٤٣] .

فهذه الآيات تصف الطوفان كأنه رأي عين ؛ حيث تفتحت السماء بماء منهمر غزير ، وتفجرت المياه من فتحات الأرض بكميات لم تر الأرض مثلها من قبل ، وأخذ منسوب الماء في الارتفاع رويدا رويدا ، والناس يظنون أن ذلك سيزول بعد قليل ، وتنقشع السماء ، ولكن هيهات! لقد كان أكثر مما كان متوقعا ؛ فقد فقدت البحار هدوءها لتغمر اليابسة ، وتغرق كل من عليها دون تفريق بين كبير أو صغير ، وغرق كل من عليها إلا تلك السفينة الزاخرة وسط أمواج تتلاطم وتشتد في ارتفاعها وهبوطها ، وتفتح بين طياتها للكافرين المعاندين قبورا وتراهم يقاومون الموت وهو يصرعهم ويغالبون الموج فيطويهم ويهلكهم[1] .

واستمر الطوفان حتى هلكت كل عين تطرف على الأرض ، ومن الصعب اليوم أن نتصور هول الطوفان أو عظمته ، لقد كان شيئا مروعا يدل على قدرة الخالق ، والسفينة تجري بالمؤمنين في موج كالجبال حتى قضى الله أمره كما قال سبحانه : ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ [هود:٤٤] أي : أحكم وفرغ منه بهلاك القوم الظالمين على تمام وإحكام . واستقرت السفينة بعد ذلك راسية على الجودي[2] ، وقيل : بعدا وهلاكا وسحقا للقوم الظالمين من رحمة الله تعالى .

رابعا : نداء ومناجاة .

قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

---

(١) انظر كتاب : الأنبياء في القرآن ، سعيد صادق محمد ص"٧٦" ، دار اللواء .

(٢) الجودي : قيل : جبل بالعراق قرب الموصل . وقيل : إن الجودي : اسم لكل جبل ، ومنه قول الشاعر : **سبحانه ثم سبحانا يعود له وقبلنا سبح الجودي والجمد**

البيت لأمية بن الصلت ، انظر : ديوانه ص"٣٧٦" ، ط الثانية ، جمع ودراسة د/ عبدالحفيظ السطلي .

تفسير القرطبي (٩/٤٠-٤٢) .

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود:٤٥-٤٧] .

كما قلنا من قبل : إن قلوب الأنبياء الرحيمة لا تكف عن الشفقة والرحمة على أقوامهم حتى يؤمنوا ويوحدوا الله شفقة بهم وخوفا عليهم من عذاب الله ، حتى إن المؤمن البعيد الصلة يصير أقرب وشيجة من الابن القريب الكافر .

وقد حصل هذا الأمر بعينه لنوح – عليه السلام – فثارت شفقته على ابنه قبل الغرق ، فسأل ربه ضارعا أن ينجي ابنه ؛ لأنه من أهله الذين وعد الله بنجاتهم في ظنه ، والله لا يخلف الميعاد .

وهذا الدعاء ليس من باب الاعتراض على الله فحاشا لنبي مثل نوح أن يعترض على الله ؛ إنما هو سؤال استعلام وكشف من نوح – عليه السلام – عن حال ولده الذي غرق ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ﴾ [هود:٤٥] أي : وقد وعدتني بنجاة أهلي ، ووعدك الحق الذي لا يخلف ، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ؟ ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ ﴾ [هود:٤٦] أي : ليس من الذين وعدت بنجاتهم ، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال : ﴿ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ ﴾ [هود:٤٠] فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره[١] .

أما امرأته فلم تذكر في هذا السياق ؛ لأن كفرها كان معلوما من أول الأمر لنوح – عليه السلام – فمثلها مثل قومها الكافرين المذكورين على جهة العموم .

ثم عاتب الله نوحا ونهاه أن يطلب طلبا إلا إذا كان على يقين أنه حق وصواب[٢] ؛ لأن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه . ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله : (إنه ليس من أهلك)[٣] ولأن الكفر يقطع الولاية بين المؤمنين

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٦١) .

(٢) تفسير القرآن (٢/٤٣٣) ، لأبي المظفر السمعاني (منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي) ، ط دار الوطن ؛ تفسير البيضاوي (١/٤٥٨) المسمى " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " لمؤلفه ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي .

(٣) تفسير الرازي (١٨/٣،٢) .

والكافرين من الأقربين ، ويوجب براءة بعضهم من بعض[١]. العلة ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦] .

قال القرطبي : وهذا النهي فيه عتاب من الله لنبيه نوح بكل رفق وتلطف وكأنه يقول له : إن مقامك عظيم ، فشأنك أن لا تسأل مثل هذا السؤال الذي لا تعلم عاقبته ومآله وهل يكون خيرا أو شرا ، وإني أعظك وعظا تكون به من الكاملين وتنجو به من صفات الجاهلين . قال ابن العربي حول هذا المعنى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ويعليه إلى مقام العلماء والعارفين[٢] .

خامسا : توبة نوح ونجاته .

ندم نوح – عليه السلام – على ما صدر منه واعترف بذنبه حين قال : ﴿ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود:٤٧] .

وهذا هو الإعلان الحقيقي للتوبة ؛ لأن التوبة تقوم بأمرين كما في الآية :

الأول : في المستقبل ، وهو العزم على الترك . وإليه أشار بقوله : ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود:٤٧] .

الثاني : في الماضي ، وهو الندم على ما صدر منه . وإليه أشار بقوله : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٣] [هود:٤٧] .

ويلاحظ أيضا أنه بدأ اعتذاره بالاستعاذة بالله مبالغة في التوبة وإظهارا للرغبة فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى ، وهذا أبلغ من أن يقول : أتوب إليك أن أسألك ؛ لما فيه من الدلالة على كون ذلك الأمر هائلا محذورا لا محيص منه إلا بالاستجارة بالله تعالى[٤] .

ثم ختم اعتذاره برجائه لله أن يقبل هذا الاعتذار والأسف ، وإلا سيكون من الذين

---

(١) تفسير المنار (٨٤/١٢) .

(٢) تفسير القرطبي (٤٨/٩) .

(٣) تفسير الرازي (٥/١٨) .

(٤) انظر : (القصص في القرآن بين الآباء والأبناء) ، عماد زهر حافظ، ط دار القلم دمشق ص"٣٢" .

خسروا أعمالهم[1] ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود:٤٨] .

بعد قبول توبة نوح كانت خاتمة المطاف : النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من ذريته ، والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم العذاب الأليم . والسلام المذكور في الآية ليس خاصا بنوح والمؤمنين معه ؛ بل لكل مؤمن صادق الإيمان إلى يوم القيامة .

يقول محمد القرظي[2] : دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى قيام الساعة ، وأما الوعيد والتهديد بالعذاب الأليم فإنه خاص بمن يريدون متاع الحياة الدنيا دون الآخرة[3] .

(١) نفس المصدر نقلا عن تفسير أبي السعود (٢١٣/٤) .

(٢) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد أبوحمزة القرظي المدني ، ثقة عالم ، من الثالثة ، ولد سنة أربعين على الصحيح ، روى له الجماعة . انظر : التقريب ص"٥٠٤" .

(٣) تفسير ابن كثير (٤٦٤/٢) ؛ في ظلال القرآن الكريم (١٨٨٠/٤) .

المطلب الرابع – الدروس المستفادة من عقوبة قوم نوح – عليه السلام .

وفيه :

١ – درس في الدعوة إلى الله تعالى .

٢ – درس في قوة العزيمة .

٣ – درس في الولاء والبراء حتى من الأقرباء .

٤ – درس في حقائق القرآن العلمية من قصة نوح .

١ – درس في الدعوة إلى الله تعالى :

أ – على الداعية إلى الله أن يتحلى بعدد من الصفات ؛ لتحصل الفائدة المرجوة من دعوته . وهذه الصفات ذكرها القرآن الكريم وحثت عليها السنة المطهرة :

الصفة الأولى – الإخلاص :

وهو أن يقصد الداعية بعمله وجه الله – تعالى – والدار الآخرة ابتغاء مرضاته ومثوبته[1] قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥] وقوله سبحانه : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف:١١٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وقال ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى** »[2] الحديث. وقوله ﷺ : « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** »[3] .

فهذه الآيات والأحاديث تدل على أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصا لوجه الله . ومعلوم أن ركني العمل المتقبل هما[4] :

---

(١) أخذا من قوله ﷺ : « **إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه** » بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي رواه النسائي ، كتاب الجهاد ، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر (٣٣٢،٣٣٢/٦) ، ط دار المعرفة .

قال عنه ابن حجر : إسناده جيد . فتح الباري (٣٤/٦) ، ط الكتب العلمية – دار الباز .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله ١٣/١ ، برقم [١] .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٣٠٩/٢) ، برقم [٢٨١٠] .

وصحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، برقم [١٩٠٤] .

(٤) تفسير ابن كثير (١١٤/٣) .

أولا : أن يكون خالصا لله .

ثانيا : أن يكون صوابا على شريعة رسول الله ﷺ .

وقال الإمام النووي في هذا المعنى : « بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة »[(١)] .

فما أحوج الداعي إلى الله - تعالى - إلى الإخلاص لتخرج الثمرة يانعة طيبة مباركة تعود عليه بالأجر الجزيل والثواب العظيم ، وعلى الأفراد والجماعات بالخير والثواب الجزيل ، لأن الرياء يحبط العمل ، فكأنه لم يعمل . وعليه أن يبتعد عن الشهرة وحب المنصب والظهور ، لأنها حبل موصل للسمعة والرياء .

الصفة الثانية – التقوى :

وهي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ومعاصيه .

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩] وقوله سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١] .

وهي وصية الله للأولين والآخرين حيث قال سبحانه :﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١٣١] .

وغيرها من الآيات التي تحث على التقوى .

وقوله ﷺ **حينما سئل : من أكرم الناس ؟ قال :** « **أتقاهم** »[(٢)] .

وقوله : « **اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم** »[(٣)] .

وغيرها من الأحاديث التي تحث على التقوى فإذا أراد الدعاة إلى الله أن يقبل عملهم فليحرصوا على تقوى الله في كل شيء وفي جميع الأقوال والأعمال ؛ ليكون

---

(١) شرح الإمام النووي على مسلم ٤٩/١٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات:١٣] (٥٠٢/٢) ، برقم [٣٤٩٠] .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الهبة ، باب الاشهاد في الهبة (٢٣٣/٢) ، برقم [٢٥٨٧] .

عملهم مثمرا بإذن الله .

الصفة الثالثة – العلم :

لأن فاقد الشيء لا يعطيه والعلم سلاح الداعية الذي يمكنه – بإذن الله – من إفادة الآخرين ويقنع به المجادلين والحائرين .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩] وقوله سبحانه : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١] .

والآيات في الحث على العلم كثيرة .

وأما الأحاديث فكثيرة جدا ، نأخذ منها :

قوله ﷺ : « **من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين** »[1] .

وقوله ﷺ : « **ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة** »[2] .

إذا فعلى الداعية أن يحرص على تعلم العلم النافع الموصل لنفع نفسه ونفع غيره المستقى من كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وسيرة السلف الصالح من هذه الأمة ، وليتسلحوا بسلاح العقيدة الصحيحة الصافية ، ثم دراسة كتب الفقه والدعوة وغيرها ؛ حتى يستطيع الداعية الرد على شبه الحاقدين والمغرضين .

الصفة الرابعة – الصبر[3] :

الصبر أهم ما يتحلى به الداعية في كل حال من أحواله سواء كان في حال الرضى والغضب أو في حال العسر واليسر ، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فعلى

---

(١) رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ٤٢/١ ، برقم[٧١] . ورواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة (٧١٨/٢،٧١٩) ، وفي كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق (١٥٢٤/٣) ، برقم[١٧٥] .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم وعلى الذكر (٢٠٧٤/٤) .

(٣) الصبر لغة : الحبس ، وفي الاصطلاح : حبس النفس عن المكروه وعقد اللسان عن الشكوى والمكايدة في تحمله وانتظار الفرج . انظر : فتح الباري (٣٦٦/١١) ، ط دار الباز ، وانظر : النووي على مسلم (٢٠٨/٣) .

الداعية أن يوطن نفسه على تحمل ما يلاقيه من الأذى بأنواعه ، وليعلم أن المؤمن مبتلى ؛ ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين .

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:١٥٣] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥] .

وقوله ﷺ : « **يرحم الله موسى ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر** »[١] .

وقوله ﷺ : « **من رأي من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية** »[٢] .

والآيات والأحاديث التي تحث على الصبر كثيرة . ومعلوم أن طريق الصبر شاق وطويل ، حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء ، وبالإيذاء والابتلاء .

والصبر كما يقول ابن حجر[٣] على ثلاثة أقسام :

أ – صبر عن المعصية فلا يرتكبها .

ب – صبر على الطاعة على يؤديها .

جـ – صبر على البلية فلا يشكوا ربه فيها .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب فرض الخمس ، باب ما كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس (٤٠٤/٢) ، برقم [٣١٥٠] . صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة أو من يخاف على إيمانه (٧٣٩/٢) ، برقم [١٤٠] .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : « **سترون بعدي أمورا تنكرونها** » (٣١٣/٤)، برقم [٧٠٥٤] .

(٣) فتح الباري (٣٦٩/١١) . وانظر : الفردوس في بمأثور الخطاب (٤١٦/٢) . وانظر : تفسير القرطبي (١٧٤/٢) .

الصفة الخامسة – الشفقة والرحمة :

الشفقة والرحمة على أحوال الناس وحب الخير لهم بأن يسلكوا سبيل السعادة وأن يبتعدوا عن سبيل الشقاء ، والرحمة والعفو من أخلاق الأنبياء وأتباعهم .

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

وقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨] .

وقال ﷺ حينما قبل الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : « **من لا يرحم لا يرحم** »(١) .

وقوله ﷺ في الرجل الذي بال في المسجد : « **دعوه وأريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين** »(٢).

وهكذا يكون الداعية ، يجعل هذه النماذج أمام عينيه ؛ ليكون محبوبا من الله ثم من الناس . والداعية المحبوب يؤثر بكلامه وحركاته وسكناته أكثر من غيره . وكم من داعية لا يعدو كلامه نفسه ؛ لأن روح الدعوة مفقودة عنده .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب رحمته ﷺ وتواضعه (١٨٠٨/٤-١٨٠٩) ، برقم[٢٣١٨] .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الوضوء ، باب صب الماء على البول في المسجد ٩١/١ ، برقم [٢٢٠] .

الصفة السادسة – الصدق :

ونقصد بالصدق هنا : الصدق مع الله في الدعوة إليه .

وإذا كان كذلك فمعناه الصدق النابع من القلب في تبليغ دعوة الله للناس ؛ فالصدق طمأنينة والكذب ريبة ، بل هو من علامات النفاق .

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ [النحل:١٠٥] .

وقوله ﷺ : « **إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا** »[1] .

الصفة السابعة – التواضع :

ونعني به التواضع في غير ضعف والقوة في غير عنف ، والتواضع ضد الكبر ، والداعية المتواضع ينأى بنفسه عن الكبر ، ويوطد نفسه على إيصال دعوته بكل لين وخفض جناح ، وقد أمر الله رسوله ﷺ بخفض جناحه لأولئك الذين يستجيبون لدعوته كما يخفض الطائر جناحيه حين يهم بالهبوط ، قال سبحانه : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨] .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥] .

وقوله ﷺ : « **إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد** »[2] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] (٤/١٠٩) ، برقم [٦٠٩٤] . ورواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب قبح الكذب وحسن الصدق (٤/٢٠١٢) ، برقم [٢٦٠٧] .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/٢١٩٩) ، برقم [٢٨٦٥] الحديث الرابع .

والداعي إذا تواضع أحبه الصغير والكبير والطائع والعاصي ، واستفاد منه الخلق أكثر من صاحب العلم المترفع بعلمه .

والأمة المسلمة إذا وجد فيها التواضع عطف الغني فيها على الفقير ، والكبير على الصغير ، وذل القوي للضعيف . فلا تفاخر ، ولا تعالي ، ولا تعاظم ، ولا ظلم .

الصفة الثامنة – اقتضاء القول العمل :

الداعي إلى الخير يجب أن يكون قوله موافقا لفعله ، لأن النفوس مجبولة على عدم الاستفادة ممن لا يوافق قوله عمله .

قال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٤٤] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود:٨٨] .

وقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢-٣] .

وقوله ﷺ : « **يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا[1] فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، مالك ! ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه** »[2] .

وقال مالك بن دينار : « العالم الذي لا يعمل بعلمه بمنزلة الصفاة إذا وقع عليه القطر زلق عنه »[3] .

قال ابن القيم : « علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس : هلموا ، قالت أفعالهم : لا تسمعوا لهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له ، فهم في الصورة

---

(١) الرحا : التي يطحن بها . النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/٢١١) ، ط ٢ ، دار الفكر ١٣٩٩ هـ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٢/٤٣٦) ، برقم [٣٢٦٧] . مختصر صحيح مسلم للمنذري"٣٣٥" ، برقم [١٢٣٨] .

(٣) اقتضاء العلم العمل : لأبي بكر : أحمد بن علي بن ثابت ، المعروف بالخطيب البغدادي ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط المكتب الإسلامي .

أدلاء ، وفي الحقيقة قطاع طرق »[1] .

وقال الشاعر :

يـا أيـها الرجـل المعلـم غـيره	هـلا لنفسـك كـان ذا التعليـم
تصف الدواء لذي السقام من الضنى	ومـن الضنـى تمسي وأنـت سـقيم
لا تنـه عـن خلـق وتـأتي مثلـه	عـار عليـك إذا فعلـت عظيـم
ابـدأ بنفسـك فانهـها عـن غيـها	فإذا انتهت عنه فـأنت حكيـم
فـهناك يقبـل مـا تقـول ويقتـدى	بـالقول منك وينفـع التعليـم[2]

فالحذر الحذر من فعل المنكر أو التساهل فيه وخاصة للداعية ؛ لأن كثيرا من النـاس يبيحون لأنفسهم أن يرتكبوا المخالفات لمجرد أن رأوا رجلا موثوقا يفعلها[3] .

الصفة التاسعة – مخالطة الناس ومعاشرتهم بالحسنى :

وهذه الصفة تأتي نتيجـة للتواضـع ؛ حيـث نعـني بالمخالطـة عـدم العزلـة ؛ فـالدين الإسلامي ليس دين رهبانية في صومعة أو كنيسة ؛ بل دين يحب المسـلم فيـه للمسـلمين ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه من الشر والرذيلة ، بمعنى أن يكون حركيا في دعوته : يعود المريض ، ويواسي المنكوب ، ويساعد المحتاج ، ويصلح ذات البين .... والـذي يخـالط النـاس ويصبر علـى أذاهـم خـير وأحـب إلى الله مـن الـذي لا يخالطـهم ولا يصبر على أذاهم[4] .

والداعية الحق هو الذي يبذل من ماء وجهه لله ولدينه ، فـإن كـانت الدعـوة لقـوم عصاة أو فسقة أو مجرمين فإنه يأتيهم من الباب الذي يحبونـه تدريجيـا ، وإن احتـاج إلى

---

(١) الفوائد ، ابن القيم الجوزية ص"٦١" ، ط دار مصر للطباعة .

(٢) مدارج السالكين ، لابن القيـم الجوزيـة (٤٤٧/١) ، تحقيـق محمـد حـامد الفقـي ، ط دار الكتـاب العربي ، بيروت ١٣٩٢هـ .
والأبيات أصلا لأبي الأسود الدؤلي . انظر : (شـذور الذهـب) ، فـهرس الشـعر ، قافيـة الميـم لابـن هشـام النحـوي واسمـه (عبـد الله جمـال الديـن بـن يوسـف بـن أحمـد) ص"٢٣٨" ؛ أدب الدنيـا والدين/الماوردي (أبي الحسن : علي بن محمد بن حبيب البصري) ص"٤٢" ، ط دار ابن كثير .

(٣) مـن صفـات الداعيـة ، محمـد لطفـي الصبـاغ ص"٧٠" ، ط ٣ ، المكتـب الإسـلامي ١٤٠٠هــ ، دمشق .

(٤) انظر : (أساليب الدعوة ووسائل تبليغها بالتفصيل) في كتاب أصول الدعوة ، د/ عبد الكريم زيدان ص"٤١٣،٤٧٠" .

الجلوس معهم فعل دون الرضى بما هم عليه ، وإن احتاج إلى اللعب معهم فعل مع أخذ الحيطة من مشتبهات الأمور والأمكنة ؛ حتى يجذبهم إلى سماحة هذا الدين وفضله فإنهم هم أنفسهم سيبتعدون عن اقتراف المعاصي وسيدافعون هم أنفسهم عن مبادئ هذا الدين وحدوده ، قال ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا** »(١) ، وقوله ﷺ : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** »(١) .

ب – ومن الدروس المستفادة في الدعوة إلى الله :

أن الدعوة إلى الله – تعالى – لا تختص بأحد دون أحد لقوله سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥] .

فهي تشمل كل أحد من الناس وعلى الداعي أن يتبع الأسلوب الأمثل في إيصال الدعوة للمدعو بأحسن مقال وأطيب فعال من تلطف مع المدعو ، وإظهار شفقته عليه وترغيبه فيما عند الله وترهيبه من عذاب الله كما عرفنا ذلك من قبل من فعل سيدنا نوح – عليه السلام – وأمر الله لنبيه محمد ﷺ بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام:٩٠] وقال سبحانه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥] وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ ﴾ [العنكبوت:٤٦] .

جميع هذه الآيات تدعو إلى اللين والحكمة والموعظة الحسنة ، وحتى جدال الكفار بالحسنى ؛ ليتعرفوا على مزايا هذا الدين العظيم الذي لا يفرق بين رئيس ولا مرؤوس إلا بالتقوى والعمل الصالح . ومع أن آية ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل:١٢٥] مكية ، وفي وقت لا يزال الرسول فيه في أول الدعوة إلا أنه يدعوه إلى مهادنتهم والتلطف معهم دون مخاشنة أو تعنيف ، وهذا هو الأسلوب الأمثل في الوعظ والإرشاد . فينبغي . للداعية أن يكون كالطبيب الحاذق الحكيم الذي يشخص المرض ويعرف الداء ويحدده ، ثم يعطي الدواء المناسب على

رواه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (١٩٩٩/٣-٢٠٠٠) ، برقم [٢٥٨٦] .

حسب المريض ومرضه مراعيا في ذلك قوة المريض وضعفه ، وقد يحتاج إلى عملية جراحية لشق بطنه ، أو يقطع شيئا من أعضائه من أجل استئصال المرض طلبا لصحة المريض[١] .

ثم إن التلطف مع المدعو في القول لا يعني المداهنة ولا النفاق ولا إخفاء للحق ولا تحسينا للباطل أو الرضا بما عليه المدعو من المخالفة بشرع الله ؛ وإنما هو من الخلق الحسن ، ومن باب التشويق للمدعو لقبول الحق[٢] .

يقول سيد قطب : « فالناس في حاجة إلى كنف رحيم ، وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضيق بجهدهم وضعفهم ونقصهم ، في حاجة إلى قلب كبير ، يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه ، ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية ، والعطف والسماحة ، والود والرضا ، وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ »[٣] .

ومن الدروس أنه :

جـ – ينبغي للداعي إلى الله – تعالى – أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويحذر من التنطع والتكلف في النطق ؛ لأن فعل ذلك يفقد الموعظة هيبتها ولذتها عند المستمعين أو المشاهدين ، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **هلك المتنطعون ، قالها ثلاثا** »[٤] .

إن الداعية الحاذق يعرف أن الناس تتفاوت عقولهم ومداركهم ، فينبغي معالجة ذلك حسب فهم كل منهم .

إنك ترى موضوعا معينا يتطرق له دعاة كثيرون فترى البون الشاسع في حديث كل منهم ، ترى لحديث بعضهم أثرا في النفوس وصدى في القلوب تود أن يطول الحديث ، والبعض الآخر تود أن يسكت من أول وهلة ؛ بل إن بعض المستمعين يتحرك

---

(١) أصول الدعوة ، د/ عبد الكريم زيدان ص"٣٦٥،٣٩٤" ، مؤسسة الرسالة .

(٢) نفس المصدر ص"٤٧٣" .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (١/٥٠٠-٥٠١) .

(٤) رواه مسلم ، كتاب العلم ، باب هلك المتنطعون (٤/٢٠٥٥) ، برقم [٢٦٧٠] .

والمتنطعون : المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم .

أو يحدث من بجانبه أو يقوم من المجلس ؛ لأن كلامه ممل وحديثه طويل ليس له أثر ولا وزن .

إذا فإن من أول ما يجب على الداعية مراعاته في مخاطبة الناس كل قوم بما يعقلون ويفهمون حتى تستوعب عقولهم ما يقوله لهم .

قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى:١] أي : ذكر حيث تنفع التذكرة ، ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ؛ فلا يضعه عند غير أهله كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » . وقال : « **حدث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله** »[١] .

وروى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة »[٢] .

وقال أيوب السختياني : « لا تحدثوا الناس بما لا يعلمون فتضروهم »[٣].

وقال وهب بن منبه : « ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق يعمل لكل قوم ما يشتهون من الطعام »[٤] .

لذا فإنه يجب على الدعاة أن يحدثوا الناس بما يفهمون ، هذا وأحسن ما يدعى به كبار السن الموعظة بأمور الآخرة وما يقربهم من خالقهم ، وأحسن ما يدعى به الشباب هو الدعوة إلى تعلم العلم من أصوله ، وأحسن ما يدعى به الأطفال المميزون تعلم تلاوة القرآن وتجويده من الأقل إلى الأكثر وهكذا .

د – اختيار الوقت المناسب :

من الأمور المساعدة لتقبل الدعوة مراعاة الظروف والأحوال البيئية للمدعو ، فقد يصلح لبعضهم دعوته سرا ، وقد يصلح لآخر دعوته جهرا بدون تشهير ، وقد لا يصلح ذلك إلا بطريق التلميح والإشارة لبعض المخالفات من خلال دعوة عامة (في مسجد

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٣٤/٤) .

(٢) رواه مسلم ، المقدمة ، باب عن الحديث بكل ما سمع (١١/١) ، برقم [٥] .

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للخطيب البغدادي (١٠٩/٢) ، ت ٤٦٣ .

(٤) نفس المصدر (١١٠/٢) .

أو مجلس أسري ونحوه) ثم إن تحديد الوقت المناسب لا يكون باختيار الداعي ؛ وإنما بمراعاة أحب الأوقات عند المدعو ، وأن لا يثقل عليه أو عليهم ؛ مخافة السآمة لحديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : « **كان النبي ﷺ يتخول بالموعظة في الأيام ؛ كراهة السآمة علينا** »(١) .

وكان ابن مسعود يطبق هذا فيتخول الناس بالموعظة ؛ فقد أخرج البخاري - رحمه الله - عن أبي وائل قال : « كان ابن مسعود يذكر الناس في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم! قال ابن مسعود : أما إنه يمنعني من ذلك أن أملكم ، وإني أتخولكم بالموعظة **كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها ؛ مخافة السآمة علينا** »(٢).

قلت : إذا اجتمعت هذه الأمور فقمن أن يستجاب للداعي إن شاء الله تعالى .

هـ - على الداعي أن يرغب في الاستجابة لله ولرسوله ، ويخبر بما أخبر الله به - سبحانه - في كتابه عما أعده للطائعين ، ويحذر ويخوف من عذاب الله الذي أعده للعاصين ، ولكن بأسلوب فيه الرقة عند الحديث عن أهل الجنة ، ويتسم بالخوف عند الحديث عن أهل النار ، كما ذكرنا عن سيدنا نوح - عليه السلام - حين رغب قومه في الاستجابة لدعوته ليغفر الله لهم ويمتعهم بنعمه الكثيرة في الدنيا ، كما حذرهم من عقاب الله الذي سيحل بهم إن هم أعرضوا وعصوا ، قال الله سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ

---

(١) رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا ، (٤٢/١) ، برقم [٦٨] .

(٢) رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب من جعل لأهل العلم أياما معلومة (٤٢/١) ، برقم [٧٠] .

ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصف:١٠-١٣] .

ومن آيات الترهيب والتحذير من عذاب الله قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦] .

ومن الآيات التي جمعت بين الترغيب والترهيب قوله سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء:١٣-١٤] .

من كل هذه المسالك من ترغيب وترهيب ، يستطيع الداعية أن يميز حالة المدعو من تقبل وعدمه . فإن تقبل فقد حصل المقصود ، وإن كانت الأخرى فليعلم أن المنهج الذي يسير فيه فيه خلل يحتاج إلى إصلاح أو الانتقال إلى أسلوب آخر وهكذا حتى يحصل المقصود من الدعوة ، ولا ييأس! فقد صبر سيدنا نوح ألف سنة إلا خمسين عاما .

و – من لوازم الترغيب والترهيب التي ينبغي للداعية أن يعيها مسألة الدنيا التي يعيش فيها الإنسان ، ولابد وأن يشاهدها ويحس بها ويتعرض لإغرائها مما قد يجره إلى الركون إليها والتعلق بها ونسيان الحياة الباقية وهي الآخرة .

لذا فإنه ينبغي له أن ينفر منها بالقدر الذي يجعل المدعو يوازن بين الحياتين ؛ فلا ينسى الآخرة كليا ولا يترك العمل في الدنيا ، وإنما ينفره منها لتكون وسيلة إلى الدار الحقيقية ، ثم يكشف للمدعو حقيقة الدنيا كما صورها القرآن ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس:٢٤] .

وقوله سبحانه : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ

بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾[1] [الحديد:٢٠] .

ز – على الداعية إلى الله – تعالى – أن لا يستعجل الثمرة من دعوته ؛ بل يستمر في ذلك ليلا ونهارا سرا وجهارا ، ولا يدع لليأس مجالا يتسلل إلى نفسه . ومن يدرس سيرة محمد ﷺ وأصحابه يجد العجب العجاب في تذللهم للصعاب ؛ للأخذ بالأسباب ، فأخرج جيلا كانوا هم أولي الألباب .

ولذلك كانت الأناة مظهرا من مظاهر خلق الصبر ؛ لأنها تسمح له بأن يحكم أموره ، ويضع الأشياء في موضعها ، فهي ركن من أركان الحكمة بخلاف العجلة فإنها تعرضه لكثير من الأخطاء والإخفاق ، والتعثر والارتباك، ثم تعرضه للتخلف من حيث يريد السبق ، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، وبخلاف التباطؤ والكسل ، فهو يعرضه للتخلف والحرمان من تحقق النتائج التي يرجوها ، وقد ذم الإسلام الاستعجال ونهى عنه ، وذم التباطؤ والكسل ونهى عنه ، ومدح الأناة وأمر بها ، وعمل على تربية المسلمين على الأناة والتثبت الحكيم في القيام بالأعمال وتصريف الأمور[2] .

والله سبحانه أمر نبيه وصفوة خلقه بالتأني وترك التعجل فقال : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة:١٧-١٩] وأمر عباده المؤمنين بالتأني والتثبت بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات:٦] .

وقد كان محمد ﷺ أعظم الناس أناة وتثبتا ، فكان لا يقاتل أحدا من الكفار إلا بعد التأكد بأنهم لا يقيمون شعائر الإسلام .

---

(١) انظر : (أصول الدعوة) ، د/ عبد الكريم زيدان ص"٤٤٠" .

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ، لـ(عبد الرحمن الميداني) (٢/٣٦٧ و ٣٦٨) ، دار القلم ، دمشق ، بيروت .

فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – « **أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قوما لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر ؛ فإن سمع أذانا كف عنهم ، وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم** »(١) .

وعن عبد الله بن سرجس المزني ، أن النبي ﷺ قال : « **السمت الحسن ، والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة** »(٢) .

وبهذا يعلم أن الأناة والرفق في كل شيء من أمور الدنيا محمودة عواقبه ، فما دخل الرفق والأناة في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شأنه . لحديث عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « **إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه** »(٣) .

٢ – درس في قوة العزيمة :

كان سيدنا نوح – عليه السلام – قوي العزيمة غير آبه بما يثار حوله من شبهات أو إشاعات باطلة ، استطاع بتوفيق الله دحض هذه الشبه والمفتريات وتفنيد دعواهم الباطلة بالحجج الدامغة ، وإليك أمثلة لتلك الشبه والرد عليها .

أولا : كون نوح في نظرهم من البشر :

أشاع الملأ الطغاة عن نوح – عليه السلام – أنه بشر مثلهم ، ولا يمكن أن يوحي الله إلى بشر حيث قاسوا هذا على أنفسهم ، فالمساواة في البشرية بينهم وبينه تنافي في

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الأذان ، باب ما يحقن بالأذان من الدماء ١/ ٢٠٧ ، برقم [٦١٠] ورواه مسلم في كتاب الصلاة ، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان (٢٨٨/١) ، برقم [٣٨٢] .

(٢) رواه الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في التأني والعجلة (٣٦٦/٤) ، برقم[٢٠١٠] . وعبدالله بن سرجس حليف بني مخزوم ، صحابي جليل ، سكن البصرة ، انظر : (التقريب) ص"٣٠٥" .

السمت : حسن الهيئة والمنظر . التؤدة : التأني . الاقتصاد : التوسط في الأمور والتحرز من الإفراط والتفريط . فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢٧٧/٣) ، دار المعرفة ، بيروت لبنان . وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٩٥/٢) ، برقم [١٦٣٥] . وانظر : (صحيح الجامع الصغير) (٢٢٤/٣) .

(٣) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الرفق (٢٠٠٤/٤) ، برقم [٢٥٩٤] .

زعمهم دعوى تفوق أحد المتساوين على الآخر بجعل أحدهما تابعا والآخر متبوعا[١] ، وما ذكر من الوحي هذا لا يتأتى إلا لملك من الملائكة ، قال تعالى عنهم : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود:٢٧] وقال سبحانه : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون:٢٤] .

قال أشراف وكبراء قوم نوح : ما نراك يا نوح إلا بشرا مثلنا ، وأرادوا بذلك : ليس فيك يا نوح مزية تخصك من بيننا بالنبوة ، ولو كان ذلك لرأيناه . لا أن ذلك محتمل لكن لا نراه[٢] . وهذا الرأي منهم جهل بالقيم الحقيقية التي من أجلها استحق الإنسان الخلافة ، واستحق حمل رسالات الله عز وجل .

فلم تفت هذه الشبهة المثارة في عضد نوح ؛ لأنه متوكل على الله لا يهمه ولايغيظه ما يقولون ؛ بل يرد عليهم بلطف مقال وحسن فعال فيقول : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٨] .

إذا فهو يتلطف معهم في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم ؛ لإدراك القيم الخفية عليهم والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والاختيار لها ، ويبصرهم بأن الأمر ليس موكولا إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها ، ثم هو يقرر لهم مبدأ الاختيار في العقيدة والاقتناع بالنظر والتدبير ، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء[٣] .

ثانيا : النبي في زعمهم لا يكون إلا ملكا :

تبريرا لما قالوه من قبل في أن النبي لا يكون بشرا ؛ وإنما يكون ملكا . قال تعالى : ﴿...وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٤] أي : لو شاء الله إرشاد البشر عن طريق إرسال ملائكة ؛ لأنهم أقدر من البشر لتحقيق هذا الغرض لعلو شأنهم وقوة خلقهم وكثرة علومهم[٤] .

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/١١٨) ؛ تفسير المنار (١٢/٦١) .

(٢) انظر : (تفسير روح المعاني) ، للألوسي (١٢/٣٧) .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/١٨٧٣-١٨٧٤) .

(٤) تفسير الرازي (٢٣/٩٢) .

فهم كما يقول سيد قطب : يحيلون هذا الأمر إلى السوابق المألوفة ، لا إلى العقل المتدبر[1] . وهذا هو الذي قاله الطغاة من بعدهم في نبوة سيد الخلق محمد ﷺ ، واتخذوا هذا القول ذريعة لتكذيب الرسل الكرام والطعن في رسالاتهم ، فما بعث الله – تبارك وتعالى – نبيا ولا رسولا إلا ووقف المشركون في وجهه وقفة استكبار وعناد يتساءلون.

لماذا لا يكون الرسول من الملائكة ؟ ولماذا لا يكون من الأشراف العظماء من أهل الثروة والغنى والسلطان؟ فكأنهم ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[2] [الذاريات:٥٣].

فيأتي الرد من نوح بكل ثقة وقوة عزيمة وإصرار على بيان الحق ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٦٣] .

أي : لا تعجبوا من هذا ، فإنه ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم ، فهذا من لطف الله وإحسانه إليكم ؛ لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ولعلكم ترحمون ، ومن الرحمة أن يكون بشرا لا ملكا[3] .

وإذا تعجب أهل الكفر أن يكون المرسل إليهم بشرا ، فتعجبهم من ذلك هو الذي يستدعي العجب ! لأنه :

١ – لو كان الرسل من الملائكة لما استطاع البشر الأخذ عنهم أو الاجتماع إليهم .

٢ – لو كان الرسول المبعوث إلى الناس ملكا لكان للناس حجة في عدم الاتباع ، وهو أن يقولوا ... : إن هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا وأمرنا باتباعهم ليسوا بشرا من جنسنا ، فهم ملائكة ونحن بشر ، وطبيعتهم تختلف عن طبيعتنا ...

٣ – لو كان الرسول ملكا لما استطاع الخلق أن يتلقوا الوحي عنه ، لأنه إنما جاء في صورة ملكية يفزعون منها ؛ لأنهم لم يعهدوا مثل هذه الصورة من قبل .

٤ – بما أن الملائكة أرواح نورانية منزوعة الغرائز الشهوانية ، والبشر بعكس ذلك .

---

(١) في ظلال القرآن ، لسيد قطب (٢٤٦٤/٤) ، دار الشروق .

(٢) سيأتي تفصيل ذلك فيما بعد .

(٣) تفسير ابن كثير (٢٣٣/٢) .

فهذا من أبسط الأعذار أمام المشركين في تبرير مخالفاتهم لأوامر الله ونواهيه بأن يقولوا للملك : إنك لا تحمل مثل غرائزنا ، وليس لنفسك شهوات مثل شهواتنا ، ولو كانت لك هذه الغرائز لخالفت مثلنا .

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في معرض الرد على المشركين حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام:٨-٩] .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : « لو رأوا الملك على صورته لماتوا ؛ إذ لا يطيقون رؤيته »[1] .

ثالثا : كون أتباع نوح من الأرذلين :

قال تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [هود:٢٧] .

وقال سبحانه : ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء:١١١] .

أراذلنا[2] أي : أرداؤنا وأخساؤنا ، وهم الذين لا حسب لهم ولا مال ولا جاه ، ومعناه : أن هؤلاء الأراذل لم يكن أتباعهم لك عن ترو ولا فكر ولا نظر ولا تدبر ، ولو أنهم أمعنوا النظر والفكر والتدبر لم يتبعوك[3] .. فكيف نصدق قولك وهؤلاء أتباعك الأرذلون فنعد منهم[4] ، وهذا هو الكبر المستقر في نفوسهم ، فهم يتهربون من الواقع بإلقاء اللوم على نوح عليه السلام ؛ لأنه هو السبب في عدم إيمانهم بإيواء الفقراء

---

(١) تفسير القرطبي (٢٣٩/٣) ؛ تفسير المنار (٣٥١/٧) .

(٢) الأرذل : جمع رذل وهو الدون من كل شيء في منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل، والأراذل جمع أرذل كقوله تعالى : ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ [الأنعام:١٢٣] وقوله ﷺ : « **أحاسنكم أخلاقا** » الأراذل جمع الجمع وقال بعضهم الأصل فيه أن يقال : هو أرذل من كذا ثم كثر حتى قالوا هو الأرذل فصارت الألف واللام عوضا عن الإضافة . انظر : (تفسير ابن جرير الطبري) (١٧/١٢) ؛ تفسير الرازي (٢١٢/١٣) ؛ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص"٢٠٣" .

(٣) تفسير الطبري (١٧/١٢) ؛ تفسير الرازي (٢١٣،٢١٢/١٧) ؛ وتفسير القرطبي (٢٤/٩) ؛ روح المعاني (٣٩/١٢) .

(٤) تفسير ابن كثير (٤٤٢/٢) ؛ تفسير المنار (٦١/٧) .

وترك الأشراف والرؤساء منهم ، فيأتي الرد من نوح كعادته بلطف ولين بقوله : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[هود:٢٩-٣١].

قال الإمام الرازي – رحمه الله – : اعلم أن هذا هو الجواب على هذه الشبهة : وهي قولهم : لا يتبعك إلا الأراذل من الناس . وتقرير هذا الجواب من وجوه[1] :

الوجه الأول : أنه – عليه الصلاة والسلام – قال : أنا لا أطلب مالا على تبليغ دعوة الله لكم حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرا أو غنيا ؛ وإنما أجري على رب العالمين ، وإذا كان الأمر كذلك فأنا أدعوهم . ومن يستجيب فهو من أتباعي وجلسائي سواء كان فقيرا أو غنيا .

الوجه الثاني : أن القوم نظروا إلى الظاهر من أمر نوح – عليه السلام – في أنه يريد المال والترفع عليهم به ؛ ظنا منهم أنه يتوسل بها لأخذ أموالهم ، فرد عليهم بأنه لا يأخذ أجرا على تبليغ رسالة الله ، فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد .

الوجه الثالث : إن الله – تعالى – أعطاه أنواعا كثيرة توجب فضله عليهم ، أهمها : أنه لم يسع في طلب الدنيا ، وإنما يسعى في طلب الدين . والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل . فلعل المراد : تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه .

ثم إنهم سألوه أن يطرد هؤلاء الفقراء حتى يتبعوه ، فقال دون تردد :﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود:٢٩] أي : ليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين آمنوا لاحتقاركم لهم ، وهذا جهل منكم بقدرهم ومنزلتهم عند الله .

ويكون نوح قال هذا على وجه الإعظام لهم ، ويمكن أن يكون على وجه

---

(١) تفسير الرازي (١٧/٢١٥) .

الاختصام . أي : لو طردتهم لخاصموني عند الله فيجازيني بما أستحقه من العذاب ، فلا أحد يمنعني منه ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود:٣٠].

ثم أكد أنه لا يدعي الثراء والغنى والقدرة عليه ، وأنه لا يعلم الغيب حتى يصل به إلى ما يريد ، ثم هو بشر وليس بملك يدعي صفة أعلى من صفات الإنسانية ليرتفع بها في أعينهم ، ثم أعلن صراحة أنهم إن شكوا في إيمان من آمن منهم ونسبوهم إلى النفاق أنه لن يطردهم أيضا : لأن الظاهر منهم الإيمان ، والباطن يعلمه الله . فالمحسن له الحسنى . ومن قال : إنهم منافقون فقد قال مالا علم له به ، ويكون ظالما لنفسه[1] .

[وهكذا ينفي نوح عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة ، وكل هالة مصطنعة تطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة ، ويتقدم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية ، ويردهم في نصاعة الحق وقوته مع سماحة القول ووده إلى الحقيقة المجردة ؛ ليواجهوها ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة ، فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها جميعا نموذجا للداعية ودروسا في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد دون استرضاء لتصوراتهم ، ودون ممالأة لهم مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس][2] .

رابعا : لا فضل لنوح والمؤمنين عليهم :

ذكر الله جل شأنه في معرض جدال نوح له أنهم قالوا : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧] .

أي : ما نرى لكم علينا من فضل نلتموه بمخالفتكم إيانا يجعلكم أقرب إلى الهدى . أو أعرف بالصواب ، فلو كان معكم خير وصواب تمتازن به لاهتدينا إليه ، ولم تسبقونا أنتم إليه[3] .

---

(١) تفسير الرازي (١٧/٢١٥-٢١٦) ؛ تفسير القرطبي (٩/٢٦-٢٧) ؛ تفسير ابن كثير (٢/٤٥٩) ؛ تفسير روح المعاني (١٢/٤٤) .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/١٨٧٥) ، ط دار الشروق .

(٣) انظر : تفسير ابن جرير الطبري (١٥/٢٩٦،٢٩٧) ؛ تفسير المنار (١٢/٦١) .

إذا يرون الفضل بالقوة والكثرة والعلم والرأي ، وهذا في ظنهم مصدر أحقية الاتباع ولا توجد ، فمن أين أتاهم ما يدعون ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ أي : نوح في دعواه وأتباعه في تصديقه .

وهذا كما يقول سيد قطب هو القياس الخاطيء ؛ حيث قاسوا الفضل بالمال والفهم بالجاه ، والمعرفة بالسلطان ، فذو المال أفضل . وذو الجاه أفهم . وذو السلطان أعرف . وهذا جهل ؛ لأن الفضيلة المعتبرة عند الله بالعلم والعمل ، ثم كيف اطلعوا على قلوب الخلق وحكموا ؟ . لاشك أنه العناد والاستكبار واتباع الهوى ، وهذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائما حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع ، أو تضعف آثارها فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية وإلى تقاليد الوثنية في صورة من صورها الكثيرة ، وإن بدت في ثوب من الحضارة قشيب[1] ، وهي انتكاسة للبشرية من غير شك ؛ لأنها تصغر من القيم التي صار الإنسان إنسانا واستحق الخلافة في الأرض ، وتلقى الرسالة من السماء ، وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية[2] .

خامسا : قولهم بأن نوحا يريد أن يتفضل عليهم :

قال تعالى عنهم : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٤] .

الشاهد : ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : يريد أن يرتفع عليكم على سبيل التجبر والتكبر بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم ، فكيف أوحي إليه من دون قومه![3] .

والناظر في هذا الادعاء يرى أن نوحا – عليه السلام – لم يصدر منه كلمة واحدة تدل على ما يدعون ؛ وإنما يريد هدايتهم كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ

---

(١) قشيب : القشب والقشيب : الجديد والخلق ، وفي الحديث : « أنه مر وعليه قشبانيتان » أي : بردتان خلقان . لسان العرب مادة " قشب " (١١/١٧٠) . وقال صاحب المعجم الوسيط: الجديد والنظيف . يقال : ثوب قشيب ، وسيف قشيب : حديث عهد بالجلاء . المعجم الوسيط ، حرف القاف ، مادة " قشب " ص"٧٣٥" ، د. إبراهيم أنيس وآخرون .

(٢) في ظلال القرآن (٤/١٨٧٢) .

(٣) تفسير القرطبي (١٢/١١٨) ؛ تفسير ابن كثير (٣/٢٥٤) .

لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ [نوح:٧] وانظر لقوله : ﴿ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ فهو لا يريد أجرا ولا تفضلا عليهم ؛ وإنما يدعوهم ليغفر الله لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال . وهذه هي صورة لإصرار الداعية على الدعوة ، وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ، احتسابا . فلا مصلحة له فيها يرعاها ويجامل على حسابها ، ولا أجر يتقاضاه من المهتدي على هدايته ، ولا مكافأة ولا جعل يحصله على حصول إيمانهم ، بل يسعد كل السعادة إذا اهتدى حائر ، أو تاب تائب ، وفي الحديث : « **لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم** »(١) .

وهكذا يجب على الداعية أن يتحلى بالعزيمة القوية ؛ لكي يتغلب بها على كل ما يصادفه من عقبات ومشقات . وليكن ما واجهه نبي الله نوح من عقبات وشبهات ، ما تحلى به من لطف في مقال وحسن فعال أمام ناظره وتحت بصيرته ، ولا يظن أن هذا كان ضعفا منه ، وإنما هو الصبر العظيم الذي أوزعه الله إياه حتى بلغ رسالته مع ما لقى من الإعراض والإيذاء الشديدين اللذين تلقاهما بشجاعة بالغة ، معتمدا في ذلك على الله – عز وجل – في كل ما يصادفه من عقبات وأذى ، ومثله إخوانه النبيون من بعده حتى نصرهم الله تعالى .

٣ - درس في الولاء والبراء حتى مع الأقرباء :

قال الله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ...﴾ [المجادلة:٢٢] .

وفي قصة نوح يعرض لنا القرآن مثلا حيا على ذلك ، فنوح تأخذه عاطفة الشفقة على ولده فيطلب من ربه أن ينجي ابنه من الهلاك ، فيعاتبه الله على ذلك ويعتبر عمله من الجهل الذي لا يليق أن يتصف به .

---

(١) الحديث : رواه البخاري – كتاب الجها والسير – باب فضل من أسلم على يديه رجل – (٣٦١/٢) برقم[٣٠٠٩] .

ورواه مسلم – كتاب فضائل الصحابة – باب فضائل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – (١٨٧٢/٤) برقم [٢٤٠٦] .

الولاية : ضد العداوة وأصلها المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد[1] .

والولي سمي وليا من موالاته للطاعة ، أي متابعته إياها . والولي : القريب ، يقال : هذا يلي هذا ، أي يقرب منه ومنه قوله ﷺ : « **ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر** »[2] أي : لأقرب رجل إلى الميت .

تعريفها : هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [البقرة:٢٥٧] .

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنوايا .

وأما البراء فهو : البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار[3] .

ومن الدروس فيه :

أولا : على الداعية أن يرغب في الولاء لله – تعالى – ولرسوله والمحبة فيهما ، لحديث أنس – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار** »[4] .

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ص"٦" ، ط ٤ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٣٩٧ هـ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الفرائض ، باب ميراث الولد من أبيه وأمه (٢٣٧/٤) ، برقم [٦٧٣٢] .

ورواه مسلم ، كتاب الفرائض ، باب ألحقوا الفرائض بأهلها (١٢٣٣/٣) ، برقم [١٦١٥] . كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) كتاب الولاء والبراء ، محمد سعيد القحطاني ، ص"٩٠" ، ط دار طيبة .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوان (٢٨٤/٤) ، برقم [٦٩٤١] .

ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد بهن حلاوة الإيمان (٦٦/١) ، برقم [٤٣] . واللفظ للبخاري .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « أحب في الله ، وأبغض في الله ووال في الله ، وعاد في الله ، فإنك لا تنال ولاية الله إلا بذلك ولا يجد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك »[1] .

ثانيا : على الداعية إلى الله – تعالى – أن يعرف أن العمل الصالح هو الوسيلة إلى النجاة وليس النسب ، لحديث عائشة – رضي الله عنها – قالت : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] قام رسول الله ﷺ فقال : « **يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا ، سلوني من مالي ما شئتم** »[2] .

ونحن رأينا من قصة سيدنا نوح – عليه السلام – شفقته على ابنه ليخرجه من ظلم الكفر إلى نور الإيمان ، فما استطاع فلجأ إلى الله أن ينجيه ، فجاء الرد من الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ [هود:٤٦] .

ومن هذا يتبين لنا أن نسب الإنسان لا يغني عنه شيئا إذا كان صاحبه عاريا من الإيمان والعمل الصالح . والله – تعالى – يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم الصالحة وليس بأنسابهم ، ولا يحابي أحدا منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين[3] ، ثم إن الإيمان والعمل الصالح لا علاقة لهما بالوراثة والأنساب ؛ بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للوراثة تأثير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين[4] .

وحول هذا المعنى يقول سيد قطب :

« إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب ، وليست وشيجة الأرض أو الوطن أو القوم أو العشيرة أو اللون واللغة أو الجنس والعنصر أو الحرفة والطبقة ،

---

(١) انظر : (حلية الأولياء) لأبي نعيم (أحمد بن عبدالله) (٣١٢/١) ، ط دار الكتاب العربي .

(٢) رواه أحمد في المسند (١٨٧/٦) ، برقم [٢٥٥٧٦] ، مؤسسة قرطبة . وورواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] (١٩٢/١) ، برقم [٢٠٥] .

(٣) تفسير المنار (٨٧/١٢) .

(٤) تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي (٤٢/٤) ، ط دار الفكر .

كل هذه الوشائج قد توجد ثم تنقطع بين الفرد والفرد ، والرابط الوحيد هو الإيمان لا غير ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الممتحنة:١] وقال : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة:٣] وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة:٢٣] .

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصلية الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي، وفي طبيعة بنائه وتكوينه العنصري الذي تتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان ، ولم يعد هناك مجال للجمع بين الإسلام وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله لأمته المختارة »[١] .

ثالثا : إن في كفر (ابن نوح) تسلية وعزاء للآباء الصالحين عند فساد أبنائهم ، فهذا نبي الله نوح (وهو من أولي العزم من الرسل) كان ابنه كافرا ، فإذا وجد بعض الآباء فسادا من بعض أبنائهم فليعتصموا بالله ، وليستعينوا به في طلب صلاحهم[٢] وإرجاعهم إلى الحق ، ثم ليعلموا أن ذلك من الابتلاء الذي يبتلى به العبد على قدر إيمانه ، وقد سئل ﷺ : « **أي الناس أشد بلاء؟ فقال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على قدر دينه ، فما يبرح البلاء العبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة** »[٣] .

قلت : البيئة في زمن نوح – عليه السلام – أثرت على ابنه ، فكفر وعصى أباه . والبيئة في زماننا أشد تأثيرا على الشاب ، وبخاصة إذا كان يسكن أو يسافر إلى بلاد الكفار كثيرا ، أو لكثرة ما يشاهده في قنواتهم من اختلاط وسفور

---

(١) في ظلال القرآن (١٨٨٦/٤) ، ط دار الشروق .

(٢) القصص القرآني ، عماد زهير حافظ ص"٥٠" .

(٣) رواه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب"٥٦" ما جاء في الصبر على البلاء ، برقم [٢٣٩٨] قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، ط المكتبة التجارية ، مصطفى الباز ، تحقيق كمال يوسف الحوت .

فاحش ، وإذا استقر به المقام في بلادهم الكافرة قد تغلبه البيئة أو تجبره على إدخال أولاده مدارسهم ، فيخشى من تحول أفكارهم وانسلاخهم من دينهم ، وربما يتزوج من نسائهم اللائي تشبعن كما يقال بالحرية الفاسدة ، عند ذلك يصعب عليه التغيير ؛ لأن قوانينهم تجيز لكل من أراد أن يخرج على والديه . ألا فليحذر المسلم الغيور من ذلك! .

هذا ، وقد دخل إلى بلاد المسلمين في عصرنا تلك القنوات الفضائية المرئية والمسموعة والمقروءة ما قد يؤثر على الأسرة والمجتمع في صلب دينها وعقيدتها ، وحق لعلماء المسلمين ودعاتهم أن يبينوا للمسلمين خطرها ، وينشؤا البديل المضاهي والمبين للحق .

رابعا : على الداعية أن يجتهد في تربية أبنائه التربية الصالحة ، ويوجههم الوجهة السليمة الموافقة للفطرة التي قال الله عنها ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠] .

والحديث : « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه** »[١] .

وليعلم أنه مسئول! حفظ أم ضيع ، لقوله ﷺ : « **كلكم راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية ، وهي مسئولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع ، وهو مسئول عن رعيته ، قال : فسمعت هؤلاء من رسول الله ﷺ ، وأحسب النبي ﷺ قال : والرجل في مال أبيه راع ، وهو مسئول عن رعيته . فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته** »[٢] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (٤٢٤/١) ، برقم [١٣٨٥] كتاب التفسير ، باب لا تبديل لخلق الله (٢٧٥/٣) ، برقم [٤٧٧٥] .
ورواه مسلم ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، حدبث رقم [٢٦٥٨] برواياته . واللفظ لمسلم .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الاستقراض ، وفي كتاب الجمعة [٨٤٤] وكتاب العتق [٢٣٦٨] وكتاب الوصايا [٢٥٤٦] وكتاب النكاح [٤٧٨٩] وكتاب الأحكام [٦٦٠٥] ، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه (١٧٨/٢) ، برقم [٢٤٠٩] . ورواه مسلم ، كتاب الأمارة ، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق (١٤٥٩/٣) ، برقم [١٨٢٩] . واللفظ للبخاري .

ففي هذا الحديث نجد أنه يحدد مسؤلية كل أحد ، ويضع حدودها بدقة فريدة .

خامسا : على الداعية أن يحذر أولياء الأمور من اتخاذ الأبناء أو الأقارب الكفار أولياء وأحبابا من دون المؤمنين ؛ لأن ذلك يؤدي إلى الكفر . والعياذ بالله! .

قال تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران:٢٨] .

أي : أن من اتخذ الكفار أعوانا وأنصارا يواليهم على دينهم ويظاهرهم ﴿ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ أي : قد برئ من الله ، وبرئ الله منه ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي : إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة ، ولا تشايعوهم على الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل[١] .

ولقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] ولقوله : ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٨١] وغيرها من الآيات الدالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة[٢] .

قال أحد الحكماء :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي[٣]

قال ابن حزم في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار[٤] .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٣١٣/٦) ، دار المعارف ، تحقيق محمود شاكر .

(٢) تفسير القرطبي (١٠٨/٩) .

(٣) البيت لطرفة بن العبد . انظر : (ديوان طرفة بن العبد) ص"٤٤" ، ط دار صادر .

(٤) المحلى (٣٥/١٣) ، لأبي محمد : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، بتصحيح : حسن زين طلبة ، ط مكتبة الجمهورية العربية ص"٦٢-٦٣" .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : أخبر الله أن متوليهم هو منهم .

وقال في معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة:٨١] .

إن الإيمان ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ، فالقرآن يصدق بعضه بعضا[١] .

وإليك بعضا من مظاهر موالاة الكفار التي نهى الله عنها :

١ – التشبه بالكفار في الملبس والكلام وغيرهما ، لحديث : « **من تشبه بقوم فهو منهم** »[٢] .

٢ – الإقامة في بلادهم ، وعدم الانتقال منها إلى بلد المسلمين لأجل الفرار بالدين ؛ لأن الهجرة لهذا المعنى واجبة على المسلم ؛ لأن إقامته فيهم تدل على موالاتهم ، وقد حرم الله ذلك إذا كان يقدر على الهجرة ، قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء:٩٧-٩٩]

فلم يعذر الله – تعالى – في الإقامة في بلاد الكفار ، إلا المستضعفين الذين لا يستطيعون الهجرة ، وكذلك من كان في إقامته مصلحة دينية كالدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بلادهم .

---

(١) الإيمان : لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ص"١٤" ، خرج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ط المكتب الإسلامي .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب في لباس الشهرة (٣١٤/٤) ، برقم [٤٠٣١] .

مسند أحمد (١٤٢/٧) ، برقم [٥١١٤] . قال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح . وقال محمد ناصر الدين الألباني : صحيح . انظر : (صحيح الجامع) (٢٧٠/٥) ، برقم [٦٠٢٥] ، ط المكتب الإسلامي .

٣ - السفر إلى بلادهم لغرض النزهة ومتعة النفس .

ويستثنى منها ما كان للضرورة كالعلاج والتجارة والتعليم للتخصصات النافعة التي لا يمكن الحصول عليها إلا بذلك ، فيجوز بقدر الحاجة ، وإذا انتهت وجب الرجوع فورا إلى بلاد المسلمين .

٤ - إعانتهم ومناصرتهم على المسلمين ، ومدحهم والذب عنهم ، وهذا من نواقض الإسلام وأسباب الردة . والعياذ بالله! .

٥ - الاستعانة بهم ، والثقة فيهم ، وتوليتهم المناصب التي فيها أسرار المسلمين ، واتخاذهم بطانة ومستشارين[1] ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[آل عمران:١١٨].

فهذه الآية تشرح دخائل الكفار وما يكنونه نحو المسلمين من بعض ما يدبرونه ضدهم من مكر وخيانة وما يحبونه من مضرة المسلمين وإيصال الأذى إليهم بكل وسيلة ، وأنهم يستغلون ثقة المسلمين بهم فيخططون للإضرار بهم والنيل منهم .

ولحديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : قلت لعمر - رضي الله عنه - : « لي كاتب نصراني ، قال : مالك قاتلك الله ! أما سمعت قول الله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة:٥١] ألا اتخذت حنيفا مسلما ! قلت يا أمير المؤمنين : لي كتابته ، وله دينه . قال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ، ولا أدنيهم وقد أقصاهم الله »[2] .

ولحديث : « **ارجع فلن نستعين بمشرك** »[3] .

ومن هذه النصوص يتبين تحريم تولية الكفار أعمال المسلمين التي يتمكنون بواسطتها من الاطلاع على أحوال المسلمين وأسرارهم لإلحاق الضرر بهم .

---

(١) انظر : كتاب الولاء والبراء ، د/ محمد سعيد القحطاني ، من ص"٢٣٠-٢٤٧" ، وكتاب الولاء والبراء ، للشيخ صالح الفوزان .

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٢٧)، باب لا ينبغي للقاضي أن يتخذ كاتبا ذميا، ط دار المعرفة.

(٣) رواه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر (٣/١٤٩٩) ، برقم [١٨١٧] .

وهذا ما وقع في زماننا من استقدام الكفار إلى بلاد المسلمين ، وبخاصة بلاد الجزيرة العربية ، وجعلهم عمالا وسائقين ومستخدمين ومربين في البيوت . فإنا لله وإنا إليه راجعون ! .

٦ - التأريخ بتاريخهم ، وخصوصا التاريخ الذي يعبر عن طقوسهم وأعيادهم ، حيث ابتدعوا من عند أنفسهم تاريخ ذكرى مولد المسيح - عليه السلام - والمسيح منه براء . فاستعمال تاريخهم فيه مشاركة لهم ، ولا أدل على ذلك من تجنب الصحابة لتاريخهم ، وجعل هجرة الرسول ﷺ بداية للتاريخ الإسلامي[١] .

سادسا : على الداعية إلى الله أن يكثر من التوبة والاستغفار إذا رأى أنه أخطأ ، وخاصة عندما تكون المعصية في جنب الله - تعالى - كما فعل سيدنا نوح - عليه السلام - حينما سأل ربه في نجاة ابنه . والمؤمن رجاع إلى الحق والصواب ، وبالتالي ينبغي للدعاة خاصة أن يحذروا من الاغترار بأنفسهم ، وعدم الاستمرار في الخطأ والمعاندة عليه ، وعلى من تخلق بهذا أن يترك ما هو فيه ؛ حتى لا تهلك الدعوة بأمثاله ، أو حتى لا يقتدي الناس بخلقه السيء .

سابعا : على الداعية أن يعلم أن ما من كربة إلا ويتبعها فرج . وأن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، ولهذا كان جزاء سيدنا نوح من الله عظيما ، حيث مكنه الله في الأرض بعد أن طهرها من الكفرة ولم يبق على وجه الأرض إلا من كان مؤمنا موحدا ، فيا لها من سعادة إذ نجاه الله واستجاب دعاه ! ألا فليعلم الدعاة إلى الله أن الله معهم ولو عذبوا أو ضربوا أو سجنوا أو سخر منهم أو لم يستجب لهم ، ينصرهم ولو بعد حين ولكن بعد الابتلاء والتمحيص ؛ لأن النصر لا يأتي إلا مع تقديم التضحيات والبذل والصبر على المحن والابتلاءات ، وأن النصر مع الصبر . والفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسرا[٢] .

---

(١) يراجع كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) (٣/٥-٥١) في مثل هذا . وأنهم أصلا مختلفون في ولادة المسيح عليه السلام ، ط توزيع مكتبة البلد الأمين ، تحقيق مجدي قاسم ؛ ومن أراد الاستزادة في ذلك فليرجع لكتاب : الولاء والبراء في الإسلام ، د/ محمد سعيد القحطاني، د/ صالح الفوزان . وانظر : (اقتضاء الصراط المستقيم) ص"١٦٠،١٦١" ، ط دار مصر .

(٢) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، بتصرف (١/٧٦-٧٧) ، ط الأولى ، الكويت ، دار الأرقم .

٤ – درس في حقائق القرآن العلمية بمناسبة سورة نوح :

بادئ ذي بدء نعلم أن حقائق القرآن العلمية المكتشفة كثيرة ، ولكننا سنقتصر على مثالين وردا في قصة نوح :

أولا : قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح:١٦] ما هو هذا السراج ؟ حيث ورد أيضا في قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ:١٣] وورد ذكره في قوله سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١] إذا فما هو هذا السراج الوهاج ؟

إنه ذلك السراج الهائل الذي سخره الله بحكمته ، لينتفع به الإنسان من عهد آدم – عليه السلام – إلى وقتنا الحاضر وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والشمس مصدر الضوء من ناحية ومصدر حرارة من ناحية أخرى ؛ لأن الضوء يشتمل دائما على الحرارة ، وقد عبر الله به في قوله سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس:٥] .

هذا ، ويقدر العلماء[1] أن أشعة الشمس التي تصل إلينا مقننة جدا ؛ لئلا يحترق ما يصلح لعيشة الإنسان على هذا الكوكب الأرضي ، ولا يقدر نعمة ذلك إلا من تدبر خلق الله ، وفهم الغاية من خلق هذه الكتلة النارية المتوهجة التي لو اقتربت الأرض من الشمس نصف المسافة التي بيننا لاحترق كل ما على ظهر الأرض ، ولو ابتعدت أرضنا عن الشمس نصف المسافة لتجمدنا بردا وتجمدت كل الكائنات الحية ، لكن الله – جلت قدرته – أحكم النظام فسخرها بقدر معلوم ونظام متقن ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[2] [إبراهيم:٣٣-٣٤] .

---

(١) أي : علماء الفلك ، انظر : كتاب « الله » لسعيد حوى ؛ الموسوعة العلمية الميسرة ، شاهين ود/ يوسف دياب وأحمد الخطيب ص"٢٠" ، ص"١٠-١١" ، مكتبة لبنان ١٩٨٤م .

(٢) كتاب التوحيد ، عبد المجيد الزنداني (٢/٤٤) ، ط دار المجتمع للنشر والتوزيع ؛ الإعجاز العلمي في الإسلام ، محمد كامل عبد الصمد ص"٥٧" ؛ ط الدار المصرية اللبنانية ؛ من علم الفلك القرآني ، د/ عدنان الشريف ص"٨٠-٨٦" ، دار العلم للملايين .

وأما القمر : فقد تحدث القرآن الكريم عن وظيفة القمر الذي أبدع الخالق صنعته وإتقانه في عالم الزمان والمكان ، فجعل للقمر منازل على أبعاد مكانية مقدرة وأشكال متوالية ، حيث يتخذ أشكالا خاصة تكون بحجم محدد وزمن مقدر وبترتيب تصاعدي في النصف الأول من الشهر ، ثم بترتيب تنازلي في النصف الأخير من الشهر .

٥ وهذا التنظيم المحكم ثابت لا يضطرب ولا ينحرف . فالشمس في حركتها ونظامها ، والقمر كذلك في حركته ونظامه ، ولا يطغى أحدهما على الآخر ، ويؤكد القرآن هذه الحقيقة مرة أخرى حين يقول : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن:٥] حيث يجريان في بروجهما ومنازلهما بحساب مقدر منظم ، يترتب عليه تنظيم أمور الكائنات الأرضية وتعاقب الفصول والأوقات[١] .

١٠ **ثانيا** : الآية الثانية هي قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح:١٧] يبدأ الإنبات للإنسان وهو في بطن أمه بعد تكون النطفة ، حيث يوجهها الرازق سبحانه إلى مكان رزقها لتلتصق بجدار الرحم في المكان المعد لها ، وبعد التصاقها تذوب الحواجز بتدبير الحكيم الخبير ، فتتصل بدماء الأم مباشرة فتتغذى من غذائها حتى تخرج إلى الوجود وهو لا يزال متصلا بالحبل السري الذي يتغذى بواسطته تسعة أشهر غالبا ، ١٥ فيقطع هذا الحبل وتبدأ عملية أخرى من الإنبات وهي مرحلة الإرضاع الممتلئ بالحليب المشتمل على المواد المتكونة من عناصر الأرض ، ثم يترقى قليلا فيبدأ يأكل من تلك العناصر مباشرة ، وهذا الطعام أنشأه الله من التربة الصالحة للإنبات وركبها ، بحيث يسهل انتقال ما فيها من مواد إلى النباتات ، وتشارك ملايين البكتريا[٢] في إعداد التربة وتهيئتها قال تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ٢٠ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ ﴾ [الحجر:١٩-٢٠] .

بعد التربة تأتي عملية البذور التي أعدها الله لتحويل تراب الأرض إلى أشجار ونباتات ، والأشجار أخذناها من بذور سابقة . وهكذا حتى تقف أمام الإرادة الحكيمة ، إرادة الرزاق الذي خلقنا محتاجين للطعام ، والذي دلنا على الغذاء قد أوجد

---

(١) كتاب « الله » ص"٥١" .

(٢) كائنات حية صغيرة لا ترى بالعين المجردة .

الأصول الأولى التي أخذنا منها البذور ، فإذا نزل المطر انفلقت البذور وشقت الأرض إلى اتجاهين متعاكسين : إلى أعلى لتكوين الغذاء المحتاج إليه ، وإلى أسفل لتكوين قواعدها وعروقها الممتصة للغذاء ، ثم يرسل لها الماء المتكون من أبخرة البحار المساق إلى طبقات الجو العليا بواسطة الرياح ليتكثف ثم ينزله الله نطفا صغيرة ، لا سيولا دافقة أو جبالا من برد ثم يجريه أنهارا ويسلكه ينابيع من مياه جوفية قريبة محفوظة بصحن من الصخر حتى لا يغور في الأعماق قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٥٧] وبغير الهواء وحرارة الشمس ما كنا وجدنا ثمارا أو حبوبا ، أو شجرة نستظل بها ، ولو أن الشمس كانت دائما ساطعة لاحترقت جميع النباتات ، ولكن تعاقب الليل والنهار بانتظام دائم يعمل بإذن ربه على تنشيط تكوين الغذاء في النهار والراحة في الليل .

قال تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [الأنعام:٩٦] ثم تتكون المادة الخضراء لتتكون منها الغذاء ، حيث تأخذ الأملاح والمعادن من التربة وثاني أكسيد الكربون من الهواء والحرارة من الشمس ، وتصنع من الجميع بقدرة الله سكرا أوليا ، ثم تحول السكر إلى المواد الغذائية الصالحة لتغذيتنا وتغذية أنعامنا[1] .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام:٩٩] .

هذا ماكان في قدرته وصنعه ؛ فماذا عن عقوبته لقوم آخرين لايشكرون الله على نعمه ، ولايوحدونه في عليائه ؟ إنهم قوم هود .

---

(١) التوحيد ، لـ الزنداني (٢/٣٧-٣٩) .

المبحث الثاني

عقوبة قوم هود - عليه السلام -

تمهيد :

قوم هود : هم عاد المذكورون في القرآن الكريم في قوله سبحانه : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٦٥] و [هود:٥٠] وقوله : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٤] وقوله : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٢١] .

وعاد : اسم رجل منهم ، ثم صار بعده اسماً للقبيلة فنسبوا إليه . ومكانهم كما ذكر الله – تعالى – في (الأحقاف)[1] بين عمان إلى حضرموت . وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وكثروا وقهروا أهلها بقوتهم التي آتاهم الله ، وكان قد أعطاهم من القوة والقامة ما لم يعط غيرهم كما قال سبحانه : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف:٦٩] أي : عظماً وطولاً وقوة وشدّة[2] . وكانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم هوداً نبياً ، فأمرهم بتوحيد الله والكف عن ظلم الناس ، فكذبوه وتجبروا ، وأكثروا الفساد في الأرض﴿ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عقيماً سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فأهلكتهم و لم تبق منهم أحداً ، ونجى الله هوداً ومن آمن برحمة منه ومن خزي ذلك اليوم وهو القوي العزيز[3] .

---

(١) الأحقاف : جمع حِقف ، وهو الجبل من الرمل ، أو هو ما استطال من الرمل العظيم و لم يبلغ أن يكون جبلاً . تفسير القرطبي (٢٠٢/١٦) ؛ تفسير ابن كثير (١٧٣/٤) .

(٢) تفسير البغوي (٢٤٣/٣) ؛ وقصص الأنبياء ، المسمى " عرائس المجالس " لأحمد بن محمد الثعلبي ، ط مصطفى البابي الحلبي ص"٤٨" .

(٣) تفسير البغوي (٢٤٣/٣) ؛ تفسير القرطبي (٢٣٦/٧) ؛ وتفسير ابن كثير (١٠٢/٤) ؛ تفسير المنار (٤٩٥/٨) .

المطلب الأول - الآيات التي ذكرت عقوبتهم :

جاء ذكر قوم هود - عليه السلام - في سور عدة من القرآن الكريم ، وكل سورة فيها من النسق القرآني مالا نجده في السور الأخرى .

وقد وردت الإشارة إلى عاد دون تفصيل في سور كثيرة :

أولاً : نبدأ بالسور التي أشارت إلى عقوبتهم :

التوبة ، إبراهيم ، الحج ، الفرقان ، العنكبوت ، ص ، غافر ، ق ، النجم ، الفجر .

فسورة **التوبة** : جاء ذكرهم ضمن ذكر الأقوام المكذبين دون تفصيل .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة:٧٠] .

وسورة **إبراهيم** : قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم:٩] .

وسورة **الحج** : قال تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٤٤] .

وسورة **الفرقان** : قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الفرقان:٣٨-٣٩].

وسورة **العنكبوت** : قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٨] .

وسورة **ص** : قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾ [ص:١٢] .

وسورة **غافر** : قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ

يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [غافر:٣٠-٣١] .

وسورة **ق** : قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [ق:١٢-١٣] .

وسورة **النجم** : قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [النجم:٥٠-٥١] .

ثانيا : السور التي فصلت عقوبتهم :

أولا : سورة الأعراف :

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : الآيات التي تتحدث عن الحوار الذي دار بين هود - عليه السلام - من جهة - وهو فرد واحد - وبين قومه المعاندين - وذلك حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له مع تذكيره الدائم لهم بنعم الله عليهم ، وينصح لهم بكل لطف ورحمة فيردون عليه بكل حمق وسفاهة ، وإن كان صادقا فيما يقول فليأتهم بالعذاب الذي يتوعدهم به إن لم يؤمنوا ويوحدوا الله تعالى . فأخذهم عذاب الله ومقته ،

وقطع الله دابرهم وأصبحوا كأن لم يكونوا .

ثانياً : في قصة نوح – عليه السلام – ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [الأعراف:٥٩] وفي قصة هود ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [الأعراف:٦٥] والفرق أن إثبات الفاء هو الأصل وتقديره أرسلنا نوحاً فجاء فقال ، وأما حذفها في قصة قوم هود لأن الحال اقتضى أن تكون مستأنفة[١] لأنها وردت عقب قصة نوح ، فصار السامع مترقباً معرفة ما خاطب به هود قومه ، فكان السؤال هنا : (فبماذا دعا هود قومه ، وبماذا أجابوا) فيقع الجواب بأنه قال : يا قوم اعبدوا الله[٢] ، هذا أولاً .

وثانياً : أن في قصة نوح ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:٥٩] وقال هنا : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:٦٥] .

والفرق : أنه لم يظهر من قَبْلِ نوح – عليه السلام – عذاب عظيم يخاف منه الناس ؛ فلذلك حذرهم منه .

وأما في عصر هود – عليه السلام – فقد كان عند الناس علم بتلك الواقعة قريباً ، فلا جرم اكتفى هود بقوله : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فكان قوله ذلك إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة في الدنيا .

والفرق الثالث : أنه قال في قصة نوح : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ [الأعراف:٦٠] وقال في قصة هود : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ [الأعراف:٦٦] وذلك أنه كان في أشراف قوم هود من آمن ، ولم يكن في أشراف قوم نوح من آمن به ، وكذا في سورة المؤمنون .

إلا أن هذا منقوض بما في سورة هود حيث قال الله – تعالى – :﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ [هود:٢٧] والجواب عليه : أنه يجوز أن القول كان مرتين ، المرة الثانية بعد إيمان بعضهم[٣] .

الفرق الرابع : أنه تعالى ذكر عن قوم نوح أنهم قالوا :﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف:٦٠] وحكى عن قوم هود أنهم قالوا :﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦٦] .

(١) البرهان في متشابه القرآن ص"١٨٨" .

(٢) التحرير والتنوير (٥/٢٠١) .

(٣) التفسير الكبير (١٤/١٥٥) ؛ وانظر : تفسيره المسمى " انموذج جليل " ص"١٥١" .

والفرق :

أن نوحا – عليه السلام – كان يخوف الكفار بالطوفان العام ، وفي نفس الوقت كان منشغلا بإعداد السفينة ويراه قومه وقد أتعب نفسه في إعدادها دون الحاجة إليها فقالوا : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأعراف:٦٠] .

أما هود – عليه السلام – فما ذكر شيئا ؛ إلا أنه زيف عبادتهم ، واعتبر من اشتغل بعبادتهم سفيها قليل العقل ، فعندها قابلوه بمثلها ونسبوه إلى السفاهة ثم قالوا : ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ وهذا يدل على أن حصول الشك في أصول الدين يوجب الكفر . نعوذ بالله من ذلك![1] .

الفرق الخامس : قوله تعالى عن نوح – عليه السلام – ﴿ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ ﴾ [الأعراف:٦٢] وقال في قصة هود عليه السلام : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف:٦٨] .

والفرق :

أن صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة ، وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار على ذلك الفعل .

ومعنى ذلك : أن القوم كانوا يجددون ضلالهم كلما دعاهم نوح – عليه السلام – فلما كان من عادة نوح نصحهم كل يوم وتجديد الدعوة كل يوم وكل ساعة ذكره بصيغة الفعل ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمۡ ﴾ .

وأما هود – عليه السلام – فقابل السفاهة التي كانت صفة لازمة لهم حقيقة بصفة في المعنى فقال : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ ﴾ وهذا يدل على كونه ثابتا في نصيحته مستقرا فيها[2] .

الفرق السادس : قوله : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٦٢] وقوله عن هود عليه السلام : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف:٦٨] .

والفرق :

أن نوحا – عليه السلام – حين قال : ﴿ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

---

(١) التفسير الكبير (١٤/١٥٥،١٥٦) .

(٢) التفسير الكبير (١٤/١٥٦) ؛ كشف المعاني ص"١٧٩" .

[الأعراف:٦٢] ففيه جمع لمعانٍ كثيرة مما تتضمنه الرسالة وتأييداً لثباته على دوام التبليغ والنصح لهم ، ويتضمن هذا الإيمان البديع تهديداً لهم بحلول العذاب عليهم في العاجل والآجل إن هم استمروا على إصرارهم وعنادهم[1] .

وأما وصف هود نفسه بأمين فلرد قولهم له : ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦٦] هذا من جهة . ومن جهة أخرى : تقريراً للرسالة والنبوة. ومن جهة ثالثة : لتذكيرهم أنه كان فيهم كذلك قبل النبوة[2] .

الفرق السابع : قول نوح – عليه السلام – : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٦٣] . أعاد ذلك إلا أنه حذف ﴿ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

والفرق :

لاكتفائه بذكرها في القصة الأولى ، وأما ما جاء بعدها من قوله : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف:٦٩] فكله من خواص قصة هود[3] .

ثالثاً : كما طلب قوم نوح العذاب طلب قوم هود العذاب ، كأنهم خرجوا من مشكاة واحدة ؛ ولكن الكفر هو الكفر بعضهم من بعض . وتأخير الغضب عن الرجس في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ [الأعراف:٧١] لأن الرجس : وهو خبث نفوسهم قد دل على أن الله غضب عليهم . فوقوع الرجس والغضب عليهم حاصل في الزمن الماضي بالنسبة لوقت قول هود ، واقترانه بـ" قد " للدلالة على تقريب زمن الماضي من الحال : مثل : قد قامت الصلاة . وتقديم ﴿ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف:٧١] على فاعل الفعل للاهتمام بتعجيل ذكر المغضوب والغاضب ، إيقاظاً لبصائرهم لعلهم يبادرون بالتوبة ، ولأن المجرورين متعلقان بالفعل ، فناسب إيلاؤهما إياه ، ولو ذكروا بعد الفاعل لتوهم أنهما صفتان له[4] .

ثانياً : سورة هود :

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى

---

(١) التحرير والتنوير (١٩٤/٥) .

(٢) التفسير الكبير (١٥٦/١٤) ؛ وانظر : (التحرير والتنوير) (٢٠٣/٨) .

(٣) التفسير الكبير (١٥٧/١٤) .

(٤) التحرير والتنوير (٢١٠/٨) ومعنى إيلاؤهما : أتيا بعده .

ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود:٥٠-٦٠] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ﴾ [هود:٥٠] أي : في النسب لا في الدين . فإن قيل : إنه تعالى قال في ابن نوح : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ [هود:٤٦] فبين أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين ، وههنا أثبت هذه الأخوة مع الاختلاف في الدين ، فما الفرق بينهما ؟

فالجواب : أن المراد من هذا الكلام استمالة قلوب قوم محمد ﷺ ؛ لأن قومه كانوا يستبعدون في محمد ﷺ مع أنه واحد من قبيلتهم أن يكون رسولا إليهم من عند الله ، فذكر الله – تعالى – أن هودا كان واحدا من عاد ، وأن صالحا من ثمود لإزالة هذا الاستبعاد[1] .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود:٥٠] .

يرد سؤال هو : أنه كيف دعاهم إلى عبادة الله – تعالى – قبل أن يقيم الدلالة على ثبوت الإله تعالى ؟

---

(١) التفسير الكبير (٩/١٨) .

والجواب : أن دلائل وجود الله – تعالى – ظاهرة في الآفاق والأنفس ، وقلما تجد أحدا ينكر وجود الله ، قال الله في صفة الكفار : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾(١) [لقمان:٢٥] .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود:٥٢] كيف قدم الاستغفار على التوبة ، والصحيح العكس ؟

والجواب من وجوه :

الأول : أن المراد : استغفروا ربكم من الشرك ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة[٢] .

الثاني : أن في الآية تقديما وتأخيرا .

الثالث : قال الفراء[٣] : « ثم » هنا بمعنى « الواو » فلا يفيد ترتيبا ، فاندفع السؤال[٤] . أو أنها للترتيب الرتبي ؛ لأن الدوام على الإقلاع أهم من طلب العفو عما سلف[٥] .

رابعا : إن قيل : هود كان رسولا ، ولم يظهر منه معجزة لقومه حتى قالوا له : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ... ﴾ [هود:٥٣] فبأي شيء لزمتهم رسالته ؟ .

والجواب : أن هذا كذب منهم وجحود ، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [يونس:٢٠] .

ثم إنه قد جاءهم بأمور لا تحتاج إلى معجزة ، وإنما هي مما يتبادر للعقل أن

---

(١) المصدر السابق (١٠/١٨) .

(٢) كذا فسرها ابن جرير (٢٢٩/١٥) . وانظر : (الكشاف) (٣٧٧/٢) ؛ تفسير الرازي " انموذج جليل " ص"٢٠٣" .

(٣) الفراء هو : يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي المعروف بالفراء ؛ لأنه كان يفري الكلام وكان يقال : الفراء أمير المؤمنين في النحو ، له معارف كثيرة ومؤلفات عديدة . من أشهرها (معاني القرآن ، المذكر والمؤنث) وغيرها ، توفي في طريقه إلى مكة سنة ٢٠٧هـ . انظر : (وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان) لأبي العباس : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (١٧٦/٦-١٨٢) ، ط دار الكتب العلمية ، وانظر : (الإعلام) للزركلي (١٤٥/٨) .

(٤) تفسير الرازي المسمى " أنموذج جليل " ص"٢٠٣" .

(٥) التحرير والتنوير ٩٦/١٢ .

يصدقها ، وما صدر منهم إلا عن عناد وتكبر[1] ؛ لأن الله – تعالى – آتاهم من الآيات الكثير ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ [هود:٥٤] الآية وإنما قصدوا من البينات التي جاءهم بها هود – عليه السلام – أنها لم تكن طبقا لمقترحاتهم .

وفي الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « **ما من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ....** »[2] الحديث .

خامسا : قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ ﴾ [هود:٥٤] إن قيل : لم لم يقل : « إني أشهد الله وأشهدكم » لتتناسب الجملتان ؟

فالجواب : أما إشهاد الله على البراءة من الشرك فصحيح يفيد تأكيد التوحيد والالتزام به ، وأما إشهادهم ، فما هو إلا تهكم بهم وتهاون وقلة مبالاة ؛ لأنهم ليسوا بأهل للشهادة . فعدل به عن لفظ « وأشهدكم » وأتى به على صورة التهكم والتهاون ، كما يقول الرجل لصاحبه إذا أتعبه في الجدال والخصومة : اشهد أني لا أحبك[3] .

سادسا : قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم ﴾ [هود:٥٧] فجعل التولي شرطا والإبلاغ جزاء ، والإبلاغ كان سابقا على التولي ، فكيف ؟

والجواب : ليس الإبلاغ جزاء للتولي ؛ لأن المقصود بهذا الجواب هو لازم ذلك الإبلاغ ، وهو انتفاء تبعة توليهم عنه وبراءته من جرمهم ؛ لأنه أدى ما وجب عليه من الإبلاغ[4] .

سابعا : قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود:٥٨] ترى أنه كرر التنجية ، فما فائدة ذلك ؟

(١) انظر المصدر السابق ص"٢٠٨،٢٠٩" .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة محمدﷺ (١/١٣٤) ، برقم [٢٣٩] .

(٣) تفسير الرازي ص"٢٠٩" .

(٤) التحرير والتنوير (١٢/١٠٢) ؛ وانظر : (تفسير الرازي) المسمى " انموذج جليل " ص"٢٠٩" كما في الكشاف (٢/٤٠٤) .

والجواب : أنه أراد تنجيتهم من عذاب الدنيا الذي حصل لقومه أولا ، والثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة . ففي هذا منة ثانية على هود ومن آمن معه . ومعنى الآية أي : نجيناهم من عذاب الدنيا برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ في الآخرة[1] .

ثامنا : قوله تعالى : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود:٦٠] إن قيل : ﴿ بُعْدًا ﴾ معناه عند العرب : الدعاء بالهلاك[2] ، فما معنى الدعاء عليهم بالهلاك بعد هلاكهم ؟ وما الفائدة في قوله : (لعاد قوم هود) ؟

والجواب : معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له[3] ، وحقيقيون به . وأما فائدة ذكر عاد والتعريف بهم أنهم قوم هود لورود ذكر عاد الأولى وعاد الثانية (وهي : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾) سورة الفجر آية : (٧) كما سيأتي[4] ، أو لأن المبالغة في التنصيص تدل على مزيد التأكيد[5] .

ثالثا : سورة المؤمنون :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المؤمنون:٣١-٤١] .

---

(١) تفسير الرازي المسمى " انموذج جليل " ص"٢٠٩،٢١٠" كما في الكشاف (٢/٤٠٥) ؛ التحرير والتنوير (١٢/١٠٤) .

(٢) تفسير الكشاف (٢/٤٠٥) .

(٣) المرجع السابق (٢/٤٠٥) ؛ وانظر : (تفسير الرازي) المسمى " انموذج جليل " ص"٢١٠" .

(٤) أي ذكرهم في سورة الفجر ص ١٧٣ .

(٥) التفسير الكبير (١٨/١٦) .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : أنها لم تذكر النبي هودا – عليه السلام – ولا قومه عادا صراحة ، وإنما ذكرت عقب قصة نوح – عليه السلام – ونحن نعلم أنها إذا ذكرت عقبها كانت هي المقصودة لقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾(١) [الأعراف:٦٩] .

ثانيا : العقوبة التي ذكرت أواخر الآيات هي الصيحة على خلاف ما ذكرت الآيات الأخرى . والجمع بينهما : أنه صاح بهم جبريل – عليه السلام – صيحة واحدة مع الريح التي أهلكهم الله – تعالى – فماتوا عن آخرهم(٢) .

ثالثا : لم عدى فعل « أرسلنا » بـ « في » دون « إلى » في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [المؤمنون:٣٢] لإفادة أن الرسول كان منهم ونشأ فيهم ؛ وكان التنبيه على ذلك مقصودا إتماما للمماثلة بين حالهم وحال الذين إرسل إليهم محمد صلى الله عليه وسلم(٣) .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [المؤمنون:٣٣] وقال في سورة الأعراف وهود : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف:٦٦] وقوله : ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود:٥٣] فهنا في سورة المؤمنون ذكرها (بالواو) وفي سورتي الأعراف ، وهود بدون " الواو " فما الفرق ؟

والجواب : أن الذي بغير " واو " فعلى تقدير سؤال سائل قال : فما قال قومه ؟ فقيل له : قالوا كيت وكيت ، وأما الذي مع الواو ، فعطف لما قالوه على ما قاله ، ومعناه : أنه اجتمع في هذه الواقعة هذا الكلام الحق وهذا الكلام الباطل(٤) .

---

(١) وبعض العلماء قال : المراد به هنا ثمود ؛ لأنه الذي يناسبه قوله في آخر القصة فأخذتهم الصيحة بالحق ؛ لأن ثمود أهلكوا بالصاعقة . ولقوله في سورة الحجر آية : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر:٨٣] فكان هلاكهم في الصباح ، ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عاد خلافا لما تكرر في غير هذه الآية لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] . انظر : البحر المحيط (٣٧٣/٦) .

(٢) انظر : (تفسير القرطبي) (١٢٤/١٢) ؛ تفسير ابن كثير (٢٥٥/٣) .

(٣) التحرير والتنوير (٥٠/١٨) م ٩ .

(٤) تفسير الكشاف (١٨٦/٣) ؛ وانظر : (التفسير الكبير) (٩٧/٢٣) .

خامسا : في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون:٣٧] أنهم لم يريدوا بقولهم : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ الشخص الواحد ، بل أرادوا : أن البعض يموت والبعض يحيا ، وأنه لا إعادة ولا حشر[١] .

سادسا : قوله تعالى : ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون:٤١] فجاء الخبر عن القوم الظالمين هنا معرفا ، وفي قوله تعالى في نفس السورة : ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٢] [المؤمنون:٤٤] جاء الخبر عنهم منكرا ، فما الفرق ؟

والجواب : أن القرن الأول معروف أنهم قوم هود (أو قوم صالح على قول) في قوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ﴾ [المؤمنون:٣١] .

وقوله تعالى : ﴿ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون:٤٢] غير معروفين بأعيانهم ، فجاء بلفظ التنكير بقوله تعالى : ﴿ لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:٤٤] لأن عدم الإيمان هي الصفة العامة لجميعهم[٣] .

رابعا : سورة الشعراء :

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٤٠] .

---

(١) التفسير الكبير (٢٣/٩٨) .

(٢) هي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:٤٤] .

(٣) كشف المعاني ص"٢٦٧" ، وانظر : (درة التنزيل) ص"٢٥٨،٢٥٩" ؛ البرهان في متشابه القرآن ص"٢٧٦،٢٧٧" .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : الحديث عن عاد في سورة الشعراء يختلف عنه في سورة أخرى ، حيث امتاز بنمط جديد يتناسب مع موضوع السورة من حيث كثرة القصص فيها وتميز كل قصص عن غيره .

قال في الكشاف : كل قصة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار ما في غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تختم بما اختتمت به صاحبتها ، ولأن في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس ، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأبعد من النسيان ؛ ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقرت عن الإنصات للحق فكوثرت بالوعظ والتذكير ؛ وروجعت بالترديد والتكرير ، لعل ذلك يفتح أذنا أو يفتق ذهنا . اهـ[1] .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴾ [الشعراء:١٣٣] ترى أنه قرن بين الأنعام والبنين ، فكيف يصح ذلك ؟

فالجواب : لأن الأنعام كانت من أعز أموالهم عندهم ، وكان بنوهم هم الذين يعينونهم على حفظها ، والقيام عليها ، فلهذا قرن بينهما[2] .

ثالثا : كرر الدعوة لهم بالتقوى والطاعة في قوله : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء:١٣١] زيادة في دعائهم إلى الآخرة ، وزجرا عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر عن الطاعة[3] .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء:١٣٦] ألم يكن قوله « أم لم تعظ » أخصر والمعنى واحد ، فكيف عدل عنه ؟

والجواب : أن المعنى يختلف ؛ لأن المراد : سواء علينا أفعلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلا وهذا أبلغ في قلة اعتدادهم من قوله « أم لم تعظ »[4] .

---

(١) تفسير الكشاف (٣/٣٣٤) .

(٢) الكشاف (٣/٣٢٦) ؛ وانظر : (تفسير الرازي) " انموذج جليل " ص"٣٧٣" .

(٣) التفسير الكبير (٤/١٥٧) .

(٤) تفسير الرازي " انموذج جليل " ص"٣٧٣" .

خامسا : سورة فصلت :

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت:١٥-١٦] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : أنها تتحدث من أولها عن توحيد الله وقوته ، وقدرته وبديع صنعه في خلقه ، وموضوعها يتناسب للرد على كفار مكة .

ثانيا : أنه أجمل الحديث عن مصير عاد وثمود ، ثم فصل قصة كل منهما ، حيث أنذر كفار مكة بما حل بالأمم المكذبة من عذاب في الدنيا .

ثالثا : افتخار قوم هود في هذه الآيات بقوتهم وشدة بأسهم ، ولم يذكر هذا من قبل ، فكان الإعصار المدمر لهم هو المصرع المناسب لهذا العجب والكبر(١) .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] إن قيل : إن صيغة أفعل التفضيل إنما تجري بين شيئين لأحدهما مع الآخر نسبة ، وقوة الله وقدرته لا نهاية لها ، والشيء المتناهي لا نسبة له إلى غير المتناهي ، فما معنى قوله : إن الله أشد منهم قوة ؟

والجواب : هذا ورد على قانون قولنا : الله أكبر(٢) .

---

(١) انظر : (في ظلال القرآن) (٣١١٧/٥) ؛ وانظر لقوله تعالى : ﴿ **فاستكبروا** ﴾ والاستكبار معناه : المبالغة في الكبر ، أي : التعاظم واحتقار الناس . فالسين والتاء فيه للمبالغة . بغير الحق : زيادة تشنيع لاستكبارهم ؛ فإن الاستكبار لا يكون بحق إذ لا مبرر له ؛ لأنه مهما بلغ الإنسان من مبلغ فإنه لا يخلو من نقص فكيف يتكبر . انظر : (التحرير والتنوير) (٢٥٦/٢٤) .

(٢) التفسير الكبير (١١٢/٢٧) .

سادسا : سورة الأحقاف :

قال تعالى : ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف:٢١-٢٦] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ [الأحقاف:٢١] فهنا تحدث القرآن عنه بوصفه دون ذكر اسمه العلم ؛ لأن المراد بالذكر هنا التمثيل والموعظة لقريش بأنهم أمثال عاد في الإعراض عن دعوة محمد ﷺ(١) .

ثانيا : انفردت سورة الأحقاف بذكر مكان عاد ، واسمه : (الأحقاف) من بلاد اليمن(٢) .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف:٢٢-٢٣] كيف طابق السؤال الجواب ؟

والجواب : طابقه من حيث إن قولهم ذلك استعجال العذاب الذي توعدهم به ، بدليل قوله تعالى بعده : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف:٢٤] فقال لهم :

---

(١) التحرير والتنوير (٤٥/٢٦) .

(٢) انظر : (تفسير الكشاف) (٣٠٦/٤) ؛ تفسير ابن كثير (١٧٣/٤) ؛ وانظر : (معجم البلدان ياقوت الحموي ، كلمة (الأحقاف) (١٤٢/١) .

لا علم لي بوقت تعذيبكم ، بل علم ذلك عند الله وحده[1] .

رابعا : إن قيل : كيف قال تعالى في وصف الريح : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف:٢٥] وكم من شيء لم تدمره ؟ ثم ما فائدة إضافة الرب إلى الريح ؟

فالجواب: معناه : تدمر كل شيء مرت به من أموال قوم عاد وأملاكهم[2].

أما عن فائدة الإضافة فللدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد بعظم قدرته ؛ لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده ، وذكر الأمر وكونها مأمورة من الله يعضد ذلك ويقويه .

خامسا : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً ﴾ [الأحقاف:٢٦] فلم جمع الأبصار والأفئدة وأفرد السمع ؟

والجواب : أفرد السمع لاتحاد ما يسمعه الإنسان من أصوات ، وجمع غيره لتعدد ما يدركه الإنسان ببصره وفؤاده[3] .

سابعا : سورة الذاريات :

قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات:٤١-٤٢] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : وصفت الريح في هذه الآية بأنها ريح عقيم ، أي : عديمة الفائدة وخالية من المنافع ، كإثارة سحاب أو إلقاح شجر .

وقد وصفت من قبل بأنها ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف:٢٤] وريح صرصر ، وهنا بالريح العقيم . وهذا الوصف لما كان مشتقا مما هو من خصائص الإناث كان مستغنيا عن لحاق هاء التأنيث ؛ لأنه يؤتى بها للفرق بين الصنفين . فوصف الريح بالعقيم تشبيه بليغ بالشؤم[4] .

ثانيا : في قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات:٤٢] مثلها مثل قول الله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف:٢٥] وزاد أنها تجعله كالرميم البالي المتفتت بالطبع مما أمرت به .

---

(١) تفسير الكشاف (٣٠٧/٤) ؛ تفسير الرازي " انموذج جليل " ص"٤٦٦" .

(٢) تفسير الرازي " أنموذج جليل " ص"٤٦٦" .

(٣) انظر : تفسير القاسمي المسمى " محاسن التأويل " محمد جمال الدين القاسمي (٢٤/١٥) ، ط دار الفكر .

(٤) تفسير الرازي (٢٢٢/٢٨) ؛ التحرير والتنوير (١١/٢٧) .

ثامنا : سورة القمر :

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ ﴾ [القمر:١٨-٢١] .

لطائف الآيات :

أولا : ذكرت قصة عاد هنا على سبيل الاختصار ، فلم تذكر إلا تكذيبهم وتعذيبهم .

ثانيا : ذكر قوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر:٢١] مرتين في أول الآيات وآخرها ، فهل لها من معنى ؟

والجواب من وجوه[١] :

الوجه الأول : أن الأول وعيد لهم بما تقدم لغيرهم من قوم نوح ، والثاني لهم ولغيرهم من بعدهم .

الوجه الثاني : لأن الأول أريد به عذاب الدنيا ، والثاني أريد به عذاب الآخرة ، كما قال في قصتهم : ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ ﴾ [فصلت:١٦] .

الوجه الثالث : أن الأول فيه حذف مضاف تقديره : فكيف كان وعيد عذابي ، والثاني أريد به نفس العذاب بعد وقوعه[٢] .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ [القمر:١٩] وفي سورة فصلت ذكره بـ ﴿ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت:١٦] وفي الحاقة : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ [الحاقة:٧] .

فكيف خالف بين الموصوف الواحد ، فهو مرة يوما واحدا ومرة أياما ؟

والجواب : أن « **اليوم** » يعبر به عن الأيام كقولهم : يوم الحرة ، ويوم بعاث ، يوم الأحزاب . وقد يراد به اليوم الذي بدأ فيه الريح[٣] . والله أعلم .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر:٢٠] أي : منقطع ، فلم لم يقل : منقعرة كما في سورة الحاقة ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧].

---

(١) البرهان في متشابه القرآن ص"٣٣٩" ؛ كشف المعاني ص"٣٤٥" .

(٢) كشف المعاني ص"٣٤٥" .

(٣) كشف المعاني ص"٣٢٧" .

والجواب : إنما ذكر الصفة ؛ لأن الموصوف وهو (النخل) مذكر اللفظ ، وليس فيه علامة تأنيث فاعتبر اللفظ ، وفي موضع آخر اعتبر المعنى ، وهو كونه جمعا ، فقال : (كأنهم أعجاز نخل خاوية) .

وقيل : النخل يذكر ويؤنث ، فجمع القرآن اللغتين .

وقيل : إنما ذكر رعاية للفواصل[1] .

تاسعا : سورة الحاقة :

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾ [الحاقة:٧-٩] .

لطائف الآيات :

أولا : في قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٦] لم لم يقل صرصرة كما قال : عاتية . مع أنه صفة لمؤنث ؛ لأنها الشديدة الصوت ، أو الشديدة البرد ؟

والجواب : لأن « الصرصر » وصف مخصوص بالريح لا يوصف به غيرها ، فأشبه باب (حائض ، طامث ، وحامل) بخلاف (عاتية) فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة توصف به[2] .

ثانيا : جاء بيان المدة التي سخرت فيها الريح وهي : سبع ليال وثمانية أيام ، لأنها بدأت بطلوع الشمس من أول يوم ، وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم[3] بلا انقطاع .

ثالثا : إن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ [الحاقة:٧] أي : في تلك الليالي والأيام ، والنبي ﷺ ما رآهم فيها ؟

فالجواب : الرؤية هنا من رؤية العلم والاعتبار ، فصار المعنى : فتعلمهم كذلك بإعلامنا إياك حتى كأنك تشاهده[4] .

---

(١) تفسير الرازي ص"٤٨٩" ؛ وعند القرطبي بنحو ما ذكر أولا ؛ حيث ذكر عن المبرد أنه سئل عن ألف مسألة من ضمنها هذه فقال : « كل ما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا ، أو إلى المعنى تأنيثا » اهـ . تفسير القرطبي (١٧/١٣٧) .

(٢) تفسير الرازي المسمى " أنموذج جليل " ص"٥٢٥" .

(٣) انظر : (زاد المسير في علم التفسير) ، أبي الفرج : جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد ، المعروف بابن الجوزي (٨/٨٠) ؛ فتح القدير (٥/٢٨٠) .

(٤) تفسير الرازي المسمى " أسئلة وأجوبة " ص"٥٢٥" .

عاشرا : سورة الفجر :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ[1] ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ ﴾ [الفجر:٦-٨] .

لطائف الآيات :

ذكرت الآيات وصف بلاد عاد (إرم ذات العماد) حيث مكن الله لها في الأرض ، تمثل ذلك في :

أ - الحضارة المادية الكبيرة التي وصفها الله بذات العماد ، حيث كانت فريدة في عالمها وعصرها : إما بقصورها القوية الشديدة ، أو بسكناهن بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد[2] .

ب - النعمة التي كانوا فيها ، بحيث إنهم لم يستعملوها في طاعة الله .

جـ - ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر:٨] التعريف في كلمة « البلاد » للجنس . والمعنى : التي لم يخلق مثل تلك الأمة في الأرض . وأريد بالخلق : خلق أجسادهم حيث كانوا طوالا شدادا أقوياء ، وكانوا أهل عقل وتدبير ، والعرب تضرب المثل بأحلام عاد ، ثم فسدت طباعهم بالترف فبطروا النعمة[3] .

---

(١) إرم : أمة قديمة ، يعني : عادا الأولى . قاله مجاهد . وقال قتادة والسدي : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوي . انظر : (تفسير ابن كثير) (٥٤٢/٤) . وقال ابن خلدون في تاريخه : إن إرم تعني : القبيلة لا البلد . انظر : (تاريخ ابن خلدون((٢٢/٢) ، ط دار الفكر . وانظر : (التحرير والتنوير) (٣١٨/٣٠) .

(٢) انظر : (تفسير القرطبي) . والمعنى : (ذات الأبنية المرفوعة على العمد ، وكانوا ينصبون الأعمدة ، فيبنون عليها القصور((٤٥/٢٠) ؛ وانظر : (تفسير ابن كثير) (٥٤٢/٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٣١٩/٣٠) ؛ وانظر : (ما قاله القرطبي) (٤٧/٢٠) ؛ والرد عليه عند صاحب التحرير (٣١٩/٣٠،٣٢٠) .

المطلب الثاني – سبب العقوبة :

أولا : نماذج من دعوته .

ثانيا : وقفة تأمل قبل نزول العذاب بهم .

أرسل الله الأنبياء لهداية البشر إلى توحيد الله وعبادته قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] وقال سبحانه على لسان أنبيائه : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [هود:٥٠] فيتصدى لذلك الطغاة من الملأ في كل زمان ، ظانين أن هذا الأمر يسلبهم حياتهم الهنية ويسحب من تحت أرجلهم بساط الترف والنعيم ، وما علموا أنه يجلب لهم سعادة الدارين ونعيم الحياتين .

ومن هؤلاء قوم سيدنا هود – عليه السلام – (عاد) ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الفجر:١١-١٣] .

أولا : نماذج من دعوة سيدنا هود عليه السلام :

١ – الدعوة إلى الله بالحسنى :

قال تعالى مخبرا عن دعوة هود – عليه السلام – : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:٦٥] أي : وأرسلنا إلى عاد أخاهم في النسب هودا – كما يقال في أخوة الجنس كله : يا أخا العرب – وللدين أخوة روحية كأخوة الجنس القومية والوطنية .

ثم دعاهم إلى أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا ، فإنه الإله الحق الذي خلقهم ورباهم بنعمه ، والشاهد معنا قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:٦٥] أي : أفلا تتقون ما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عقابه . وفي موضع آخر يقول لهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود:٥٠] أي : إنكم بعبادة غير الله تفترون الكذب على الله باتخاذ الأنداد والأولياء شركاء ، ثم هو بدعوته هذه لا يطلب على ذلك أجرا منكم قال تعالى : ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود:٥١] أي : إني أدعوكم إلى عبادة الله وحده ولا أسألكم أجرا فتتهموني بطلب المنفعة لنفسي ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ﴾ أي : أجري على الذي خلقني على الفطرة السليمة ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما يقال لكم ، فتميزوا بين

الحق والباطل والنافع والضار ، ثم إن الأخ لا يغش أخاه ولا يعرض نفسه لغضب قومه بدعوتهم إلى ما يضرهم ولا ينفعهم[١] .

٢ - الدعوة بأسلوب الترغيب والترهيب :

المشهد الدعوي يتكرر مرة أخرى من النبي هود في دعوته قومه بما يحبون، مثل ما فعل سيدنا نوح مع قومه قال تعالى : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود:٥٢] فهم يحبون نزول المطر الذي تحيا به زروعهم وتقتات منه مواشيهم ويزيدهم قوة إلى قوتهم ، فإن هم استغفروه وتابوا أرسل الله المطر متتابعا يتلو بعضه بعضا ، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه[٢] ، وفي الحديث : « **من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب** »[٣] وكان يجب عليهم أن يشكروا نعمة الله عليهم ، ويحذروا من البطر ويتقوا مصير الغابرين ؛ لأنهم لم يأخذوا على الله عهدا في توقف سنته التي لا تتبدل والتي تجري وفق الناموس المرسوم بقدر معلوم ، وذكر النعم يوحي بشكرها ، وشكرها تتبعه المحافظة على أسبابها ، ومن ثم يكون الفلاح في الدنيا والآخرة[٤] .

ثم حذرهم من مغبة عصيانهم وعنادهم ، وهذا هو أسلوب الترهيب بقوله سبحانه : ﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الأحقاف:٢١] أي : اذكر لهؤلاء المشركين قصة عاد ليعتبروا بها .

---

(١) تفسير المنار (١٢/١١٥) .

(٢) تفسير القرطبي (٩/٥١) ؛ تفسير ابن كثير (٢/٤٦٥) .

(٣) رواه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب في الاستغفار (٢/١٧٨،١٧٩) ، برقم [١٥١٨] .
ورواه ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب الاستغفار (٢/١٢٥٤) ، برقم [٣٨١٩] .
ورواه أحمد في المسند (١/٢٤٨) ، برقم [٢٢٣٤] قال أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٤/٥٤)، برقمه السابق : إسناده صحيح ، ط دار المعارف بمصر .

(٤) في ظلال القرآن (٣/١٣١١) .

٣ - إقامة الحجة عليهم بالجدال الحسن :

قال الله تعالى : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝ ﴾[1] [هود:٥٤-٥٧] أي : إني أشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه . واشهدوا أنتم شهادة تبرئني مما تشركون ، أي : من أصنامكم التي تعبدونها ، وهذه الشهادة منكم تكون حجة عليكم ، ثم تجمعوا أنتم وآلهتكم ثم كيدوني ما تستطيعون من الكيد للإيقاع بي ، ثم لا تمهلوني ولا تؤخروا الفتك بي إن استطعتم ، فما أباليكم جميعا ولا أخشاكم شيئا ! ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ [هود:٥٦] إني وكلت أمر حفظي وخذلانكم إلى الله معتمدا عليه وحده ؛ إذ هو ربي وربكم مالك أمري وأموركم المتصرف فيها وفي غيرها ؛ لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة ، فما من دابة إلا وهي تحت قهره وسلطانه يصرفها كيف يشاء ويمنعها مما يشاء فلا تصلوا إلى ضري ، فإن أعرضتم عن دعوتي لم يضرني إعراضكم ؛ فقد أبلغتكم ما أرسلني الله به إليكم والله قادر على إهلاككم والمجيء بقوم آخرين غيركم ولا تضرونه أي ضرر ، فما لكم به من قوة ، وذهابكم لا يترك في كونه فراغا ولا نقصا ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود:٥٧] يحفظني ويحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع ، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هربا فيطلبكم وهنا انتهى الجدال والكلام ليحق عليهم الوعيد والإنذار[2] .

ثانيا : وقفة تأمل قبل نزول العذاب بهم :

قال تعالى : ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا

---

(١) تفسير القرطبي (٩/٥٢-٥٣) ؛ تفسير ابن كثير (٢/٤٦٥-٤٦٦) ؛ تفسير المنار (١٢/١١٧-١١٨) ؛ في ظلال القرآن (٤/١٨٩٩-١٩٠٠) .

(٢) انظر : (تفسير القرطبي) (٩/٥٢-٥٣) ، تفسير ابن كثير (٢/٤٦٥-٤٦٦) وتفسير المنار (١٢/١١٧-١١٨) ؛ في ظلال القرآن (٤/١٨٩٩-١٩٠٠) .

فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف:٧٠-٧١] .

في الآية الأولى : قوم هود يطلبون العذاب ؛ لأنهم كانوا يظنونه كذبا ، بدليل أنهم قالوا له : ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦٦] فلما اعتقدوا ذلك وأشربت قلوبهم حب العناد والتكبر قالوا له : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ [الأعراف:٧٠] والغرض أنه إذا لم يأتهم العذاب ظهر لهم كونه كاذبا ، وإنما قالوا ذلك لأنهم ظنوا أن الوعد لا يجوز أن يتأخر ، فلا جرم استعجلوه[1] .

وفي الآية الثانية : قوله : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ [الأعراف:٧١] أي « أنه جعل التوقع الذي لابد من نزوله بمنزلة الواقع . ونظيره قولك لمن طلب منك شيئا : قد كان ذلك ، بمعنى : أنه سيكون ، ونظيره من كتاب الله قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:١] بمعنى : سيأتي أمر الله »[2] ، وذلك يدل على تحقق الوقوع وصدق إتيانه . والله أعلم .

ثم إنهم زعموا أن العذاب لا يمكن أن يقع بهم ؛ لأنهم أقوياء وما القوة التي تستطيع أن تتغلب عليهم وتقهرهم ؟

قال تعالى : ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٨] انظر إلى قولهم : أوعظت أم لم تكن من الواعظين ما فيه من الاستهانة والاستهتار والجفاء لنبيهم هود – عليه السلام – حيث اعتمدوا على التقليد الأعمى لآبائهم ، فهو دين الأولين وهو الذي جرى عليه أمرهم ، فما نحن إذا بمعذبين على ما نفعل[3] .

---

(١) تفسير الرازي (١٣/١٥٩) ، ط إحياء التراث العربي .

(٢) نفس المصدر (١٣/١٥٩) . اخترت أقوى هذه التأويلات في نظري لدلالة آخر الآية على ذلك في استمرار المجادلة ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ [الأعراف:٧١] وآيات سورة الشعراء في استمرار المجادلة ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ – إلى قوله – ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٣٥] .

(٣) تفسير القرطبي (١٣/١٢٦) ؛ في ظلال القرآن (٥/٢٦١٠) .

بل زاد تبجحهم وعنادهم لخالقهم ورازقهم بقولهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] وكأنهم قالوا : نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا[١] وهذا هو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة ، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم ، عندها ينسون ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[٢] [فصلت:١٥] ينسون الأصل الذي منه خلقوا ، وينسون أن القوة تضعف وتتلاشى أمام القوة الحقيقية لله عز وجل ، ولكن الطغاة المتكبرون لا يذكرون .

وبينما هم في هذا المشهد يعرضون عضلاتهم ويتباهون بقوتهم كان لابد من نهاية تقصم ظهر ذلك العجب وتقضي[٣] عليه .

---

(١) تفسير القرطبي (٣٤٧/١٥) .

(٢) في ظلال القرآن (٣١١٧/٥) .

(٣) انظر : نفس المصدر (٣١١٧/٥) بتصرف .

المطلب الثالث - نوع العقوبة :

لم يبق أمام سيدنا هود - عليه السلام - من طريق يسلكه في سبيل هداية قومه لدين الله وعبادته العبادة الحقة ، فلكم واجههم بالهدى ، ولوح لهم بالنور ، وحذرهم من لفحات السموم ونزغات الشيطان .

لقد حاول إنقاذهم من الهاوية التي يقودهم إليها الشيطان وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق ، فكانت نهايتهم المحتومة ومصرعهم الأليم ، ونجاة هود ومن معه من المؤمنين .

أولا : عظم هلاك عاد (قوم هود) :

عاش قوم هود في الأرض فسادا وطغيانا واستكبارا ، ووقتها تبين لهود - عليه السلام - تحجر عقولهم وتماديهم في عنادهم وجفائهم في أقوالهم وأفعالهم ، وهنا عرف سيدنا هود - عليه السلام - أنه لن يفلح في ثني قومه عن الضلالة ، ولم يرعوا للهداية ، وابتعدوا عنه معرضين ولأقواله مستنكرين حتى مرت فترة من الزمن ، حبس الله عنهم ما يحبون من الغيث ، فيبست زروعهم وذبلت أشجارهم ، فأرشدهم نبيهم إلى الاستغفار والتوبة ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك فسيرسل الله عليهم الغيث متتابعا ، فتكثر خيراتهم وتزداد قوتهم .

قال تعالى : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود:٥٢] فما زادهم ذلك إلا عنادا واستهزاء ، وعدلوا إلى إرسال وفد منهم إلى مكة يستسقي لهم .

روى الإمام أحمد بسنده عن الحارث البكري[١] وفيه قوله : « **أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد! قال : وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه . قلت : إن عادا قحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له : " قيل " فمر بمعاوية بن بكر**[٢] **فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان ، يقال لهما " الجرادتان " فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه ، فمرت به**

(١) الحارث بن حسان البكري ويقال : اسمه : حريث ، صحابي له وفادة ، ونزل البادية ، وكان يقدم الكوفة . روى له الترمذي والنسائي وابن ماجه . انظر : (تقريب التهذيب) للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ص"١٤٥" .

(٢) معاوية بن بكر العمليقي سيد العمالقة الذين كانوا بمكة في قديم الدهر . انظر : مجمع الأمثال للنيسابوري الميداني (٣٠٢/٢) ط الأولى ، دار الكتب العلمية ، وانظر : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي) (٢٦١/٤) ط المؤسسة المصرية العامة .

سحابات سود ، فنودي : منها " اختر " فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها : خذها رمادا رمددا ، لا تبقي من عاد أحدا ، قال : فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا . قال أبو وائل[1] : وصدق . قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدا لهم قالوا : « لا تكن كوافد عاد »[2] .

وفي أثناء هذه المدة لم يتوقف سيدنا هود – عليه السلام – من الدعوة إلى الحق ، والقوم معرضون لاهون إذ لمحوا سحابا أسود يعترض السماء فخفوا سراعا لرؤيته . وظنوه سحابا عارضا سيمطرهم – وكان المطر قد أبطأ عنهم – فتهيأوا لاستقباله ، وأعدوا مزارعهم لذلك ، ولكن حصل ما لم يكن بالحسبان ولا يخطر بالبال إذ صدق ما كان يقوله لهم هود – عليه السلام – إنه العذاب الذي استعجلوه وطلبوا نزوله على وجه التحدي .

قال الله تعالى يصف ذلك : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف:٢٤] .

عندها تبدد فرحهم واحتواهم الفزع وداخلهم الهلع ، حينما رأوا دوابهم ورحالهم البعيدة عنهم تحملهم الريح وتقذف بهم في مكان سحيق ، فهرعوا إلى بيوتهم خائفين رجاء أن يمنعهم من الهلاك ، وخاب رجاؤهم إذ دخلت عليهم بيوتهم واجتثتهم من أصولهم وحصونهم تأخذهم وتقذف بهم في أماكن متفرقة . وظلت حالهم كذلك ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة:٧] لا تأتي الريح على شيء إلا دمرته كما قال سبحانه : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٥] حتى أصبح القوم صرعى مجدلين متناثرين ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧] فارغة تآكلت أجوافها فارتمت

---

(١) أبو وائل : هو شقيق ابن سلمة الأسدي الكوفي ، ثقة مخضرم ، مات في خلافة عمر بن عبدالعزيز ، التقريب ص٢٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٦) . والحديث رواه أحمد في المسند (٣/٤٨٢) عن أبي وائل عن الحارث البكري . وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري (٩/٥٥١) .

ورواه الترمذي في سننه ، كتاب تفسير القرآن ، باب سورة الذاريات (٥/٣٩١) ، برقم [٣٢٧٣] ، [٣٢٧٤] بنحوه (٥/٣٩٢) ، ط المكتبة التجارية .

ورواه ابن ماجه أيضا عن أبي وائل ، عن الحارث بن حسان البكري به ، كتاب الجهاد ، باب الرايات والألوية (٢/٩٤١) ، برقم [٢٨١٦] .

وتفسير الطبري (١٢/٥١٣،٥١٦) ؛ وقصص الأنبياء المسمى " بعرائس المجالس " للثعلبي ص"٥٠".

ساقطة على الأرض هامدة ، إنه مشهد حاضر شاخص ، مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزمجرة المدمرة ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٨] لا يا رب ليس لهم من باقية[1] !!!

هذا ، وتسمى الريح التي أهلكت عادا بالدبور وهي التي تهب من جهة الغرب .

٥ فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **نصرت بالصبا**[2] **، وأهلكت عاد بالدبور** »[3] .

وعند ابن أبي حاتم بسنده من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: « **ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد** ١٠ **الريح وما فيها قالوا : هذا عارض ممطرنا ، فأتت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة** »[4] .

---

(١) في ظلال القرآن (٣٦٧٨/٦) .

(٢) الصبا : الريح الشرقية . مسلم بشرح النووي (١٩٨/٣) ، والدبور : الريح الغربية ، دار الكتاب العربي .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الاستسقاء ، باب قول النبي ﷺ : « **نصرت بالصبا** » (٣٢٥/١) ، برقم [١٠٣٥] ، [٣٢٠٥] ، [٣٣٤٣] ، [٤١٠٥] .

ورواه مسلم ، كتاب الاستسقاء ، باب في ريح الصبا والدبور (٦١٧/٢) ، برقم [٩٠٠] .

(٤) رواه ابن أبي حاتم (عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي) في تفسيره (٣٣٦٩/١٠) المسمى " تفسير القرآن العظيم " مسندا إلى النبي ﷺ والصحابة والتابعين .

وسنده قال : حدثنا أي : حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس حدثنا ابن فضيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر . قال ابن حجر في الفتح (٤٦٤/٦،٤٦٥) : –

وقد وقع هذا متصلا بحديث ابن عباس الذي في هذا الباب عند الطبراني (٤٢/١٢) برقم[١٢٤١٦] من طريق مسلم الأعور عن مجاهد عن ابن عباس . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن مسلم الأعور ، فتبين أن الزيادة مدرجة من مجاهد وجاء نحوها عن علي موقوفا ، أخرجه ابن أبي حاتم من طريقه قال : لم ينزل الله شيئا من الريح إلا بوزن على يدي ملك إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فعبت على الخزان . ومن طريق قبيصة بن ذؤيب (أحد كبار التابعين) نحوه بإسناد صحيح .... إلى أن قال : وفي الباب ثلاثة أحاديث : أحدها حديث ابن عباس وفيه : وأهلكت عاد بالدبور . وورد في صفة إهلاكهم بالريح ما أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر ، والطبراني من حديث ابن عباس رفعاه وذكره . فهذا ما ذكر من الأحاديث المرفوعة .

وأما الأحاديث الموقوفة :

فعند الحاكم بسنده من طريق قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – قال : ما أرسل الله على عاد من الريح ⇦

نجاة هود والمؤمنين :

قال الله تعالى في كتابه : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [الأعراف:٧٢]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود:٥٨] أي : ولما جاء موعد هلاك المجرمين من قومه نجينا هودا والذين آمنوا معه ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أي : برحمة من لدنا خاصة بهم مخالفة للعادة في أسباب النجاة من العذاب العارض الذي يصيب بعض الناس دون بعض .

فعند ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ [الأعراف:٧٢] بسنده لـ محمد بن إسحاق قال : واعتزل هو ومن معه من المؤمنين في حظيرة ؛ ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود ، وتلتذ الأنفس ، وأنها تمر من عاد بالظعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة[١] .

وعبر برحمة أيضا فيما سبق من هلاك قوم نوح بقوله سبحانه على لسان نوح - عليه السلام - : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود:٤٣] لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله لقوله ﷺ : « **لن ينجي أحدا منكم عمله** » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه** »[٢] .

=

إلا قدر خاتمي هذا . هذا صحيح الإسناد على شرط الشيخين و لم يخرجاه ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الأحقاف (٢/٤٩٤) ، برقم [٣٦٩٨] ، ووافقه الذهبي .

وهذا الذي ذكرناه له شاهد من قول كعب الأحبار بإسناد رجاله موثوقون عند أبي الشيخ في كتاب (العظمة) لأبي الشيخ الأصبهاني (عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان) (٤/١٣٣٣) ، برقم[٨٣٦] ، ط دار العاصمة الرياض ، تحقيق رجاء الله المباركفوري .

والمقصود بعد كل هذا : أن حديث ابن عمر وابن عباس في رفعهما نظر ، والأقرب كما قال ابن كثير أن يكون موقوفا على ابن عمر . انظر : (البداية والنهاية) (١/١٢٩) .

(١) انظر : (تفسير ابن أبي حاتم) (٥/١٥١١) ؛ وانظر : (تفسير ابن جرير) (١٢/٥١٣) ؛ والتاريخ له (١/٢٢٢) من طريق ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق في خبر طويل عن عاد ومهلكهم وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٢٦٦) ؛ وذكره السيوطي في الدر (٣/٩٦) ؛ والشوكاني (٢/٢١٩) عن وهب بن منبه بلفظ قريب .

(٢) تفسير القرطبي (٩/٥٤) ؛ تفسير المنار (١٢/١١٩) أما الحديث فقد رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل (٤/١٨٤) ، برقم [٦٤٦٣] .

ورواه مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله (٤/٢١٦٩) ، برقم [٢٨١٦] .

المطلب الرابع - الدروس المستفادة من عقوبة قوم هود - عليه السلام -:

أولا : نستنتج من قوله تعالى على لسان سيدنا هود : ﴿ قَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ ﴾ [الأعراف:٦٥] و [هود:٥٠] .

أن الأنبياء جميعا أول ما يدعون إليه عبادة الله وحده لا شريك له ، وهذا هو توحيد الألوهية ، وهي الكلمة التي لا تتبدل ، وهي قاعدة العقيدة التي لا توجد إلا بها ، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره ، وهي ضمان وحدة الوجه ووحدة الهدف ووحدة الرباط ، وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد .

إن دين الله منهج للحياة ، قاعدته أن يكون السلطان كله لله وهذا هو معنى عبادة الله وحده . والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه وتدبيره بقدرة الله وقدره . كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان وإنشائه وتدبير أمره بقدرة الله وقدره . وعلى نفس المستوى يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العملية الواقعية وقيامها على شريعته وأمره ، تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده ، كلها حزمة واحدة غير قابلة للتجزئة ، وإلا فهو الشرك الصراح وهو عبادة غير الله معه ، أو من دونه[1] .

وعلى هذا فإنه ينبغي للدعاة إلى الله من محتسبين ومعلمين ووعاظ ومرشدين التأكيد على وحدانية الله - تعالى - وبثها في نفوس الناس في كل مناسبة ، والتحذير من الأمور التي تقدح في مفهومها أو تؤولها على غير حقيقتها بأن يكون العبد مرة متوجها لله سبحانه ومرة يستريح فيها من عناء العبادة أو فصل حقيقتها ومفهومها عن الحياة الاجتماعية أو السياسية[2] .

---

(١) في ظلال القرآن (١٣٠٨/٣) ، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه ، عبد القادر عودة ، ص"١٢" ، ط دار القرآن الكريم ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

(٢) وهو ما يسمى اليوم بالعلمانية ، ومعناها : فصل الدين عن الحياة .

أو هي : إقامة الحياة على غير الدين . انظر : (العلمانية : نشأتها تطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة) ، تأليف : سفر بن عبد الرحمن الحوالي ص"٢٤" ، ط مؤسسة قرطبة .

فالدين الحق لا يمكن أبدا أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة ، فالالتزام بالشريعة - في دين الله الحق - هو مقتضى العقيدة ذاتها ، مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، بحيث لا تكون الشهادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى ، وهو الالتزام بما جاء من عند الله والتحاكم إلى شريعته ورفض التحاكم إلى أي شريعة أخرى سوى شريعة الله[١] .

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] .

ثانيا : ينبغي للدعاة إلى الله إبلاغ الناس أنه لا مصلحة دنيوية تعود عليهم من وراء دعوتهم للناس ، وإنما قصدهم الوحيد هو هداية البشر إلى دين الله يفهم هذا من قول الرسل جميعا لأقوامهم : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود:٥١] .

وفي مسارعة هود وغيره من الرسل جميعا إلى إبلاغ أقوامهم بذلك يشعر أنه كان بناء على اتهام له أو تلميح بأنه يبتغي أجرا أو كسب مال من وراء دعوته وكان التعقيب ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ للتعجب من أمرهم! وهم يتصورون أن رسولا من عند الله يطلب رزقا من البشر ، والله هو الرزاق الذي يعطي عباده الفقراء المؤمنين[٢] .

ثالثا : طلب الغيث من الله تعالى يسبقه توبة واستغفار .

يفهم ذلك من قول الله تعالى على لسان نبيه هود : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود:٥٢] .

فعلى الدعاة إلى الله تعالى دعوة الناس إلى الإكثار من الاستغفار والتوبة ؛ لأن الاستغفار فيه تكفير للذنوب السالفة والتوبة عما يستقبلون . قال أبو بكر الأصم : (استغفروا) أي : سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم ، ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى ، وبالعزم على أن لا تعودوا إلى مثله[٣] ؛ لأن فعل ذلك يكثر النعم ويقوي الإنسان على الانتفاع .

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ص"٤٩٦"، ط دار الشروق .

(٢) في ظلال القرآن (١٨٩٧/٤) .

(٣) تفسير الرازي (١١/١٨) ، وأبوبكر الأصم شيخ المعتزلة له كتاب في التفسير وكتاب خلق القرآن ، ⇦

وهناك آيات أخرى ربطت بين الاستغفار وهذه الأرزاق : منها قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

وجاء في موضع قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [المائدة:٦٥-٦٦] وجاء في موضع ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود:٢-٣] .

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة ، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة ، والواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون ، والحديث فيها عن الأمم لا الأفراد ، فما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته فحققت العدل والأمن للناس جميعا ، إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء[(١)] .

وكذلك وردت أحاديث كثيرة جمعت بين التوبة والاستغفار ، منها :

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة** »[(٢)] .

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف** »[(٣)] .

= وكتاب التوحيد ، وغيرها كثير توفي سنة مائتين للهجرة وقيل سنة إحدى ومائتين . انظر : (كتاب الفهرست) لابن النديم (أبوالفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق) المعروف بالوراق ص"٢١٤" ط دار الميره ، سير أعلام النبلاء (٩/٤٠٢) .

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٧١٣) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الدعوات ، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٤/١٥٤) ، برقم [٦٣٠٧] .

(٣) رواه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب في الاستغفار (٢/١٧٨) ، برقم [١٥١٧] .

لذا فإنه ينبغي للداعية المسلم وغيره من المسلمين عامة أن يبادروا إلى الاستغفار والتوبة كلما ألم الإنسان بذنب بشرطه قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥] الشاهد ﴿ وَلَمۡ يُصِرُّواْ ﴾ قال ابن حجر : « فيه إشارة إلى أن من شرط قبول الاستغفار أن يقلع المستغفر عن الذنب ، وإلا فالاستغفار باللسان مع التلبس بالذنب كالتلاعب »[1] .

رابعا : على الداعي إلى الله – تعالى – أن لا يقابل الشر بمثله ؛ بل يحمل نفسه على الحكم على الجاهلين ، وعليه أن يستعمل الحلم في الرد عليهم في جميع ما يتهم به ، ثم لينظر إلى ما قاله قوم هود له : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦٦] فأجابهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ ﴾ [الأعراف:٦٧-٦٨] فمن تأمل هذا الرد وجد تشابها كبيرا[2] بين رد نوح على قومه يوم أن قال : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٦١] وبين رد هود على قومه مع طول المدة التي كانت بينهما ، فما أشبه الاتهامين السيئين ! وما أطيب الردين ! كأنهما خرجا من مشكاة واحدة ، ولا ريب فإنها مشكاة النبوة .

خامسا : على الداعي المسلم أن يحذر مدعويه من التقليد الأعمى الذي لا يستند إلى شيء من المعقول ، وهكذا فعل هود – عليه السلام – حينما قال لقومه العابدين للأصنام : ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا

=

– رواه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب في دعاء الضيف (٥/٥٦٩) ، برقم [٣٥٧٧] .

– ورواه الحاكم ، كتاب الجهاد ، فضيلة الاستغفار ثلاثا (٢/١١٨) ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب ، أخرجه من طريق آخر في كتاب البناء (١/٥١١) . قال الحافظ ابن حجر : وإسناده جيد متصل . انظر : (الترغيب والترهيب من الحديث الشريف للمنذري) (عبدالعظيم بن عبدالقوي) (٢/٤٧٠) ، ط مؤسسة التاريخ العربي .

(١) فتح الباري (١٢/٣٧٦) ، ط المكتبة التجارية .

(٢) انظر : (لطائف سورة الأعراف) ص"١٢٢،١٧٣" .

مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ [الأعراف:٧١] فلما أصروا على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفرا ورجسا وغضبا(١) .

وقد حذر القرآن الكريم من التقليد والتبعية المذمومة فقال :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٠] وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [المائدة:١٠٤] .

وقوله : ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ ﴾ [الزخرف:٢٢-٢٣] .

هذا هو مبدأ التبعية المقوتة حين تواجه بالحق الصراح . إن قولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢] ، « مقتدون » . قولة تدعو إلى السخرية ، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة . إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد ، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل(٢) .

وحتى القبيلة تحل وتحرم لهم من دون الله فيقلدونها دون تفكر ولا تدبر حتى قال شاعرهم(٣) :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومعناه : أنه لا يوجد عنده معيار للرشد أو الغي إلا ما تقوله قبيلته « غزية » ؛ بل معناه أسوأ من ذلك في الحقيقة . معناه : أن القبيلة هي التي تحل له وتحرم ، فإن غوت فهو يغوي معها ، مع علمه بأنها غاوية ؛ لأن الغي يصبح في نظره حلالا ما دامت القبيلة قد فعلته . وإن رشدت فهو يرشد معها ، لا لأنه يرى أن الرشد هو الأصلح ، بل لأن القبيلة قد فعلته فهو الحلال في هذه اللحظة .

وقد دخل عدي بن حاتم والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] .

---

(١) التفسير الكبير (١٤/١٦٠) ، دار التراث العربي .

(٢) في ظلال القرآن (٥/٣١٨٢) .

(٣) هو : دريد بن الصمة بن الحارث بن معاوية ، كان فارسا شجاعا ، عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام و لم يسلم ، قتل يوم غزوة حنين كافرا . انظر : (الحماسة) لأبي تمام بن أوس الطائي (٣٩٦/١،٣٩٧) ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود .

فقال : إنهم لم يعبدوهم : فقال : بلى « إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم »[١] .

سادسا : على الداعي المسلم أن يتبرأ من الشرك وأهله نلحظ ذلك من قول الله – تعالى – : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ ﴾ [هود:٥٤-٥٥] .

هذا الجواب يتضمن عدة مسائل[٢] :

أحدهما : البراءة من شركهم أو شركائهم التي افتروها ولا حقيقة لها .

الثانية : إشهاد الله على ذلك لثقته بأنه على بينة منه فيه . وإشهاده إياهم عليه أيضا لإعلامهم بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه ؛ لأنه متوكل على الله .

الثالثة : قوله : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود:٥٥] إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده فهو لا يخافهم ولا يخاف آلهتهم ، ألا فليكيدوا كيدهم ولا يؤخروا الفتك به إن استطاعوا .

وإننا لنعجب من هذا التحدي لفرد واحد أمام قوم غلاظ شداد حمقى ، ولا أحد يفعل ذلك إلا وهو واثق من نصر الله له .

---

(١) رواه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة التوبة (٢١٨/٥) وهو حديث حسن .

وذكره الطبري في تفسيره من عدة طرق (٢٠٩/١٤،٢١٠،٢١١) ؛ وانظر : (الطبراني الكبير) (٩٢/١٧) ، برقم [٢١٨] .

ورواه البيهقي في سننه " السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي " (١١٦/١٠).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤١٥/٣) وقال ورواه الترمذي وحسنه . والصواب أنه قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث . اهـ

غير أن للحديث شواهد يتقوى بها كما في تفسير ابن جرير وغيره ليرتقي إلى درجة الحسن . انظر : (جامع بيان العلم وفضله) لأبي عمر : يوسف بن عبد البر ، تحقيق أبي الأشبال الزهيري (٩٧٥/٢،٩٧٦) .

وانظر : (صحيح سنن الترمذي) (٥٦/٣) .

(٢) تفسير المنار (١١٧/١٢) .

إنه الإيمان والثقة والاطمئنان . الإيمان الذي يخالط القلب ، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب ، لا يشك فيها لحظة ؛ لأنها ملء يديه وملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعدا للمستقبل ، إنما هو حاضر واقع تتملاه العين والقلب(١) .

قلت : وهكذا الداعية المسلم والمؤمن الحق ، لا يرهب ولا يخاف إلا الله ، قوي في إيمانه ، قوي في الثبات على مبدئه لتبليغ دين الله مهما كانت التضحيات .

ثم إن أصحاب الدعوة إلى الله لابد وأن يجدوا حلاوة معرفة ربهم في نفوسهم ؛ حتى يستطيعوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم ، وأمام القوة المادية وقوة الصناعة ، وقوة المال ، وقوة العلم البشري ، وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات وهم مستيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة ، وأن الناس – كل الناس – إن هم إلا دواب من الدواب(٢) .

سابعا : ومنها : أن اتخاذ المباني للفخر والخيلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الطغاة كما ذكر الله عن عاد وإنكار هود عليهم قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٢٩] .

وللبيان فإن اتخاذ القصور والحصون والدور وغيرها من الأبنية لها ثلاثة أمور يحكم عليها من خلالها :

أ – إما أن تتخذ مساكن للحاجة إليها ، والحاجات تتنوع وتختلف ، فهذا مباح ؛ بل يكون الإنسان مأجورا على فعل ذلك إذا نوى به خيرا .

ب – وإما أن تكون واقية لشرور الأعداء ، وثغورا تحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين ويقيهم الشر ، فهذا من الجهاد في سبيل الله ، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء .

جـ – وإما أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في طرق نافعة ، فهذا هو المذموم الذي أنكره الله على عاد(٣).

(١) في ظلال القرآن (١٨٩٩/٤) .

(٢) نفس المصدر (١٩٠٦/٤) .

(٣) تيسير اللطيف المنان ص"١٥٣" .

ثامنا : أن الله بحكمته - جل جلاله - يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها ، والقرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير ، ومع أن الأقطار البعيدة عنا قد حصل لهم ما حصل من إجابة ورد وعقوبة وإكرام ، ولكن ينفعنا ويوقظ حسنا وفطرتنا ما نشاهد من آثارهم ، ونمر بديارهم كل وقت نفهم لغاتهم وطبائعهم ، لا ريب أن نفع هذا عظيم في تذكيرنا بحالهم من قوم بعيدين عنا ولا نفهم لغاتهم ولا نعرف طبائعهم ، فيفهم من هذا : أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأحوالهم وأدخل في مداركهم وأنفع لهم من غيره أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقا .

ويؤخذ من ذلك أيضا : أن المعلم والمذكر إذا سلك هذا الطريق واجتهد في إيصال العلم والخير للناس بالوسائل التي يفهمونها ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لإقامة الحجة عليهم نفع وانتفع ، ولقد أشار القرآن إلى هذا في آخر قصة عاد حيث قال : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ ﴾ [الأحقاف:٢٧] أي : نوعناها بكل نوع وفن ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٧] أي : ليكون أقرب لحصول الفائدة[١] .

تاسعا : أن العقول الذكية والأذهان اللامعة وما يتبعها من القوة المادية ثم ما يترتب عليها من النتائج والآثار وإن عظمت فإنها لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الإيمان بالله ورسوله ، وأما الجاحدون لآيات الله والمكذبون لرسل الله وإن استدرجوا وأمهلوا في الحياة فإن عاقبتهم كبيرة ، ولن يغني سمعهم وأبصارهم وعقولهم عنهم شيئا إذا جاء أمر الله كما قال عن عاد : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف:٢٦] .

وفي الآية الأخرى : ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾[٢] [هود:١٠١] .

(١) المرجع السابق ص"١٥٣" .

(٢) تيسير اللطيف المنان ص"١٥٣،١٥٤" .

المبحث الثالث

عقوبة قوم صالح - عليه السلام -

تمهيد :

قوم صالح هم : أهل ثمود[1] من قبائل العرب العاربة[2] الذين سكنوا (الحجر) بين الحجاز وتبوك . وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين سنة تسع للهجرة[3] .

فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : **لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا منها القدور . فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : « إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم »**[4] .

وقد أخبرنا الله – تعالى – عن نزول ثمود الحجر واتخاذهم فيه بيوتاً لهم ، نحتوها في جوف الصخر من تلك الجبال قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ

---

(١) قال الراغب الأصفهاني : « ثمود : قيل : هو عجمي . وقيل : هو عربي ، وترك صرفه لكونه اسم قبيلة ، وهو فعول من الثمد : وهو الماء القليل الذي لا مادة له » . انظر : (المفردات في غريب القرآن) (٧٨) ، مادة " ثمد " ، ط دار الفكر ؛ وانظر : (التفسير الكبير) (١٦١/١٤) .
وأطلق اسم ثمود على قوم صالح – عليه السلام – وذلك لأن جدهم الأكبر كان اسمه ثموداً ، وهو كما يقول ابن كثير : أخو جديس وهما ابنا جاثر بن أرم بن سام بن نوح – عليه الصلاة والسلام – . وانظر : (تاريخ ابن خلدون) (٢٤/٢) ، ط دار الكتاب ؛ انظر : (تاريخ الطبري) لـ محمد بن جرير الطبري (٢١٦/١) ، ط الثانية ، دار المعارف ، مصر ؛ البداية والنهاية (١٣٠/١) ؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦٨/١٠ ؛ ط دار الكتب العلمية .

(٢) العرب ينقسمون إلى قسمين : الأول : العرب العاربة : وهم الذين عرفوا منذ القدم بنطق العربية أصالة . الثاني : العرب المستعربة : وهم من انتقلت إليهم العربية ممن كان قبلهم ، فاعتبرت فيها الصيرورة بمعنى : أنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم ، وهم أبناء قحطان حيث يرجع نسبهم إليه . انظر : (تاريخ ابن خلدون) (٥٢/٢) ، ط دار الفكر .

(٣) تفسير ابن كثير (٢٣٧/٢) ؛ تفسير المنار (٥٠١/٨) .

(٤) رواه الإمام أحمد (١١٧/٢) وسوف نستوفي الأحاديث عن ذلك في الدروس المستفادة من ذلك .

ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الحجر:٨٠-٨٢] وقال سبحانه : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ [الفجر:٩] والمراد بالواد هنا : (وادي القرى)[1] الذي يقع بين المدينة وتبوك[2] .

قال جميل بثينة :

أقول لداعي الحب والحجر بيننا   ووادي القرى لبيك لما دعانيا[3]

وثمود قوم اتخذوا الأصنام عبادة لهم من دون الله ، فأرسل الله – تعالى – إليهم رسولا منهم هو صالح – عليه السلام – فأمرهم بتوحيد الله وعبادته دون سواه ، فلم يؤمن له منهم إلا القليل ، وقتلوا الناقة واستعجلوا العذاب ، فأهلكهم الله بذنوبهم ، ولم يبق منهم أحدا ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه برحمة منه .

المطلب الأول – الآيات التي ذكرت عقوبتهم :

ذكر في القرآن الكريم قسمان من الآيات :

قسم أشار إلى عقوبتهم دون تفصيل كما في سور :

(التوبة ، إبراهيم ، الإسراء ، الحج ، الفرقان ، العنكبوت ، ص ، وغافر ، وفصلت ، ق ، النجم ، الحاقة ، البروج ، الفجر) .

فسورة التوبة : جاء ذكرهم في معرض ذكر الأقوام المكذبين ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة:٧٠] .

وكذلك في سورة إبراهيم : قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم:٩] .

(١) تفسير الجلالين لـ جلال الدين محمد بن أحمد المحلي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ص"٨٠٦" ، ط دار المعرفة ، بيروت ؛ وتفسير فتح القدير للشوكاني (٥/٤٣٥) .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/٢٢١) ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٥ هـ . والحجر بكسر الحاء وسكون الجيم وراء اسم ديار ثمود .

(٣) شرح ديوان جميل بثينة ، لجميل بن معمر ص"١٣٨" ، ط دار صادر (حرف الياء) .

وسورة الإسراء : قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء:٥٩] .

والحج : قال تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٤٤] .

وسورة الفرقان : قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٨] .

وسورة العنكبوت : قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٨] .

وسورة ص : قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص:١٢-١٤] .

وسورة غافر : قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [غافر:٣٠-٣١] .

وسورة فصلت : قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت:١٧] .

وسورة ق : قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [ق:١٢-١٣] .

وسورة النجم : قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [النجم:٥٠-٥١] .

وسورة الحاقة : قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [الحاقة:٤-٥] .

وسورة البروج : قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [البروج:١٧-١٩] .

وسورة الفجر : قال تعالى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ [الفجر:٩].

والناظر المتمعن في هذه الإشارات يجد :

أولاً : تناسب الآيات مع سياق كل سورة .

ثانياً : جاء ذكر ثمود في معرض ذكر الأقوام المكذبين .

ثالثاً : تحدثت بعض الآيات عن عذابهم مرة بالرجفة ، ومرة بالصيحة ، ومرة بصاعقة العذاب الهون ، ومرة بالصاعقة وحدها ، وأخيراً بالطاغية .

والجمع بينها : أن لنزول الصاعقة صيحة شديدة القوة والطغيان ، ترجف من وقعها الأفئدة ، وتضطرب أعصاب الأبدان ، وربما اضطربت الأرض وتصدع ما فيها من بنيان[1] .

رابعاً : لا يكاد يخلو ذكر ثمود إلا مقروناً بالمكذبين من قبلهم وخاصة عاد ، إلا ما كان في سورة الإسراء فقد كانت الإشارة إلى ثمود متسقة مع سياق السورة ؛ لذا جاءت منفردة عن ذكر الأقوام الآخرين . والله أعلم .

القسم الثاني : السور التي فصلت عقوبتهم وبينت سببها ونوعها ونجاة صالح – عليه الصلاة والسلام – .

أولاً : سورة الأعراف :

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ

---

(١) انظر : (تفسير المنار) (٨/٥٠٦) واسمه " تفسير القرآن الحكيم " لـ محمد رشيد رضا ، ط دار الفكر التفسير الواضح (٨/٧٣) لـ محمد محمود حجازي ؛ قصص الأنبياء ص"٦٦" عبد الوهاب النجار ؛ التحرير والتنوير (٥/٢٢٧) ؛ الأساس في التفسير (٥/٢٥٧٦) لـ سعيد حوى ، ط دار السلامة .
إذاً فما وصفه القرآن للصاعقة بأخبار شتى ما هو إلا خبر دقيق يصف آثارها وعواملها ومظاهرها .
انظر : (كتاب مع الأنبياء في القرآن) ، عفيف عبد الفتاح طبارة ص"٩٧" ، ط دار العلم للملايين .

ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:٧٣-٧٩] .

لطائف الآيات :

أولا : صالح – عليه السلام – يدعو قومه إلى عبادة الله وحده كما فعل نوح وهود – عليهما السلام – كما قال ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أي : ولقد أرسلنا نوحا ، وإلى عاد أخاهم هودا ، وإلى ثمود أخاهم صالحا[١] .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [الأعراف:٧٣] وهذه الزيادة مذكورة في هذه القصة ، وهي تدل على أن من كان قبله من الأنبياء كانوا يذكرون الدلائل على صحة التوحيد والنبوة ، لأن التقليد وحده لو كان كافيا لكانت تلك البينة ههنا لا معنى لها[٢] .

ثالثا : الآية التي جاءهم بها بينة على صدق نبوته « الناقة » ؛ فإن قيل : إن كانت آية لكل أحد ، فلماذا خص أولئك الأقوام بها ؟ فقال : ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً ﴾ ؟

فالجواب من وجهين :

أولها : أنهم عاينوها وغيرهم أخبروا عنها ، وليس الخبر كالمعاينة .

ثانيها : أن القوم اقترحوا هذه المعجزة فأظهرها تعالى لهم ، فلهذا المعنى كان التخصيص[٣] .

رابعا : إن قيل : ما الفائدة في تخصيص تلك الناقة بأنها ناقة الله ؟ وأرض الله ؟

فالجواب : إن الله أضافها إليه تشريفا كقوله : بيت الله ، أو لأنه خلقها بلا واسطة ، أو لأنه لا مالك لها غير الله ، أو لأنها حجة الله على القوم .

وأما تخصيص الأرض بأنها أرض الله ؛ فلأن للناقة حقا في الأكل[٤] من الأرض ؛

---

(١) التفسير الكبير (١٦١/١٤) .

(٢) التفسير الكبير (١٦٢/١٤) .

(٣) التفسير الكبير (١٦٣/١٤) .

(٤) قال تعالى : ﴿ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:٦٤] ترى أن الفعل هنا (تأكل) مجزوم بدون جازم فلم ؟ والجواب : أن أصله جواب الأمر بتقدير : إن تذرها تأكل . كما في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم:٣١] أي : يقيمون الصلاة . انظر : (التحرير والتنوير) (٢١٩/٨) .

لأنها لله وهي من مخلوقاته .

خامساً : نلمح في الآيات أن صالحاً - عليه الصلاة والسلام - يذكر قومه أثر النعمة والتمكين في الأرض ؛ حيث كانوا أصحاب حضارة عمرانية كبيرة ، حيث كانوا ينحتون الجبال بيوتاً لهم ، وهذا من نعم الله عليهم ، حيث لم يسبقوا بمثل فعل ذلك إضافة لما أعطوا من قوة البدن .

سادساً : قتلهم للناقة حقداً وحسداً وطلبهم العذاب بطريقة تنم عن تبجحهم وعتوهم وعنادهم .

سابعاً : قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٧٨] وقال عنهم في سورة هود : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود:٦٥] وقال في قصة شعيب - عليه الصلاة - والسلام في سورة الأعراف : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٩١] وقال في سورة هود : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٦٧] .

لسائل أن يسأل عن توحيد الدار في موضع ، وجمعها في موضع ، وهل هناك فرق بينهما ؟

والجواب : أنه يجوز الجمع والتوحيد ، وذلك بأن يراد بدارهم بلدهم . فيفرد ذهاباً إلى معنى الدار ، أو يراد به الجنس كما تقول : « دينارهم شر من درهمهم » فجمع بين الإفراد والجمع في مثال واحد .

وأما عن الآيات الواردة معنا هنا فالجواب عنها : أن الله - تعالى - وحد في كل مكان ذكر في ابتدائه : وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، وإلى مدين أخاهم شعيباً ، ولم يذكر إخراج النبي ومن معه من بينهم ، فجعلهم أبناء أب واحد ، وجعلهم أهل دار واحدة ، ورجا أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة . وكل موضع أخبر عما حصل بينهم من تفريق وإخراج أخبر عنهم الأخبار الدالة على تفرق شملهم وتشتت أمرهم وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٦٧) ﴾ [هود:٦٦-٦٧] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٩٤] .

فإن قيل : ها هو في سورة الأعراف أفرد كلمة (الدار) حين قال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٧٨] وقد خرج شعيب – عليه السلام – من بينهم وتفرق شملهم ، فكان لابد من الجمع على ما ذكرتموه !

والجواب عنه : أنه لم يرد في هذا الموضع ذكر إخراجه من بينهم مع الذين آمنوا معه كما ذكر في الموضعين الآخرين في سورة هود وفي قصته فيها[1] .

والخلاصة :

أنه أفرد كلمة (الدار) في سورة الأعراف قبل أن يخبر بنجاة من آمن معه منهم ، والثاني أنه جمع في الموضع الذي ذكره بقصته مع المؤمنين وخروجه معهم .

ثامنا : قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾ [الأعراف:٧٩] هذا عن صالح – عليه السلام – وقال في قصة نوح ، وهود ، وشعيب – عليهم السلام – ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ [الأعراف:٦٢،٦٨،٩٣] فما الفرق ؟

والجواب : أن قصة الأنبياء (نوح ، هود ، شعيب) تضمنت أنواعا من التبليغات وإن لم يذكر هنا مع طول مدة نوح – عليه السلام – وكثرة تبليغات هود وشعيب فجمع لذلك . أما قصة صالح – عليه السلام – فلم يكن لها ذلك حيث ركزت على أمرين مهمين : الأول : عبادة الله وحده وطاعته ، والثاني : عدم التعرض للناقة فأفرد[2] ؟

تاسعا : قوله تعالى : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ [الأعراف:٦٢،٦٨،٩٣] في قصة نوح وهود بلفظ المستقبل ، وفي قصة صالح وشعيب ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ ﴾ [الأعراف:٧٩،٩٣] بلفظ الماضي ، فما الفرق ؟

والجواب : لأن ما في قصة نوح وهود وقع في ابتداء الرسالة ، وقصة صالح وشعيب وقع في آخر الرسالة وقرب العذاب ؛ لأنه جاء بعدها ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ [الأعراف:٩٣] في القصتين[3] .

---

(١) انظر : (درة التنزيل وغرة التأويل) ص"١٣٤،١٣٥" .

(٢) كشف المعاني ص"١٨٠" .

(٣) البرهان في متشابه القرآن ص"١٨٩" ، وانظر : (درة التنزيل) ص"١٣٦" .

ثانياً : سورة هود :

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود:٦١-٦٨] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود:٦١] أي : خلق آدم من الأرض ؛ لأن إنشاءه إنشاء لنسله ، وتقدم هذا إلا أنه زاد هنا : واستعمركم فيها ، أي : جعلكم عمّاراً فيها[1] ، فالسين والتاء للمبالغة .

﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:٦١] أي إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة ، ورغب إليه في التوبة مجيب له إذا دعاه[2] .

ثانياً : هنا في سورة هود ذكر ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ [هود:٦٣] وفي قصة نوح قال : ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ [هود:٢٨] فما وجه تقديم منه على رحمة هنا (في سورة هود) وتأخير من عنده عن رحمة في قصة نوح .

والجواب : لأن ذلك مع ما فيه من التفنن بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل إلا أن إخراج لطائف الكتاب المكنون يزيد من وضوحه وبلاغته في وضوح الدلالة ودفع أي لبس .

---

(١) تفسير ابن جرير (١٥/٣٦٨) .

(٢) التحرير والتنوير (١٥/٣٦٩) .

فلما كان مجرور " من " الابتدائية ظرفاً وهو " عند " كان صريحاً في وصفها بصفة تدل على الاعتناء الرباني بها وبمن أوتيها .

ولما كان المجرور هنا ضميراً كان الأحسن أن يقع عقب فعل " آتاني " ليكون تقييد الإيتاء بأنه من الله ، يشير إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتي ؛ إذ لولا ذلك لكان كونه من الله تحصيلاً لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه ، فتعين أن يكون المراد إيتاءً خاصاً .

ولو جاء " منه " عقب " رحمة " لتوهم السامع أن ذلك عوض عن الإضافة أي : عن أن يقال : وآتاني رحمته ، كقوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [مريم:٢١] أي : ورحمتنا لهم ، أي : لنعظهم ونرحمهم[1] .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا ﴾ [هود:٦٦] وقال في قصة لوط كذلك " بالفاء " وفي قصة هود قال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ [هود:٥٨] وقال في قصة شعيب كذلك بالواو ، فما الفرق ؟

والجواب : لأن العذاب في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [هود:٥٧] .

وفي قصة شعيب ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود:٩٣] قارنه التسويف فجاء بالواو .

وأما هنا في قصة صالح ولوط أيضاً وقع العذاب عقيب الوعيد ، قال تعالى : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ﴾ [هود:٦٥] وفي قصة لوط ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود:٨١] فجاء بالفاء للتعقيب والتعجيل .

رابعاً : قال تعالى في قصة صالح – عليه السلام – : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود:٦٣] وقال في نفس السورة في قصة شعيب : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود:٩٤] .

للسائل أن يسأل عن اختلاف الفعلين في اتصال علامة التأنيث بأحدهما وسقوطها من الآخر مع أن الفاعل في الموضعين شيء واحد ، ومع أن الحاجز بين الفعل والفاعل في المكانين واحد وهو ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ فكيف ؟

والجواب : أن مثل هذا جاء في كلام العرب ، سَهلُ الملام فيه لحمله على المعنى ، والصيحة بمعنى : الصياح .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١١١-١١٢) .

كقول الشاعر :

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت[1]

فحمل على المعنى ؛ إذ الصوت بمعنى الصيحة ، غير أن السؤال الذي لابد منه هو هل كان بالإمكان أن يحل مكان أخذت أخذ؟ وهل لذلك جل فائدة لإبقائه على ما هو عليه بتاء التأنيث ؟

والجواب : أن الله – تعالى – أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب – عليه السلام – بثلاثة ألفاظ : منها : (الرجفة) في سورة الأعراف في قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ [الأعراف:٩٠-٩٢] وذكر ذلك قبله في مكان آخر . ومنها : (الصيحة) في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٩٤] . ومنها : (الظلة)[2] في سورة الشعراء في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء:١٨٩] فلما اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به ، غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات من قصة صالح – عليه السلام – مع قومه[3] .

خامسا : ترى أن سياق الآيات هنا لا يطيل بين إعطائهم الناقة وبين قتلهم إياها وأخذهم بالعذاب ؛ لأنها أي : المعجزة لم تحدث في نفوسهم تجاه الدعوة تغييرا يذكر ، بدليل فاء التعقيب في كل الخطوات ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ [هود:٦٤] ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُواْ ﴾ [هود:٦٥] فهنا عبر بالفاء التعقيبية عن أن العذاب لم يتأخر[4] .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود:٦٦-٦٧] .

---

(١) البيت لرويشد بن كثير الطائي ، ويقال : إنه لعمرو ابن معد يكرب – انظره في حماسة أبي تمام (حبيب بن أوس الطائي) (١٠٢/١) برقم [٣٢] .

(٢) سنفرد له مطلبا خاصا في الحديث عن عقوبة قوم شعيب – عليه السلام – .

(٣) درة التنزيل ص"١٨٦،١٨٧" .

(٤) في ظلال القرآن (١٩٠٨/٤) .

ثالثاً : سورة الحجر :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : أهم ما ذكرته الآيات هنا مميزاً هو ذكر مكان قوم صالح – عليه السلام – وهو (الحجر) الذي يقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وهي ظاهرة إلى اليوم ، وبها كانت منازل ثمود[1] .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ في هذه الآية إشارة إلى أن النظر والاستدلال واجب وأن التقليد مذموم[2] .

ثالثاً : جمع الآيات في قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ مراد به الجنس ، وهي آية الناقة ، أو أريد : أنها تشتمل على آيات في كيفية خروجها وحياتها ورعيها وشربها[3] .

رابعاً : في قوله ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ حال مقدرة من ضمير ﴿ يَنْحِتُونَ ﴾ فقد كانوا مقدرين أن يكونوا آمنين[4] ، بنحتهم لها داخل الصخور وبأنها سوف تنجيهم من كل مكروه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد[5] .

رابعاً : سورة الشعراء :

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا

---

(١) انظر : (معجم البلدان) لـ ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (٢/٢٥٥) ، برقم[٣٥١٨] حرف الحاء ، ط الكتب العلمية ؛ والبداية والنهاية لأبي الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير (١/١٣٠) .

(٢) التفسير الكبير (١٩/٢٠٤) .

(٣) انظر : (التحرير والتنوير) (١٤/٧٣) .

(٤) المصدر السابق (١٤/٧٤) .

(٥) تفسير الكشاف (٣/٥٨٦) .

تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

[الشعراء: ١٤١-١٥٩] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : في الآيات تذكير لهم بنعم الله عليهم ؛ حيث أنعم عليهم بمقومات حياتهم الأساسية من زروع متنوعة ونخيل جيدة الطلع سهلة الهضم ، حتى لكأن جناها مهضوم لا يحتاج إلى جهد في البطون . والاستفهام في ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ للإنكار عليهم الركون إلى الدنيا ، وظن الخلود فيها آمنين طامعين فيها تاركين غافلين عن الدار الآخرة .

ثانيا : إن قيل : لم قال ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله : في جنات ؛ والجنة تتناول النخل ؟

فالجواب : أنه خص النخل تنبيها لفضله على سائر الأشجار . والثاني : أنه أراد بالجنات غيرها من الشجر ثم يعطف عليها النخل . لأن اللفظ يصلح لذلك[1] .

ثالثا : في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ إن قيل : ما فائدة قوله ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ؟

فالجواب : فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح ، ليس كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح[2] .

رابعا : قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ جاء قوله : ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ إن قيل : لم أخذهم العذاب وقد ندموا وقد قال - عليه الصلاة والسلام -

(١) التفسير الكبير (١٥٩/٢٤) ؛ وانظر : (التحرير والتنوير) (١٧٥/١٩) .

(٢) التفسير الكبير (١٥٩/٢٤) .

« الندم توبة »[1] .

فالجواب : أنه لم يكن ندم توبة ؛ إنما هو ندم الخائف من العذاب ؛ فلذلك لم ينفعهم . ثم إن سلمنا بأنه كان ندم توبة ؛ ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة بل عند معاينتهم العذاب[2] .

خامسا : سورة النمل :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل:٤٥-٥٣] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : تشاؤمهم من صالح - عليه السلام - ومن معه في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ ولم تذكر من قبل .

ثانيا : ذكر القرآن عدد النفر الذين أرادوا قتل صالح - عليه السلام - في تسعة رهط تشاوروا في مباغتته وقتله قبل أن يأتيهم العذاب .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ إن قيل : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟

---

(١) الحديث رواه أحمد في المسند (١/٣٧٦،٤٣٣) ، برقم [٣٥٦٨ ، ٤١٢٤] قال أحمد شاكر : إسناده صحيح .

ورواه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة (٢/١٤٢٠) ، برقم [٤٢٥٢] .

ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين لـ محمد بن عبد الله الحاكم (٤/٢٧١) ، برقم[٧٦١٢] ، [٧٦١٣] وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) التفسير الكبير (٢٤/١٦٠) .

فالجواب : كأنهم اعتقدوا أنهم إذا جمعوا بين البيانين ثم قالوا : ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ فإنهم يعنون : ما شهدناه وحده ، فإنهم يكونون صادقين ؛ لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله[1] .

رابعا : هذا الجزء[2] من قصة (ثمود) لم يذكر في غير هذه السورة ، وربما يكون له سبب في قرب تآمر المشركين على النبي محمد ﷺ وهو التآمر الذي حكاه الله في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] فضرب الله لهم مثلا بتآمر الرهط من قوم صالح عليه ومكرهم وكيف كان عاقبة مكرهم ، ولذلك ترى بين الآيتين تشابها ، وترى تكرير ذكر مكرهم ومكر الله بهم قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾[3] [النمل:٥٠-٥١] .

خامسا : نلحظ في تأخير جملة ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل:٥٣] عن جملة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل:٥٢] طمأنة لقلوب المؤمنين بأن الله ينجيهم كما نجى الذين آمنوا من ثمود (وهم صالح ومن آمن معه)[4] .

سادسا : قوله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل:٥٣] وفي سورة فصلت : ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت:١٨] وهي بمعنى واحد ، وخصت هذه السورة بـ ﴿ وَأَنجَيْنَا ﴾ موافقة لما بعده وهو ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ [النمل:٥٧] ومثل ما بعده أيضا من قوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا ﴾ ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ ﴾ وكلها على لفظ أفعل[5] .

سادسا : سورة الذاريات :

قال تعالى : ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ

---

(١) تفسير الرازي المسمى " انموذج جليل " ص"٣٨٢" .

(٢) أعني من قول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ...﴾ إلى قوله : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ [النمل:٤٨-٥١] .

(٣) التحرير والتنوير (١٩/٢٨٣،٢٨٤) .

(٤) التحرير والتنوير (١٩/٢٨٧) .

(٥) البرهان في متشابه القرآن ص"٢٨٨" .

رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الذاريات:٤٣-٤٥] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : انفردت سورة الذاريات بذكر قوله تعالى : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الذاريات:٤٣] حيث جمعت ما تفرق في سورة الأعراف ، والشعراء وغيرها ، من ذكر متاع الدنيا من مثل قوله تعالى : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ [الأعراف:٧٤] وقوله : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٨] في كل ذلك المتاع يجمعه قوله تعالى : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الذاريات:٤٣] و لم تذكر في القرآن إلا في هذا الموضع[١] .

ثانيا : في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات:٤٤] لأن النظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألما كما أن النظر إلى النعمة يزيد المنعم عليه مسرة[٢] ، قال تعالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٠] .

سابعا : سورة القمر :

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القمر:٢٣-٣٢] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : لم يذكر صالح في الآيات بالاسم ؛ لتتناسب مع موضوع السورة ، إذ لم يكن في الآيات ذكر لمقام الدعوة كما في سور الأعراف وهود والشعراء ، وإنما كان ما فيها من قبيل الإخبار والأمر .

ثانيا : في قوله تعالى : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ ﴾ [القمر:٢٤] إذا كان « بشرا »

---

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (١٣/٢٧) .

(٢) انظر : (المصدر السابق) (١٤/٢٧) .

منصوبا بفعل ، فما الحكمة في تأخير الفعل في الظاهر ؟

والجواب : أن البليغ يقدم في الكلام ما يتعلق غرضه به أكثر ، وهم يريدون ذكر وبيان ما أرادوا أنهم محقون فيه ، فلو قالوا : « أنتبع بشرا » يمكن أن يطول الكلام فيما لا معنى له ، وهذا من بلاغة القرآن . والاستفهام هنا إنكاري أي : أنكروا أن يرسل الله إلى الناس بشرا مثلهم[1] .

ثالثا : أنهم قالوا ﴿ أَبَشَرًا ﴾ ولم يقولوا : أنتبع صالحا أو الرجل المدعي النبوة وغير ذلك من المعرفات ؛ والتنكير تحقير[2] .

رابعا : إن قيل : قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر:٢٤] كأنه من كلامهم ، فكيف يمكن توجيهه ؟

فالجواب : أن تقدير الكلام : أنتبعك وأنت بشر واحد منا[3] .

خامسا : السعير في الآخرة واحد فكيف جمع ؟

والجواب : من وجوه[4] :

أحدها : أن في جهنم دركات ، يحتمل أن تكون كل واحدة سعيرا أو فيها سعير .

ثانيها : كأنهم في كل وقت في سعير آخر وعذاب آخر لطول المدة .

ثالثها : إن لسعة السعير الواحد كأنها سعر ، يقال للرجل الواحد : فلان ليس برجل واحد بل هو رجال .

سادسا : إن قيل : إن قوله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [القمر:٢٦] لما سيأتي من أمور الغيب ، وكان هذا وقت نزول القرآن على محمد ﷺ وهم قد علموا وعاينوا ما عاينوا من عذاب الدنيا والقبر فكيف ؟

فالجواب : أن هذا القول مفروض الوقوع في وقت قولهم : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر:٢٥] فكأنه قال يوم قالوا : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ .

أو أن هذا للتهديد بالتعذيب يوم القيامة وهو مستقبل ، ومثلها قوله : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ [القمر:٢٧] والقصة قد

---

(١) انظر : (التفسير الكبير) (٢٩/٤٩) ؛ التحرير والتنوير (٢٧/١٩٦) .

(٢) المصدر السابق (٢٩/٤٩) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/١٩٧) .

(٤) التفسير الكبير (٢٩/٤٩) .

حصلت ، وما يرتقبه هو أحوالهم التي ستحصل لهم[١] .

سابعا : في قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ [القمر:٢٨] لطيفة ؛ كان عليهم أن يتنبهوا لها وهي ملتزمة بالقسمة ولا تحضر إلا في يومها بإلهام الله لها ، وفي هذا دليل على صدق صالح عليه السلام .

ثامنا : ذكر الله تعالى في عذابهم أنه أهلكهم بصيحة واحدة ، اختصت بها هذه السورة فلم يكن بصيحته التي هي واحدة طاقة ، لأنها كانت خارقة للعادة ، إذ أتت على جميع القبيلة فكيف لو كانت أكثر . نعوذ بالله من غضبه وعقابه وشر عباده ! .

ثامنا : سورة الشمس :

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس:١١-١٥] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : أشارت الآيات إلى أن أشقى ثمود : قاتل الناقة ، واسمه : قدار بن سالف[٢] (بضم القاف وتخفيف الدال المهملة) لأنه هو الذي باشر الجريمة .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس:١٤] كيف أضاف فعل القتل إلى الجماعة و لم يفعله غير واحد منهم ؟

والجواب : أضافه للجماعة لرضاهم بما فعل ذلك الواحد[٣] .

قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم[٤] .

وهو قول أكثر المفسرين[٥] .

ثالثا : في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس:١٥] انفردت بذكرها هذه السورة ، حيث فسرت بأن الله لا يخاف عاقبة ما يفعل كما يخاف أهل المنعة من الملوك وغيرهم[٦] .

(١) انظر : (التفسير الكبير) (٥١/٢٩) ؛ التحرير والتنوير (٢٠٠/٢٧) .
(٢) انظر تفسير ابن الطبري (٤٥٩/٢٤) .
(٣) انظر : (التفسير الكبير) (١٦٥/٣١) .
(٤) انظر : (تفسير ابن كثير) (٥٥٣/٤) .
(٥) التفسير الكبير (١٦٥/٣١) .
(٦) نظم الدرر (٨٤/٢٢) ؛ وانظر : (تفسير ابن جرير) (٤٦١/٢٤) ؛ تفسير ابن كثير (٥٥٣/٤) .

المطلب الثاني – سبب العقوبة :

أرسل الله صالحا – عليه السلام – إلى قومه ثمود مذكرا لهم بنعم الله وآياته الدالة على توحيده وأنه لا شريك له ، وأقام لهم الأدلة القاطعة والبينة الواضحة على ضلالهم في عبادتهم وعلى أن الله هو المستحق للعبادة دون سواه ، فما زادتهم الذكرى إلا عنادا واستكبارا وعتوا وإدبارا . وإليك نماذج من ذلك :

أولا : نماذج من دعوته :

أ – صالح – عليه السلام – يدعوهم لعبادة الله وحده :

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف:٧٣] و [هود:٦١] فهنا تبين الآية أن صالحا – عليه السلام – أول ما دعاهم إلى عبادة الله وحده دون سواه ، وهي الكلمة الواحدة التي بها بدأ هذا الخلق وإليها يعود ، وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها ، وقام عليها دين الله كله ، ولذلك نرى أن : التركيز في كل رسالة كان على أمر واحد هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده ، ذلك أن هذه العبودية لله الواحد ، ونزع السلطان كله من يد الطواغيت هو القاعدة التي لا يقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر .

وأهمية هذه القاعدة في ميزان الله هي التي جعلت المنهج القرآني يبرزها هكذا ، ويفردها بالذكر في استعراض موكب الإيمان ؛ بل في القرآن كله[1] .

وهكذا فعل الأنبياء جميعا قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] .

دعاهم صالح إلى الإيمان وترك عبادة الأصنام ، فما كان منهم إلا أن طلبوا بينة على صدق نبوته ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٤] .

(١) في ظلال القرآن (٣/١٣٠٥،١٣٠٦،١٣١٣) .

وبعد طلبهم لجأ صالح إلى الله – تعالى – فاستجاب الله لعبده الصالح ، وأعطاه هذه الخارقة العجيبة ألا وهي الناقة ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥] .

ونهاهم صالح – عليه السلام – أن يمسوها بسوء ؛ لئلا يقع بهم عذاب مهلك لا ينجو منه أحد .

ب – صالح – عليه السلام – يذكر قومه نعم الله عليهم :

قال تعالى : ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤] .

وقال سبحانه : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الشعراء:١٤٦-١٥٢] يقول لهم واعظا لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكرا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وأنبت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ؛ فتذكروا نعم الله عليكم واشكروها له بتوحيده وعبادته ، ثم استعملوا هذه النعم فيما فيه صلاحكم ومرضاة ربكم[1] .

جـ – صالح – عليه السلام – يجادل قومه حرصا على هدايتهم :

قال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١] .

كان أول شيء فعله صالح مع قومه أن ذكرهم بالقربى التي تربطه بهم ، فخاطبهم بلفظ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ لعل ذلك يوقظ فطرتهم فتستجيب لداعي الحق من عبادة الله ، فهو الذي خلقهم وأنشأهم من الأرض ، وجعلهم عمارها ، أفلا يستحق أن يكون هو

---

(١) انظر : (تفسير ابن كثير) (٣/٣٥٥-٣٥٦) ؛ تفسير المنار (٨/٥٠٣) .

المعبود دون سواه !؟ ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة ؛ فإن الله يقبل منكم ويتجاوز عن سيئاتكم .

فردوا عليه ردا قبيحا ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ ﴾ [هود:٦٢] أي كنا نرجوك في عقلك ، وننتظر منك التأييد والنصح بغير ما تقول من العبادة لله وترك عبادة الآباء والأجداد ﴿ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ [هود:٦٢] وفي الآية الأخرى : ردوا عليه برد أقبح حيث قالوا له : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٣] أي : إنما أنت مسحور لا عقل لك .

فلما رأى منهم ذلك لم يشأ أن يقابلهم برد مثله ؛ بل تلطف معهم وقال : ﴿ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴾ [هود:٦٣] أي : انظروا فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان منه ، فمن ينصرني إذا عصيته وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركت ذلك لما نفعتموني ولما زدتموني إلا خسارا[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٦٧) .

ثانيا : وقفة قبل النهاية

كما رأينا أن صالحا ذكرهم ونصح لهم وخوفهم بأس الله إن هم عصوا وتجبروا و لم يمتثلوا ما أمرهم به ، فآمن له المستضعفون من قومه ، وكفر المستكبرون - مع أنه كان يدعوهم ولا يسأل أجرا على ذلك - .

قال تعالى : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦] .

مضت سنة الله - تعالى - في البشر أن يسبق الفقراء المستضعفون للإيمان ؛ لأنه - والله أعلم - لا يشق عليهم أن يكونوا أتباعا لغيرهم من المصلحين ، بعكس الأكابر فإنه يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ، ظانين أنه يسلبهم العزة والمنعة في قومهم ويذهب سلطانهم ، فيزيد عداءهم للمؤمنين وسخريتهم منهم .

وهذا ما نلحظه في الآيتين السابقتين حيث قالوا لهم : ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ ؟ على سبيل السخرية والاستهزاء ، فأجابهم المؤمنون ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي : إنا بما أرسل به مصدقون ومذعنون له بالفعل .

ونلاحظ هنا أنهم عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا : « نعم » أو « إنه مرسل منه تعالى » مسارعة إلى تحقيق الحق ، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذي تنبئ عنه الجملة الاسمية ، وتنبيها على أن أمر الرسالة من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه ، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به[1] .

فهذا من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقي السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب ؛ تنبيها على أنه هو الذي ينبغي أن يسأل عنه[2] .

ثم استمر عصيانهم وعنادهم لصالح - عليه السلام - وللناقة التي أمرهم أن لا يمسوها بسوء .

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/٢٤٣) .

(٢) تفسير القاسمي (٤/١٨٣) .

قال تعالى : ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ[1] ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود:٦٤] .

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٥-١٥٦] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القمر:٢٧-٢٨] .

كانت آية عظيمة على صدق نبوة صالح – عليه السلام – والإضافة في قوله سبحانه (ناقة الله) للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ؛ فكانت تأكل في أرض الله ترعى نباتها وتشرب ماءها ، ونهاهم صالح عليه السلام أن يمسوها بسوء ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود:٦٤] بولغ في النهي عن التعرض لها بما يضرها ؛ حيث نهى عن لمس الذي هو من مبادئ الإصابة ، ونكر السوء أي : لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من السوء ؛ فضلا عن عقرها وقتلها . فمكثت الناقة بين أظهرهم حينا من الدهر ترد الماء وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شربا وريا ، وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه ، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق عليهم ذلك ، وكرهوها فتمالؤا على قتلها ورضوا جميعا بذلك[2] كما في الحديث : « فكانت تشرب ماءهم يوما ، ويشربون لبنها يوما »[3] .

فكان هذا بحق فتنة وامتحانا مميزا لحقيقتهم ، ويقف رسولهم مرتقبا ما سيقع ، ممتثلا أمر ربه في الاصطبار عليهم حتى وقعت الفتنة بهم ، فضاقوا ذرعا بالتعليمات التي وافقوا عليها من قبل ، وراحوا يكيلون العداوة والبغض الشديد لهذه الناقة المأمورة ، فهموا بقتلها ودبروا لها ولصالح – عليه السلام- فكيف كان ذلك ؟ هذا ما سنفصله في نوع العقوبة .

---

(١) أعرضت صفحا عن الكلام عن : من أين خرجت الناقة لهم؟ لعدم وجود الدليل ، ونكتفي بهذا. كما قال سيد قطب دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح . في ظلال القرآن (١٩٠٨/٤) .

وعند صاحب تفسير المنار قال : « ولا يصح شيء يحتج به في خلق الناقة من الصخرة أو من هضبة من الأرض» (٥٠٣/٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣٥٧/٣) ؛ تفسير أبي السعود (٢٢٢/٤) .

(٣) سيأتي الحديث بتمامه في مطلب نوع العقوبة .

المطلب الثالث – نوع العقوبة :

١ – عظم هول العقوبة .

٢ – نجاة صالح ومن آمن معه .

استعجل قوم صالح العذاب كما استعجله من كان قبلهم من قوم نوح وقوم هود . وأنبياؤهم يعظونهم على ألا يفعلوا ذلك ، إلا أنهم يصرون على رؤية العذاب استهزاء وسخرية وكذبا إن لم يحصل ذلك ، قال تعالى على لسانهم : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٧٧] .

وقوله : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل:٤٦] .

وهكذا المجرمون في كل زمان . إذا حاول المصلحون هدايتهم فإنهم يلجأون إلى تكذيبهم ورميهم بأسوأ التهم ، ثم يستعجلون منهم العذاب ، قال تعالى عن قريش : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢] .

« وهو دعاء غريب ، يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الاذعان للحق ! إن الفطر السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق ، وأن يهديها إليه دون أن تجد في ذلك غضاضة ، ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة ، تأخذها العزة بالإثم ؛ حتى لتؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحا لا ريب فيه »[1] .

ومن عجيب أمرها الذي حدث الرسول ﷺ به عن قوم صالح أنهم كانوا يأخذون من لبنها ما يشاؤون ، فيستعيضون عن الماء به من غير كد ولا عناء كما في الحديث السابق .

(١) في ظلال القرآن (١٥٠٥/٣) .

فلما طال عليهم مكث الناقة بيتوا في أنفسهم شرا نحوها ، ووقفوا من صالح ومن آمن معه موقف العداوة والخصام ، وأحس صالح - عليه السلام - بذلك فأراد إشفاقا عليهم أن يعظهم ويرشدهم إلى التوبة والاستغفار عسى أن يرحمهم الله ويتوب عليهم ، ولكنهم لم يصغوا لقول الحق ؛ بل تمادوا في الضلال والغي .. وكان كلما أصاب أحدهم مكروه أرجعوه إلى صالح وأتباعه المؤمنين ، واعتبروهم مصدر شؤم وشر لهم .

وبعد كل هذه العظات التي لم ينتفعوا بها انطلقوا إلى الناقة يرصدونها ويرقبونها ، فلما صدرت من ورودها كمن لها واحد منهم فرماها بسهم انتظم عظم ساقها ، وابتدرها أشقاهم بالسيف فكشف عن عرقوبها على الأرض ، ثم طعنها في لبتها فنحرها[1] .

وقد أخبر القرآن أن قاتل الناقة هو أشقى ثمود ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الشمس:١٢-١٤] وقد وصف لنا رسولنا ﷺ عاقر الناقة في أحد أحاديثه بأنه أحمر ؛ فقد قال ﷺ لعلي بن أبي طالب وعمار : « **ألا أحدثكما بأشقى رجلين ؟** » قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « **أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذه يعني : قرنه ، حتى يبل من هذه أي : لحيته** »[2] .

ووصفه في حديث آخر بأنه كان سيدا في قومه ، ففي الصحيحين :

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٨) وقاتلها سبق أن اسمه " قدار بن سالف " .

(٢) رواه أحمد (٤/٢٦٣) ، برقم [١٨٣٤٧] من حديث عمار بن ياسر ، في سنده من تكلم فيه.

- ورواه الطحاوي (أحمد بن محمد بن سلامة) في كتابه شرح مشكل الآثار (٢/٢٨١،٢٨٢) ، برقم [٨١١] .

- ورواه الهيثمي (علي بن أبي بكر) في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، باب وفاته رضي الله عنه (٩/١٣٦) بشواهده ، ط دار الفكر .

وقد صحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه على كتاب شرح مشكل الآثار .

والألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته ، برقم [٢٥٨٦] ، والسلسلة الصحيحة (٤/٣٢٤) ، برقم [١٧٤٣] وذكر أن للحديث شواهد من حديث صهيب وجابر بن سمرة وعلي ، فانظره .

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾ [الشمس:١٢] **انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة**[1] .

أولا : عظم هول العقوبة :

قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ۝ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝ ﴾ [النمل:٤٨-٤٩] .

يخبر تعالى عن طغاة ثمود الذين آل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضا بأن يبيتوه في أهله ليلا فيقتلوه غيلة ، ثم يقولوا لأوليائه إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به أنهم لم يشاهدوا ذلك .

وقد غلب هؤلاء التسعة على أمر ثمود ؛ لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم الذين صدر عقر الناقة عن رأيهم ومشورتهم ، قبحهم الله ولعنهم![2] .

فلما قتلوا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وعدهم صالح – عليه السلام – العذاب بعد ثلاث ، قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾ [هود:٦٥] فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحا ، فإن كان صادقا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته . فأتوه ليلا ليبيتوه في أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح – عليه السلام – فوجدوهم متشدخين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدا ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في

---

(١) رواه البخاري (٣/٣٢٣) ، كتاب التفسير ، باب سورة الشمس ، برقم [٤٩٤٢] .

ورواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب النار والجنة (٤/٢١٩١) ، برقم [٢٨٥٥] والعارم هو الشرير المفسد .

وأبو زمعة هو : الأسود بن المطلب القرشي ، عم الزبير بن العوام ، مات كافرا . التبيين في أنساب القرشيين ص"٢٧٦" ، لموفق الدين أبي محمد : عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، ط عالم الكتب . انظر : (فتح الباري) حيث ذكر أنه ابن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى (٦/٤٦٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٣٨٠) .

ثلاث ، فإن كان صادقا فلم تزيدون ربكم غضبا ؟ ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك ، والنفر الذين رصختهم الملائكة بالحجارة (التسعة) الذين ذكر الله عز وجل : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[1] [النمل:٤٨] .

وفي عقرهم للناقة وهم غير آبهين دلالة على فساد قلوبهم واستهتارهم ، لذا نجد التعبير بفاء التعقيب في كل الخطوات[2] ، فهم قد سارعوا واستعجلوا قدرهم المحتوم ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود:٦٥] وهذه الثلاثة الأيام آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة ، فطلبوا علامة لذلك مستهزئين ، فأخبرهم أن آية ذلك أن تصبح وجوههم أول يوم مصفرة ، واليوم الثاني محمرة ، واليوم الثالث مسودة . قال قتادة : فخدوا لهم أخدودا ، وكفر غنيهم فقيرهم ، فأرسل الله عليهم صيحة فأهمدتهم[3] وقطعت قلوبهم ، وهلكوا كلهم[4] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم بسنده قال : حدثنا محمد بن العباس (مولى بني هاشم) ثنا عبد الرحمن بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، محمد بن العباس قال عنه ابن أبي حاتم : كتبت عنه وهو صدوق . انظر : (الجرح والتعديل) (٤٨/٨) ، ط دار الفكر ، عبد الرحمن بن سلمة الرازي هو أبو محمد الأزدراني ، كاتب سلمة بن الفضل ، روى عن يحيى بن الضريس وسلمة بن الفضل . سكت عنه في الجرح (٢٤١/٥) .

وقد صحح إسناده محقق سورة هود من تفسير ابن أبي حاتم ، وذكر أن الراوي عنه في عداد الثقات ؛ لأن الثقة إذا روى عن من لم يضعف توثيق له ، وما يرويه عن سلمة إنما هو نسخة عن ابن إسحاق. انظر : (تفسير السورة التي يذكر فيها هود من تفسير ابن أبي حاتم) ، مخطوط عند قول الله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود:٦٥] . وانظر : (تفسير البحر المحيط) (٣٣٤/٤) .

(٢) في ظلال القرآن (١٩٠٨/٤) .

(٣) انظر : (تفسير ابن أبي حاتم) بسندين : الأول : قال حدثنا علي بن الحسن الهسنجاني ، ثنا أبو الجماهير حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة .

والآخر : حدثنا محمد بن العباس ، (مولى بني هاشم) ثنا عبد الرحمن بن سلمة ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق . فالأول : فيه سعيد بن بشر . ضعيف ، وقد توبع عند ابن جرير . والسند الثاني : صحيح على ما قدمنا عاليه . وانظر : (الدر المنثور) (١٨٣/٣) .

(٤) تفسير البحر المحيط (٣٣٤/٤) وعند ابن أبي الدنيا بسنده : أن صالحا لما قال لهم : إن العذاب يصبحكم يوم الثالث . وآية ذلك وجوهكم ، تصبح مسودة ، فلبسوا الشعر ، وتحنطوا ، وعانق الآباء الأبناء ، والأمهات البنات ، ثم قاموا قياما على أرجلهم يبكون ، ويصرخون ، ويتلاومون ، ⇦

قال سبحانه : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٧٨] أي : ساقطين على وجوههم هامدين لا يتحركون ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف:٧٩] الذين يريدون لكم النجاة ؛ لأنكم لا تحبون الحق ولا تريدونه[1] .

٥ ومما أخبرنا به النبي ﷺ عنهم وما حل بهم حين مروره بالحجر من ديارهم في غزوة تبوك : روى الإمام أحمد في مسنده من حديث جابر – رضي الله عنه – قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « **لا تسألوا الآيات ، وقد سألها قوم صالح ، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، فكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلا واحدا كان في حرم الله عز وجل ، قيل : من هو يا رسول الله؟ قال : هو أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه** »[2]. ١٠

=

فأصبحوا في اليوم الرابع متكفنين متحنطين ملقين أنفسهم بالأرض يقلبون أبصارهم ، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب ، فلما اشتد الضحى أخذتهم صيحة من السماء ، فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض . ص"٩١" من كتاب : العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم ، أبي بكر : عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا ، ط دار ابن حزم ؛ وانظر : (تاريخ الطبري) (٢٣٠/١) تحقيق محمد أبو الفضل ؛ وذكره في التفسير (٣٧٧/١٥) .

(١) انظر : (تفسير ابن كثير) (٢٣٩/٢) ؛ تفسير القاسمي (٨٥/٧) .

(٢) رواه أحمد (٢٩٦/٣) ، برقم [١٤١٩٤] وسنده : حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن حثيم عن أبي الزبير عن جابر .

أخرجه الطبري في تفسيره (٥٣٧/١٢) ، برقم [١٤٨١٧] من طريق عبد الرزاق به .

ونسبه الهيثمي في المجمع (١٩٤/٦) ، ٣٨/٧ إلى أحمد والبزار والطبراني في الأوسط وقال: رجال أحمد رجال الصحيح .

وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (١٣٧/١) وقال : هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة ، وهو على شرط مسلم .

ورواه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الأعراف ، برقم [٣٢٤٨] وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٣/٣) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه عن جابر بنحوه .

ومن هذا الحديث أيضا يتبين هول الفاجعة التي ألمت بثمود ، وأنه لم يبق أحد منهم إلا هلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس:٤٤] وقال : ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام:٦] .

هذا ومع هول ما أصابهم فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم ، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ، ومدين ، وقوم لوط ، وغيرهم . فكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم .

ولهذا تراهم خصوا بالذكر دون غيرهم في بعض سور القرآن : كسورة **الإسراء** ، وسورة **الشمس** . وهذا ، والله أعلم - من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

وأيضا أنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستيقنين به ، قد ثلجت له صدورهم ، واستيقنته أنفسهم . فاختاروا عليه العمى والضلالة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] وقال سبحانه : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء:٥٩] أي : موجبة لهم التبصرة واليقين . وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم - فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها - لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والتبصرة بمزيد ، ومع هذا ردوا الهدى بعد تيقنه ، والبصيرة التامة به[1] .

---

(١) مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية من ست سور : الأعلى ، الشمس ، الليل ، العلق ، البينة ، الكافرون ، للإمام تقي الدين أبي العباس : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ص"١٧٣-١٧٥" بتصرف ، ط " ق "بمباي ، الهند ١٣٧٤ هـ/١٩٥٤ م .

ثانيا : نجاة صالح – عليه السلام - ومن آمن معه

قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:٧٨-٧٩] .

وهكذا بعدما نصح صالح لقومه وذكرهم بآيات الله وأقام لهم الأدلة الدامغة على صدقه في دعوته جحدوا بعدما استيقنتها أنفسهم تولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين .

« إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب »[1] .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود:٦٦-٦٧] .

أي : فلما جاء موعد تحقيق الأمر (وهو : الهلاك) كانت نجاة صالح ومن آمن معه برحمة منا خاصة ومباشرة ، نجيناه من الموت ومن الخزي الذي حل بهم ، فقد كانت ميتة قومه ميتة مخزية ، ومشهدهم حين أتاهم العذاب مشهدا مخزيا[2] .

وهنا نلحظ في الآيتين ما ظاهره التعارض : وهو . أن صالحا – عليه السلام – تولى عنهم عقب هلاكهم كما يدل عليه العطف بالفاء ، والمعهود في مثل هذا أن تتقدم هذه الآية على ما قبلها[3] في الذكر كتقدم مدلولها بالفعل مثل آية سورة **هود** .

والجواب على ذلك : أنه عهد في كلام العرب ترك الترتيب بين المعاني لنكت في الكلام ، ولاسيما كلام يعرف فيه الترتيب بالضرورة أو ما يقرب منها في الظهور ، فيكون تولي نبي الله عنهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب .

---

(١) في ظلال القرآن (١٣١٤/٣) .

(٢) في ظلال القرآن (١٩٠٩/٤) .

(٣) وهي قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٧٨] .

ويكون خطابه لهم وتعنيفه إياهم جاء حسب المألوف من خطاب الأحياء ، دليل ذلك ما ورد من نداء النبي ﷺ لبعض قتلى المشركين ببدر بعد دفنهم في القليب « **يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا . قال فقال عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم** »[1] .

ومثل أن يقول الرجل لصاحبه وهو ميت - وكان قد نصحه فلم يقبل النصيحة حتى ألقى بنفسه في الهلاك : يا أخي ، منذ كم نصحتك ، فلم تقبل! وكم منعتك فلم تمتنع! والفائدة من هذا : إما لأن يسمعه بعض الأحياء فيعتبر به وينزجر عن مثل تلك الطريقة ، وإما لأجل أنه احترق قلبه بسبب تلك الواقعة ، فإذا ذكر ذلك فرجت تلك القضية عن قلبه[2] .

(١) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب قتل أبي جهل (٣/٨٦) ، برقم [٣٩٧٦] .

(٢) تفسير الفخر الرازي (١٤/١٦٧) ؛ تفسير المنار (٨/٥٠٠،٥٠٨) .

المطلب الرابع : العبر المستفادة من عقوبة قوم صالح عليه السلام

أولا : أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة ، وأن من كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع ؛ لأنه يكذب الحق الذي جاء به كل واحد منهم .

ولذا تجده في كل قصة ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] ، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣] ، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٤١] ، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦] .

ثانيا : كما دعا نبي الله هود – عليه السلام – قومه إلى التذكير بنعم الله عليهم في قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٢٩] .

فكذلك صالح – عليه السلام – يذكر قومه بنعم الله عليهم فيما آتاهم من معايش فارهة ، وينكر عليهم كفرانهم بتلك النعمة إذ أساؤا استعمالها وتعالوا بها أشرا وبطرا ، وإنك لتلحظ امتنان الله عليهم بأمرين كان واجبا عليهم الاعتراف بجميل المنعم ، عبر عنهما القرآن بقوله سبحانه : ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء:١٤٨] والآية الأخرى ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء:١٤٩] وقد جمع الله امتنان نعمه عليهم في لفظ (هضيم) ولفظ (فارهين) فالطعام المأكول من النخل لا يحتاج إلى جهد في البطون ، وبيوتهم منحوتة بمهارة وبراعة ، وكان الأليق بهم أن تكون هذه النعم عونا لهم على طاعة ربهم عز وجل .

يؤخذ من ذلك أنه ينبغي للمسلم أن يكون معتدلا في معيشته ، لا مسرفا ومبعثرا للمال دون رقيب ولا حسيب ، ولا مقترا بخيلا يضن بماله حتى على نفسه وأهله .

وما أكثر الصنفين في زماننا هذا! وما أضيع المال في أيدي هؤلاء السفهاء! ما أضيعه في أيدي المسرفين! فقد خدموا به أعداءهم قبل أنفسهم ، وأنفقوه يمنة ويسرة في ملذات تافهة وسهرات عابثة ، فما أحوج هؤلاء إلى أوصياء يضربون على أيديهم ويحولون بينهم وبين هذا العبث! .

وأما المقترون على أنفسهم وأهلهم ومجتمعهم فأقل ما يقال عنهم : إنهم منعوا حق الفقراء فيها وألجأوهم إلى سؤال الناس ما في أيديهم ، فكثر من جراء ذلك التسول حتى أصبح ظاهرة لا يعرف أهل الخير الصادق فيهم من الكاذب .

ثالثا : كما كانت **(عاد)** تفتخر بقوتها وعظمتها وطغيانها فقد كانت بذرتهم ثمود كذلك استعلاء في الأرض ونحتا للصخور في الجبال ، وكان الأليق بهذه القوة العجيبة

أن تكون عونا لهم على عبادة ربهم وتمجيدا لخالقهم ، وكما قالت (**عاد**) : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] فقد برهنت ثمود ذلك عمليا لتبقى هذه القوة العجيبة على عبرة وعظة لمن ﴿ كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧] على مدار الزمان ، ولتشهد أنه لا غالب إلا الله . فثمود غرتها قوتها فأعرضت عن هدى الله وطريق الحق ، فأصابها الله بالذل والهلاك . وكما ركب الغرور عادا وثمود لقوتهما فكذلك في كل زمان حين يسود قانون الغاب .

فها نحن نرى في زماننا ما تدعيه ما يسمى بالدول الكبرى التي تدعي العلم والمدنية وما وصلت إليه من قوة وثراء ، فاستعبدت الشعوب الصغيرة المغلوبة على أمرها ، واستغلت ثرواتها وسرقت خيراتها ، وأشعلت الفتن بين أحزابها وجماعاتها . نسأل الله العافية! .

رابعا : من نتائج ما ذكرناه آنفا : أن عقوبات الله للأمم الطاغية عند تناهي طغيانها وتفاقم جرائمها ، فكفرهم وتكذيبهم موجب للهلاك ، ويتأكد هلاكهم عند تناهي شرورهم ؛ لأن الله – تعالى – بالمرصاد لهم يمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم ، أخذهم أخذ عزيز مقتدر[1] .

وفي الحديث : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . قال : ثم قرأ** ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[2] [هود:١٠٢] » .

خامسا : ما نستخلصه من قوله تعالى على لسان قوم صالح : ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [هود:٦٢] أن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق ، وكذلك قالت جميع الأمم المكذبة رادين دعوة الرسل : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٣] وهذا هو سبيل أهل الباطل في كل زمان ، يتعلقون بأوهى الحجج لتبرير مسلكهم في اتباع الآباء أو المذاهب الجاهلية المعاصرة التي تحكم بالقانون الوضعي . وتترك تحكيم شريعة الله .

قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص"١٥٧" .

(٢) والحديث رواه البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ الآية (٣/٢٤٣) ، برقم [٤٦٨٦] .

ورواه مسلم ، كتاب البر ، باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٧ ، برقم [٢٥٨٣] .

يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص أنها حكم البشر للبشر ؛ لأنها هي عبودية البشر للبشر ، والخروج من عبودية الله ، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله .

إن الجاهلية في ضوء هذا النص ليست فترة من الزمان ، ولكنها وضع من الأوضاع . هذا الوضع يوجد بالأمس ، ويوجد باليوم ، ويوجد غدا ، فيأخذ صفة الجاهلية المناقضة للإسلام .

فالناس في أي زمان أو مكان : إما أنهم يحكمون بشريعة الله ويقبلونها ويسلمون بها تسليما فهم إذا في دين الله ، وإما أن يحكموا بشريعة هي من صنع البشر ويقبلونها فهم إذن في جاهلية ، وهم في دين من يحكمون بشريعته ، وليسوا بحال في دين الله . والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] ونحن نسأل ونتساءل . ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحى شريعة الله عن حكم الحياة ، ويجعل هواه أو هوى شعبه أو هوى جيل من الأجيال فوق حكم الله وفوق شريعة الله ؟ ما الذي يستطيع أن يقوله وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين ؟ الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس ؟ الخوف من الأعداء ... ألم يكن هذا كله في علم الله ، وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته وأن يسيروا على منهجه ، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟

هل هذا قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والأحوال المتقلبة ؟ ألم يكن في علم الله ؛ وهو يشدد هذا التشديد ويحذر هذا التحذير.

لغير المسلم أن يقول ما شاء .. ولكن المسلم .. أو من يدعون الإسلام ماذا سيقولون ؟ أو يدعون أو يعتذرون أمام الخالق سبحانه ثم أمام من يطالبونهم بتحكيم شرع الله في الآخرة .

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم ، وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه ، والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء ، وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية فلن يستقيم له ميزان ، ولن يتضح له منهج ، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل ، ولن يخطوا خطوة واحدة في الطريق الصحيح[1] .

(١) في ظلال القرآن (٩٠٤/٢، ٩٠٥) ؛ وانظر : (تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ) .

سادسا : أن من سنن الله – تعالى – أن المستضعفين من أتباع الرسل يسبقون غيرهم من الكبراء والسادة إلى الإيمان بالله – تعالى – وهذا ما لاحظناه في قصة سيدنا نوح ، وهود ، وصالح ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦] .

لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم ، والثقة في نفوسهم ، والاطمئنان في منطقهم[1] . فما عادوا يأبهون بتهديد الكفار لهم مهما كلفهم ذلك من ثمن وتضحيات . فهم في اتباعهم للرسل لا يكلفهم ذلك شيئا ، ولا يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ، بخلاف أكابر القوم المتكبرين المترفين فإنهم يخشون أشد الخشية على شهواتهم وملذاتهم ، ويرون أن اتباع هؤلاء المستضعفين يفقدهم ذلك ، ثم إن حب التسلط والتجبر يمنعهم من التواضع واللين مع هؤلاء الأراذل كما يزعمون !

نستنتج من ذلك : أن على الدعاة إلى الله – تعالى – توسيع دائرة دعوتهم بين المستضعفين ، وإفساح المجال لهم وتقريبهم ، والذهاب إلى أماكن سكنهم أو باديتهم ، فهم بيئة خصبة للدعوة ، وسواد عظيم للأمة . ولا نعني إغفال الطبقات الأخرى من المجتمع ، ولكن عزة الإيمان وثباته في نفوس هؤلاء المستضعفين أقوى من أن يزعزع بهوى أو منصب أو جاه .

سابعا : لقد تشاءم قوم صالح – عليه السلام – منه ومن معه من المؤمنين وردوا كل ما يصيبهم من شر إليه ، فهو السبب لإيمان هؤلاء الضعفاء قال تعالى عنهم : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النمل:٤٦-٤٧] .

﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أي : تشاءمنا بك وبمن معك وفي سبب قولهم هذا قولان :

أحدهما : إنهم قالوا ذلك ؛ لتفرق كلمتهم .

والثاني : إنهم قالوا ذلك لما أصابهم من الجدب والقحط ، فقالوا لصالح: هذا من شؤمك[2] .

---

(١) انظر في ظلال القرآن (١٣١٤/٣) .

(٢) تفسير السمعاني (١٠٣/٤) .

فعلى المسلم أن يعلم أن الطيرة منهي عنها لقوله ﷺ : « **لا عدوى ولا طيرة**[1] ، **والشؤم**[2] **في ثلاث : في المرأة والدار والدابة** »[3] .

وقوله ﷺ : « **لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر** »[4] وزاد مسلم : « **ولا نوء**[5] **ولا غول** »[6] .

---

(١) الطيرة هي : ترك الإنسان حاجته ، واعتقاده عدم نجاحها ، تشاؤما بسماع بعض الكليمات القبيحة وكذا التشاؤم ببعض الطيور ، وكذا التشاؤم بملاقاة الأعور أو الأعرج أو المهزول أو الشيخ الهرم أو العجوز وغير ذلك ، فإذا رأى ذلك وكان له حاجة صده ذلك عن حاجته . ولذا من يتشاءم من بعض الأيام أو بعض الساعات كالحادي والعشرين من الشهر وآخر أربعاء فيه لا يسافر ولا ينكح ولا يعمل عملا مهما ؛ لظنه أن تلك الساعة أو اليوم نحس عليه . ومن ذلك أيضا : تنفير الطير أو غيره من الحيوانات ، فإن تيامنت ذهبوا لحاجتهم ، وإن تياسرت تركوها . وهذا كله من عمل الجاهلية أبطله الإسلام ، فأعاده الشيطان في هذا الزمان . فإنا لله وإنا إليه راجعون ! . انظر : (معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد) ، تأليف : حافظ بن أحمد الحكمي (٩٩٠/٣-٩٩١) ، ط دار ابن القيم . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١٥٢/٣) .

(٢) الشؤم : ضد اليمن ، وهو عدم البركة . والمراد به : الأمر المحسوس المشاهد ، كالمرأة العاقر التي لا تلد أو المؤذية أو المبذرة ونحو ذلك ، وكالدار الجدبة أو الضيقة أو الوخمة المشرب أو السيئة الجيران وما شابهها ، وكذا الدابة التي لا تلد ولا نسل لها أو كثيرة العيوب . فهذا شيء ضروري ومشاهد ومعلوم أنه ليس من باب الطيرة المنفية ، فإن ذلك أمر آخر عند من يعتقده مثل : أن يعتقد أن امرأته نحس عليه لذاتها لا لعدم مصلحتها ، فيعتقد أنه إن كان غنيا افتقر ليس بتبذيرها وإنما لنحاستها عليه . معارج القبول (٩٩٢/٣) .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الطب ، باب الطيرة ٤٧/٤ ، برقم [٥٧٥٧] .
ورواه مسلم ، كتاب السلام ، باب الطيرة والفأل (١٧٤٤/٤) « النوء » في حديث رقم [٢٢٢٠] ، و « الفأل » في حديث [٢٢٢٢] .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الطب ، باب لا هامة ٤٧/٤ ، برقم [٥٧٥٧] .
ورواه مسلم ، كتاب السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة (١٧٤٤/٤) ، برقم [٢٢٢٠] .

(٥) نوء : هو واحد الأنواء ، وهي منازل القمر ، وهي ثمانية وعشرون منزلة ، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة ، وكان العرب يتشاءمون بالأنواء ، ويتفاءلون بها فبعض النجوم يقولون هذا نجم نحس لا خير فيه ، وهذا نجم سعود وخير . انظر : النهاية في غريب الحديث (١٢٢/٥) .

(٦) « ولا غول » جمع غولة أو غولة - بضم الغين وفتحها - انظر : النهاية في غريب الحديث (٣٩٦/٣) ، وتسمى عند العامة « الهولة » لأنها تهول الإنسان ، وكان العرب إذا سافروا أو خرجوا تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة ، فتدخل في قلوبهم الخوف فلا يخرجون لما أرادوا ، وهذا يضعف التوكل على الله ، ومعلوم أن الشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على قلوب المؤمنين قدر ما يستطيع قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٠] فهذا الذي نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها ؛ فلا تهمكم لأنها خوفتكم ، فلا تلتفتوا إليها ، وليس المقصود بالنفي نفي الوجود . وأكثر ما يبتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقا بها ، أما إن كان معتمدا على الله فلا تضره ولا تمنعه عن قصده . القول المفيد على كتاب التوحيد ، محمد بن صالح العثيمين (٨٧/٢،٨٨) ، ط دار العاصمة .

ثم ليعلم المسلم أن الطيرة باب من الشرك منافية للتوكل ؛ لما فيها من الاعتماد والالتفات إلى غير الله تعالى ؛ لأن المتطير إذا حجم عما كان قد اعتزمه فهو بعمله هذا اعتقد أنه يمكن رد قضاء الله وقدره[١] .

وهذا خلاف التوكل المأمور به وهو أن يثق المسلم بالله – عز وجل – ويعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له وقدره .

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **الطيرة شرك . وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل** »[٢] .

وأفضل من ذلك للمؤمن الفأل ؛ فإن النبي ﷺ كان يحب الفأل ؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا طيرة ، وخيرها الفأل . قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم** » .

لكن من شرط الفأل أن لا يعتمد عليه ، وأن لا يكون مقصودا ؛ بل يتفق للإنسان ذلك من غير أن يكون له على بال .

يقول ابن القيم في شرح الحديث السابق : أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها ، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ، ولكنه خيرها ، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع أحدهما ومضرة الآخر ، ونظير هذا منعه من الرقي بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم تكن شركا ؛ لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة

---

(١) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة ، عبد الله بن سلمان الأحمدي (١٢٥/٢) ، ط دار طيبة .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ، حديث (٩٠٩) ، باب ما يقول الرجل إذا رأى غيما .

ورواه الترمذي ، كتاب السير ، باب ما جاء في الطيرة (١٣٧/٤) ، برقم [١٦١٤] .

ورواه أبو داود ، كتاب الطب ، باب الطيرة ٢٣/٤ ، برقم [٣٩١] .

ورواه ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (١١٧٠/٢) ، برقم [٣٥٣٨] ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار البيان .

وفي كتاب مفتاح دار السعادة : أن لفظة : (**وما منا**) مدرجة في الحديث ليست من كلام النبي ﷺ ، كذا قاله بعض الحفاظ ، وهو الصواب . مفتاح دار السعادة ومنشؤ ولاية العلم والإرادة . ابن القيم (٢٣٤/٢) .

رواه البخاري ، كتاب الطب ، باب الطيرة (٤٦/٤) ، برقم [٥٧٥٤] .

رواه مسلم ، كتاب السلام ، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (١٧٤٥/٤) ، برقم [٢٢٢٣] .

فقوله ﷺ : « **لا طيرة . وخيرها الفأل** » ينفي عن الفأل مذهب الطيرة ، وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة وهي : أن التطير هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع ، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره ، وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك ، بل ولجه وبرئ من التوكل على الله ، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله والتطير مما يراه ويسمعه ، وذلك قاطع له من مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] و ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣] و ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٠] فيصير قلبه متعلقا بغير الله عبادة وتوكلا ، فأين هذا من الفأل الصالح السار للقلوب ، المؤيد للآمال ، الفاتح باب الرجاء المسكن للخوف ، الرابط للجأش الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه والاستبشار المقوي لأمله السار لنفسه . فهذا ضد الطيرة ، فالفأل يفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد ، والطيرة تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك ، فلهذا استحب ﷺ الفأل وأبطل الطيرة[١].

كفارة الطيرة :

أن يقول : « **اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك** »[٢] وفي صحيح مسلم[٣] من حديث معاوية بن الحكم السلمي[٤] أنه قال : يا رسول الله « **ومنا**

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم (٢/٢٤٦،٢٤٧) ، ط دار الكتب العلمية .

(٢) رواه أحمد (٢/٢٢٠) ، برقم [٧٠٤٥] وسنده « حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة أخبرنا ابن هبيرة عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو » .

ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق ابن وهب حديث (٢٩٣) وسنده حسن ص"٩٢".

وقال الهيثمي في المجمع (٥/١٠٥) رواه أحمد والطبراني ، وفيه ابن لهيعة ، وحديثه حسن وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات .

قال الألباني : الضعف الذي في حديث ابن لهيعة ، إنما هو في غير رواية العبادلة عنه وإلا فحديثهم عنه صحيح ، كما حققه أهل العلم في ترجمته . انظر : (السلسلة الصحيحة) (٣/٥٣-٥٤) .

وانظر : تصحيح أحمد شاكر له في تحقيقه لمسند الإمام أحمد (١٢/١٠) ، برقم [٧٠٤٥] .

شعيب الأرناؤوط وآخرون (١١/٦٢٣) ، برقمه .

(٣) رواه مسلم ، كتاب السلام ، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٤/١٧٤٨،١٧٤٩) ، برقم [٥٣٧] .

(٤) معاوية بن الحكم السلمي : صحابي جليل نزل المدينة ، روى له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي . التقريب ص"٥٣٧" .

أناس يتطيرون؟ فقال : ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنه » . فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به ، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده ، لا ما رآه وسمعه . فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبين لهم فساد الطيرة ؛ ليعلموا أن الله – سبحانه – لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سببا لما يخافونه ويحذرونه ، لتطمئن قلوبهم ولتسكن نفوسهم إلى وحدانية الله تعالى التي أرسل بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السموات والأرض ، وعمر الدارين الجنة والنار . فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه ، والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته . فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم ؛ لئلا يبقى فيها علقة منها ، ولا يلتبسها بعمل من أعمال أهله البتة[1] .

ثامنا : التحذير من سؤال الآيات ، فقد سألها الأقدمون من رسلهم ، فلم تؤمن أقوامهم فأهلكوا بتكذيبهم[2] .

وقد سأل قوم صالح – عليه السلام – آية فأعطوها ثم كذبوا بها فأهلكهم الله ، وقد نهاهم النبي ﷺ عن سؤال الآيات في حديثه السابق ذكره حينما مر بديار ثمود بقوله : « **لا تسألوا الآيات ، وقد سألها قوم صالح** ... – إلى قوله – **فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم** » .

فعلى الدعاة إلى الله – تعالى – أن يحذروا مدعويهم غضب الله وانتقامه بتكذيب رسله وكتبه ، ويصفوا لهم في هيئة قصة حال هؤلاء العاصين وما حل بهم وبغيرهم من الأمم من العذاب الأليم ، حيث لم يبق تحت أديم السماء عين تطرف منهم ، ولا بأس بضرب الأمثلة حول ذلك بتقريب المعقول لهم بشيء من المحسوس .

تاسعا : مشروعية الوقوف في الديار التي جرت بها أحداث عظام لأخذ العظة والعبرة ، كما فعل النبي ﷺ في وقوفه عند بئر الناقة وإخبار الصحابة بالطريق الذي كانت تسلكه في ورودها وصدورها ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧] وقال : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[3] [الأنعام:١١] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٢٣٤) .

(٢) انظر : (صحيح القصص النبوي) ، د/ عمر سليمان الأشقر ص"٣٣" ، دار النفائس .

(٣) صحيح القصص النبوي ص"٣٣" .

عاشرا : عدم مشروعية الدخول على الأقوام المعذبين إلا أن يكون باكيا لا يصبه مثل ما أصابهم ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ بقوله : « **لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم** »[١] .

لأن البكاء يبعث على التفكر والاعتبار ، فمن مر عليهم و لم يتفكر فيما يوجب البكاء اعتبارا بأحوالهم فقد شابههم في الإهمال ، ودل على قساوة قلبه وعدم خشوعه ، فلا يأمن أن يجره ذلك إلى العمل بمثل أعمالهم فيصيبه ما أصابهم ، وبهذا يندفع اعتراض من قال : كيف يصيب عذاب الظالمين من ليس بظالم ؛ لأنه بهذا التقرير لا يأمن أن يصير ظالما فيعذب بظلمه .

وفي الحديث أيضا ما يدل على المراقبة والزجر عن السكنى في ديار المعذبين والإسراع عند المرور بها ، وقد أشير إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾[٢] [إبراهيم:٤٥] .

وقد كثر في زماننا الذهاب إلى هذه الأماكن بغرض السياحة وحب الاستطلاع ، لا الاعتبار والاتعاظ ، بل يكثر فيها السخط واللغط والضحك .

ألا فليعلم المروجون لذلك أنهم مشاركون لهم ، ويخشى على هؤلاء وهؤلاء أن يصيبهم ما حذر منه النبي ﷺ « **لا يصيبكم ما أصابهم** »! .

وبهذا يعلم خطأ من يدعو إلى إحياء التراث في هذه الأماكن ؛ لأنه ربما ترتب على إحيائها وجود الشرك[٣] .

الحادي عشر : قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٧٧] .

قد أسند الله العقر إلى أولئك المستكبرين جميعا مع أن المتعاطي لذلك كان واحدا منهم لأنه بتواطئهم ورضاهم .

ومن ذلك نعلم أن الأمة متضامنة متكافلة في الخير والشر ، وأنها متى سكتت عن

---

(١) رواه البخاري عن ابن عمر ، كتاب الصلاة ، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (١/١٥٧) ، برقم [٤٣٣] .

(٢) فتح الباري (١/٦٩٨،٦٩٩) ، والآية من سورة إبراهيم رقم (٤٥) .

(٣) انظر : (حكم الإسلام في إحياء الآثار) للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، مجلة رابطة العالم الإسلامي لشهر ذي القعدة ١٤٠٢ هـ .

منكر وكان في استطاعتها أن تقف في سبيل صاحبه ، عاقبها الله على ذلك السكوت العقاب الشامل[1] .

فعند أبي داود والترمذي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال : يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾ [المائدة:١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن النّاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده** »[2] .

ألا فليعلم أن ما أصاب المسلمين من ذل وهوان وتسلط من أعدائهم إنما هو بسبب تفكك روابطهم ، وظلم بعضهم بعضاً ، وتركهم لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن المعلوم أنه إذا فشى ذلك ولم يقف الصالحون في وجه الظلم وأهله فإن - الله سبحانه - وتعالى يعمهم بعقاب من عنده يشمل المفسدين والصالحين قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥] .

ومما يدل على أن العذاب لا يخص الظالمين أو العاصين : فعن أم المؤمنين زينب بنت جحش أن النبي ﷺ استيقظ من النوم مُحْمَرًّا وجهه وهو يقول : « **لاإله إلاّ الله ، ويل للعرب من شرٍ قد اقترب!! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه . قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث** »[3] وفي رواية

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، د/ محمد عبد القادر ص"٥١" ، دار الفرقان ؛ دعوة الرسل إلى الله تعالى ، محمد أحمد العدوي ص"٢٩" ، ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٤هـ .

(٢) رواه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي (٥٠٩/٤،٥١٠) ، برقم [٤٣٣٨] .
رواه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٤٠٦/٤) ، برقم [٢١٦٨] .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبيﷺ : «**ويل للعرب من شر قد اقترب**» (٣١٤/٤) ، برقم [٧٠٥٩] .
ورواه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٢٠٧/٤) ، برقم [٢٨٨٠] .
الخبث : بفتح الخاء والباء فسره الجمهور بالفسوق والفجور ، وقيل : المراد الزنا خاصة وقيل أولاد الزنا والظاهر أنه المعاصي مطلقاً . شرح النووي على مسلم (٣/١٨) ، ط دار الكتاب العربي .

مسلم : وحلق بين الإبهام والتي تليها .

الثاني عشر : أقام قوم صالح – عليه السلام – بعد قتل الناقة ثلاثة أيام حددها الله لهم ، هي كل ما بقي لهم على هذه الدنيا ، فكانت عذاباً نفسياً أليماً . فما يملك الداعي إلى الله – تعالى – بعد أن أعذر لهم إلا أن يقول كما قال صالح – عليه السلام – لقومه بعد أن رآهم صرعى هلكى ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف:٧٩] .

وكذلك فعل شعيب – عليه السلام – ، وخاطب محمد ﷺ قتلى بدر من المشركين فقال له عمر – رضي الله عنه – : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها – فقال رسول الله ﷺ : « **والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم** »[1] .

قال العلماء : ومثل هذا مما خص الله به الأنبياء . ولكن بعض المعتذرين لعباد القبور بدعاء أصحابها لقضاء حوائجهم يقيسون عليه وعلى ما ورد من حياة الأنبياء والشهداء في البرزخ أن كل من دعا ميتاً من الصالحين يسمع منه ويقضي حاجته ، مع العلم بأن عالم الغيب لا يقاس عليها ، وإن لم تكن من الخصائص التي لا يجري القياس فيها[2] .

الثالث عشر : نجى الله صالحاً ومن معه من المؤمنين وأهلك الله الكافرين ولم يبق منهم أحدٌ ، إلا رجلاً واحداً اسمه : (أبو رغال) كان بالحرم من مكة ، فعندما خرج منه نزل به العذاب الذي حل بقومه ، وهذا يدل على أن هذه الحرمة كانت قبل إبراهيم الخليل – عليه السلام – ، وصالح وقومه كانوا قبله ، وإبراهيم – عليه السلام – قال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾[3] [إبراهيم:٣٧] .

---

(١) سبق تخريجه ص"٢٢٠" .

(٢) تفسير المنار (٥٠٨/٨) .

(٣) صحيح القصص النبوي ص"٣٣" .

المبحث الرابع

عقوبة قوم لوط - عليه السلام -

تمهيد :

لوط – عليه السلام – هو ابن أخ إبراهيم الخليل – عليه السلام – أحد أنبياء الله ورسله الذين واجهوا قوماً قساة القلوب ، غلاظ الطباع . هاجر مع إبراهيم الخليل – عليهما السلام إلى أرض الشام ، سكن شرق الأردن المسمى : بعمق السديم (بقرب البحر الميت المسمى : ببحر لوط) بعثه الله إلى أهل (سدوم)[1] عاصمة عمورية ، وأدمة ، وصويم . يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن عمل الخبائث ؛ لأنه وجدهم منحرفين عقدياً ومنحرفين سلوكياً ، والأمر الأول كان فيمن قبلهم ، أما الأمر الآخر هو الإنحراف في السلوك فلم يسبقوا إليه ، فكان شذوذاً عن الفطرة السوية والملّة الحنيفية والأخلاق الإنسانية ، فجاهدهم لوط – عليه السلام – جهاداً عظيماً حتى أنزل الله بهم غضبه وعذابه وأليم عقابه[2] .

المطلب الأول – الآيات التي ذكرت عقوبتهم :

أشار القرآن الكريم إلى عقوبة قوم لوط في عدد من سور القرآن ، وفصل خبرهم في سور أخرى .

القسم الأول : السور التي أشار القرآن فيها إلى عقوبتهم دون تفصيل هي :

(التوبة ، الأنبياء ، الحج ، الفرقان ، ص ، ق ، النجم ، الحاقة) .

الآيات التي ذكرت العقوبة :

أشار القرآن الكريم لعقوبة قوم لوط في عدة سور ، وفصل خبرهم في سور أخرى نبدأ بالسور التي أشار القرآن فيها لعقوبتهم وهي : سور (**التوبة** ، **الأنبياء**، **الحج** ،

---

(١) يقال : سدوم (بالدال) وقيل : سذوم (بالذال المعجمة) والمشهورة بالدال . انظر : (لسان العرب) مادة " سدم " (٦/٢٢٠) ، ط دار إحياء التراث .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٢٤٠) ؛ تفسير المنار (٨/٥٠٩) .

ومن كتب التاريخ : تاريخ الطبري (١/٢٩٢) ؛ البداية والنهاية (١/١٧٦) .

الفرقان ، ص ، ق ، النجم ، الحاقة) .

فسور (**التوبة** ، **والنجم** ، **والحاقة**) أشارت لقوم لوط دون ذكر اسمهم ، واتفقت في المسمى بـ (**المؤتفكات**) في سورتي (**التوبة** ، **والحاقة**) بصيغة الجمع وبـ (**المؤتفكة**) في سورة (**النجم**) بالإفراد ؛ لأن كل ما كان وصفاً لجمع المؤنث يجوز أن يأتي بصيغة المفرد وبصيغة الجمع[1] .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة:٧٠] .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم:٥٣-٥٤].

وقال سبحانه : ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ [الحاقة:٩-١٠] .

سورة (**الأنبياء**) : جاء ذكر لوط - عليه السلام - والإشارة إلى قومه بعملهم الخبيث موجزا في معرض ذكر الأنبياء المذكورين في السورة المسماة باسمهم ، ووصفهم بصفة السوء الدالة على الفسق زيادة على ذلك قبحهم الله و لم تذكر مقرونة بالفسق إلا في هذه السورة .

قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥] .

سور (**الحج** ، **ص** ، **ق**) : فقد جاء ذكر قوم لوط في معرض ذكر الأقوام المكذبين للتذكير والاعتبار .

قال تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٤٣] .

وقال سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾

---

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (١٥٤/٢٧) والأفك بفتح الألف : مصدر قولك : أفكه يأفكه أفكا ، أي : قلبه وصرفه عن الشيء ... وائتفكت البلدة بأهلها : أي انقلبت . انظر : (الصحاح) (١٥٧٣،١٥٧٢/٤) .

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص:١٢-١٤] .

وقال سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [ق:١٢-١٣] .

سورة **الفرقان** : جاء ذكر قوم لوط في معرض التذكير لقريش الذين كانوا يمرون كثيراً في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية ، غير أنها لم تذكر بالاسم الصريح هنا ، حيث جاء السياق عقب استعراض سريع لعرض مصارع الأقوام المكذبين وينهيها بمصرع قوم لوط[1] .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٤٠] .

القسم الثاني : السور التي فصلت عقوبتهم :

أولاً : سورة الأعراف :

قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأعراف:٨٠-٨٤] .

لطائف الآيات باختصار :

أولاً : لوط - عليه السلام - ينكر على قومه فعل هذا المنكر القبيح ، وتجاوز شرع الله وقلب الفطرة السوية .

ثانياً : لوط يخبر قومه بقبح عملهم ؛ لأن مباشرتهم له قبيحة ، واختراعهم له أقبح ؛ لما فيه من الخروج عن حدود الاعتدال إلى الحياة البهيمية .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ [الأعراف:٨٠] بالاستفهام وهو للإنكار والتوبيخ ، وقال بعده : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ﴾ فزاد مع الاستفهام (إنّ) ؟ فما الفرق ؟

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٥٦٤) .

والجواب : لأن التوبيخ والإنكار في الثاني أبلغ ، ومثله ما جاء في سورة النمل ﴿ أَتَأْتُونَ ﴾ [الأعراف:٨٠] وبعده ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ﴾[1] [النمل:٥٥] وتراه خالف في سورة العنكبوت حين قال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٨] ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت:٢٩] فجمع بين : « إن » و « أئن » وذلك لموافقة آخر القصة حيث جاء فيها ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ [العنكبوت:٣٣] وقوله ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] [العنكبوت:٣٤] .

رابعاً : إن قيل : إنه جاء في سورة **الأعراف** فقال : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف:٨١] وقال في سورة **النمل** : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل:٥٥] فما الفرق مع أن قصتهما واحدة ؟ .

والجواب : أن المسرف يجهل بإسرافه ، والجاهل مسرفٌ في أفعاله . بمعنى أن كل إسراف جهل ، وكل جهل إسراف . فيجوز أن يكون لوط – عليه السلام – قال في مقام له مع قومه هذا اللفظ : (**مسرفون**) ، وقال في المقام الآخر اللفظ الثاني : (**تجهلون**) .

أما كون سورة **الأعراف** اختصت بـ (**مسرفون**) لأن رؤوس الآيات التي تقدمت كلها أسماء مثل : (**العالمين**) ، (**الناصحين**) .....

وكذلك في سورة **النمل** وافق ما قبلها من الآيات وكلها أفعال : (**تبصرون**) (**تتقون**) (**تعملون**)[3] .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾ [الأعراف:٨٢] جاء هنا في سورة **الأعراف** بالواو ، وجاء في سورتي : النمل والعنكبوت بالفاء ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾ [النمل:٥٦] فما الفرق ؟

والجواب : أن ما قبلها (**مسرفون**) وهو اسم وإن أدى معنى الفعل ، والفاء للتعقيب والتعقيب يكون مع الأفعال .

---

(١) وهي : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ .

(٢) البرهان في متشابه القرآن ص"١٩٢،١٩٣" .

(٣) انظر : (درة التنزيل) ص"١٣٨،١٣٩" ؛ البرهان في متشابه القرآن ص"١٩٣،١٩٤" ؛ وانظر : (كشف المعاني) ص"١٨١" .

انظر له في قوله تعالى في سورة **النمل** : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ فَمَا كَانَ...﴾ [النمل:٥٥-٥٦] الآية .

وقوله في سورة **العنكبوت** : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ ﴾ [العنكبوت:٢٩] الآية .

أما في هذه السورة (**الأعراف**) ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝ ﴾[1] [الأعراف:٨١-٨٢] .

سادسا : قوله تعالى : ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [الأعراف:٨٢] وفي سورة النمل ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ﴾ [النمل:٥٦] فما الفرق ؟

والجواب : أن ما في هذه السورة كناية فسرها ما في سورة النمل ، فقصة لوط في سورة النمل نزلت قبل نزولها في الأعراف ، فيكون التصريح بقوله : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ﴾ في الأول نزولا[2] ، فاكتفى بما صرح به أولا .

ثانيا : سورة هود :

قال تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝ ﴾ [هود:٧٦-٨٣] .

(١) انظر : (البرهان في متشابه القرآن) ص"١٩٤" .

(٢) انظر : المصدر السابق ص"١٩٤" .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : جاءت هذه الآيات عقب قصة إبراهيم و لم تذكر في السورة السابقة.

ثانياً : ذكر في هذه السورة مجيء الملائكة إليه في صورة شبان مرد حسان بعد رجوعهم من عند إبراهيم – عليه السلام – فكره ملاقاتهم لا بغضاً في ضيافتهم وإنما لما يعلم من خبث قومه . ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص منه ، فإذا علم أنه لا مخلص منه ضاق به ذرعاً ، ثم يصدر تعبيراً عن المعاني وترتيباً عنه كلاماً يريح به نفسه[1] .

ثالثاً : ذكر في هذه السورة قوله : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ ﴾ [هود:٧٨] أي : من أضيافي ، وهذا كما عرض سليمان – عليه السلام – على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق ، ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن ، ولا حق لهم فيهن والمقصود دفع هذه الفاحشة الكبرى[2] .

رابعاً : ورد في هذه السورة تحديد الوقت الذي أمر الله لوطاً بالخروج فيه إجمالاً وهو ﴿ بِقِطۡعٍ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾[3] [هود:٨١] وورد تحديده بدقة في سورة القمر في قوله : ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيۡنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر:٣٤] وهو الثلث الأخير من الليل . وأخبر الله في هذه السورة أن العذاب سيصبحهم من نفس الليلة وقت شروق الشمس[4] .

خامساً : أمطر الله – عز وجل – قوم لوط بحجارة من سجيل منضود ، ثم قال بعدها : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:٨٣] أي : أن الله – تعالى – قادر

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٢٥) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٣٨٠) ، ط دار المدني .

ولعله استفاد مما ذكره البقاعي في نظم الدرر (١١/٧٥) حين قال : إن قوله تعالى : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ ﴾ [هود:٧٨] وقوله : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمۡ فَـٰعِلِينَ ﴾ [الحجر:٧١] جاء هنا بأداة الشك « إن » يشير بها إلى أن هذا الفعل مما لا ينبغي أن يفعل ، يعني وأنتم عالمون بأني لا أسلم بناتي أبداً ، فعلم من ذلك أن وصولكم إلى أضيافي – دون هلاكي – محال . وكأنه يرد بها على أقوال المفسرين الأخرى .

(٣) وتعيين الليل للخروج كيلا يلاقي ممانعة من قومه فيشق عليه دفاعهم . التحرير والتنوير (١٢/١٣٢) .

(٤) سيأتي الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴾ [الحجر:٧٣].

على أن يرمي المشركين بمثلها ، وهنا نلحظ أنه لم يقل : ببعيدة ، حيث جردها عن تاء التأنيث ، والحجارة مؤنث لفظي ، وكان الشأن فيما كان بمعنى الفاعل أن يطابق موصوفه في التأنيث ، فكيف جاء هذا في كتاب الله هنا ؟

والجواب : لأن المؤنث إذا أضيف إلى مذكر اكتسب منه التذكير[١] ، كقوله تعالى في سورة **الأعراف** : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦] وقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب:٦٣] وقوله : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس:٧٨] و لم يقل : قريبة من المحسنين ، ولعل الساعة تكون قريبة ، ومن يحي العظام وهي رميمة .

فتأول الزمخشري في الكشاف ما هنا على أنه صفة لمحذوف ، أي : بمكان بعيد ، أو : بشيء بعيد . على الاحتمالين على ما يعود إليه ضمير « هي »[٢] .

ثالثا : سورة الحجر :

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ ﴾ [الحجر:٥٧-٧٧].

---

(١) انظر : (شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك) لـ بهاء الدين عبد الله بن عقيل (٢/٥٠-٥١) .

(٢) التحرير والتنوير (١٢/١٣٠٦) .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر:٦١] إن قيل : المقصود هو لوط - عليه السلام - فلم قال آل لوط ؟

والجواب : لأنهم نزلوا منزله بين أهله فجاءوا آله . وفيها من التشريف والإكرام لهم جميعاً ما فيه[1] .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر:٦٥] .

وقال في سورة **هود** السابقة : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ [هود:٨١] يرد سؤال هو : لمَ استثنى امرأته في هود ولم يستثنها في **الحجر**؟ ثم لم خص سورة **الحجر** بقوله : ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ ؟

والجواب : قد تقدم في الآيات قبلها قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ [الحجر:٥٩-٦٠] فأغنى ذكر ذلك عن الإعادة ، ولم يتقدم في " هود " فذكرها .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم تحقق له نجاتهم ، وأمن أهله أمامه مما نزل بقومه ، وليكون على ثقة مما وعده به الملائكة الكرام وأنه سوف يتحقق لا محالة[2] ، وأمر ثالث : لئلا يشتغل قلبه بمن خلفه فينقطع عن ذكر الله[3] .

ثالثاً : إن قيل : كيف قالت الملائكة : ﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الحجر:٦٠] أي : قضينا ، والقضاء لله - تعالى - لا لهم ؟

الجواب : أن هذا مجاز ، كما تقول خواص الملك : دبرنا كذا ، وأمرنا بكذا ، ونهينا عن كذا ، ويكون الفاعل لجميع ذلك الملك لاهم ، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك[4] .... ولله المثل الأعلى .

---

(١) انظر : (التحرير والتنوير) (٦٣/١٤) .
(٢) انظر : (البرهان في متشابه القرآن) ص"٢٢٥،٢٢٦" ؛ وانظر : (كشف المعاني) ص"٢١٢،٢١٣".
(٣) البحر المحيط (٤٤٨/٥) .
(٤) انظر : (تفسير الرازي) المسمى " انموذج جليل " ص"٥٣" .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ [الحجر:٧٣] وقال في سورة هود : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ﴾ [هود:٨١] فكيف ؟

الجواب : إن ابتداء عذابهم الصبح قبل الشروق ، وكان آخره وقت شروق الشمس ، أو أن مبدأ الصباح وقت شروق الشمس[1] . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر:٧٤] وفي سورة هود قال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود:٨٢] فلم قال : مرة « عليهم » وأخرى قال : « عليها » .

والجواب : قوله : ﴿ عَلَيْهَا ﴾ لا إشكال فيه ، أي : على أهلها . أما قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ فإنه يعود على أول القصة وهو قوله : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر:٥٨] ثم قال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر:٧٤] وهذه لطيفة فاحفظها[2] ، أو أنها عائدة إلى ضمائر الجمع قبل هذه[3] الآية . وهذا ما أميل إليه .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥] بجمع كلمة : آية . وأفردها في الآية التي بعدها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٧٧] .

والجواب : لأن الآية الأولى فللإشارة إلى ما تقدم من قصة لوط وضيف إبراهيم ، ولما تعرض له لوط من أذى وغيره من الأمور الكثيرة ختم بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥] أي : لمن تدبر السمة وهي : ما وسم الله به قوم لوط وغيرهم .

وأما الثانية : فتعود إلى القرية ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر:٧٦] وهي واحدة ، فوحد الآية بعدها[4] ، أو لأن ما جاء في القرآن من الآيات فلجمع الدلائل ، وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه ، فلما ذكر عقيبه المؤمنين وهم مقرون بوحدانية الله سبحانه ، وحّد الآية . وليس لها نظير إلا في العنكبوت وهو قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] [العنكبوت:٤٤] .

---

(١) انظر : (كشف المعاني) ص"٢١٣" ؛ التحرير والتنوير (٦٥/١٤) .

(٢) البرهان في متشابه القرآن ص"٢٤٠" .

(٣) التحرير والتنوير (٦٩/١٤) .

(٤) درة التنزيل ص"٢٠٧" .

(٥) البرهان في متشابه القرآن ص"٢٤٠" ، وانظر : (التحرير والتنوير) (٦٩/١٤) .

خامسا : انفردت الآيات بذكر لفظ « سكرة » في قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر:٧٢] .

قال ابن القيم : وإنما وصف الله - سبحانه وتعالى - اللوطية بالسكرة ، لأن للعشق سكرة مثل سكرة الخمر كما قال القائل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة   ومتى إفاقة من به سكران[١] ؟

سادسا : انفردت الآيات بذكر أصل الفراسة من الكتاب العزيز في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥] .

قال السيوطي في الإكليل : هذه الآية أصل في الفراسة[٢] ، وعلاقتها بالآيات أن فيها عبرة وذكرى لقريش ، فهو إلهاب لهم وتبكيت ؛ لأنهم كانوا يدعون أنهم أبصر الناس بالفراسة[٣] ، فلماذا لا يتعظون بمصير هؤلاء وهم يمرون عليهم في رحلاتهم صباح مساء ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] .

رابعا : سورة الشعراء :

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٧٥] .

---

(١) تفسير القاسمي (٦٤/١٠) والبيت للخليع الدمشقي من أبيات له . انظر : (يتيمة الدهر) (٢٨٧/١) للثعالبي (عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري) ، ط دار السعادة تحقيق محمد محيي عبد الحميد .

(٢) تفسير القاسمي (٦٤/١٠) .

(٣) نظم الدرر (٧٨/١١) .

لطائف الآيات :

أولاً : رأينا في السور السابقة كيف بدأت بوصف فعلة قوم لوط الخبيثة ، وجدالهم له ومدافعته إياهم كأنه في معركة دائمة مع قومه .

أما هذه السورة فبدأت الآيات بذكر دعوتهم إلى عبادة الله وحده وتقواه ، والتلطف في إبلاغ الدعوة حرصاً منه عليهم ، وهو مع هذا لا يطلب على ذلك أجراً منهم مقابل دعوته إياهم ، ثم يذكر بعد ذلك فعلتهم الخبيثة ونصحه لهم .

ثانياً : انفردت الآيات بذكر نوع جديد من التهديد يفعله الطغاة في كل زمان ألا وهو النفي من البلاد ، فما هو إلا غريب عليهم ليس له منعة من قوم أو قربى ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء:١٦٧] وصيغة ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أبلغ من قوله : لنخرجنك . أي : ممن علمت حالهم حين يخرجون من القرية على أسوأ حال(١) .

ثالثاً : قوله تعالى عن امرأة لوط : ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٧١] إن قيل : في الغابرين صفة لها ، كأنه قيل : إلا عجوزاً غابرة ، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم ، فكيف ؟

فالجواب : معناه إلاّ عجوزاً مقدراً غبورها .

وفي سورة الأعراف ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الأعراف:٨٣] إنّ (كان) تأتي بمعنى : صار(٢) .

خامساً : سورة النمل :

قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النمل:٥٤-٥٨] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : ذكرت الآيات حال قوم لوط في اتيانهم لهذه الفاحشة وهم يعلمون أنها فاحشة ولم يكتفوا بعملهم ذلك ؛ بل جاهروا بها حتى كان يرى بعضهم بعضاً قبحهم

---

(١) التفسير الكبير (١٦١/٢٤) .

(٢) التفسير الكبير (١٦١/٢٤) ؛ وانظر : (التحرير والتنوير) (١٨٠/١٩) ؛ البرهان في متشابه القرآن ص"١٩٤" .

الله ولعنهم! قال تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل:٥٤] .

ثانياً : إضافة لما سبق في ذكر قول الله - تعالى - من سورة **الأعراف** ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [الأعراف:٨٢] وهنا قال : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل:٥٦] زيادة ملحظ وهو : حمل كل قول صدر منهم على الوقوع في وقتين ، ولاشك أنه كان ينهاهم كثيراً فكان يسمع في كل وقت كلاماً ممن حضر منهم[١] .

ثالثاً : اقتصرت سورة **النمل** على ذكر قصة ثمود وقصة قوم لوط دون ذكر عاد ومدين ؛ وذلك لمناسبة مجاورة ديار قوم لوط لمملكة سليمان - عليه السلام - ووقوعها بين ديار ثمود وبين فلسطين ، وكانت ديارهم ممر قريش إلى بلاد الشام . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر:٧٦] وقال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[٢] [الصافات:١٣٧-١٣٨] .

رابعا : ذكرنا الفرق بين وصف الله - تعالى - قوم لوط في سورة **الأعراف** بأنهم ﴿ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف:٨١] ، وهنا بـ (**تجهلون**) وزاد هنا في أنه لم يقل : « **يجهلون** » حيث غلب جانب الخطاب على جانب الغيبة ؛ لأن الخطاب أقوى دلالة كما جاء في قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل:٤٧] .

خامسا : قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل:٥٨] وقال في **الأعراف** : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:٨٤] .

قال صاحب التحرير والتنوير : هما عبرتان تفرعتا على وصف ما حل بهم ، فوزعت العبرتان على الآيتين ؛ لئلا يخلو تكرير القصة من فائدة[٣] .

سادسا : سورة العنكبوت :

قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ

---

(١) انظر : (تفسير المنار) (٨/٥١٢،٥١٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٩/٢٨٨) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/٦) .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٨-٣٥] .

لطائف الآيات :

أولا : سبق ذكر أكثرها في السورة السابقة ؛ غير أن سورة **العنكبوت** انفردت بذكر قبح فعلتهم ورضاهم بها واستغنائهم بها عن الزوجات ، وأضافوا ما هو أقبح من ذلك : ألا وهو قطعهم السبيل بنهب المال وترويع المارة والاعتداء عليهم بالفاحشة ، ثم يذكر السياق درجة أخرى أبعد في الفحش وتبجح بالرذيلة إلى حد لا يرجى معه صلاح ألا وهو قوله : ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ ﴾ [العنكبوت:٢٩] يأتونه جهارا وبشكل جماعي متفق عليه لا يخجل بعضهم من بعض[١] .

ثانيا : انفردت سورة **العنكبوت** بذكر طلب القوم العذاب منه ، قال الله عنهم : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٩] والأمر في قوله : ﴿ ٱئْتِنَا ﴾ للتعجيز . وهذا يقتضي أنه أنذرهم العذاب أثناء دعوته[٢] .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾[٣] [العنكبوت:٣٣] وقال في سورة هود : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ ﴾[٤] [هود:٧٧] بدون « أن » فما الفرق؟

والجواب : أن « لما » لابد لها من جواب ، فإذا اتصل بها « أن » دل على أن

---

(١) انظر : (في ظلال القرآن) (٢٧٣٣/٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٤١/١٠) .

(٣) وتكملتها ﴿ سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ .

(٤) وتكملتها ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ .

الجواب وقع في الحال من غير تراخ ، كما هو في سورة **يوسف** : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف:٩٦] وهنا جاء جواب لما سريعا ﴿ سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ [العنكبوت:٣١] .

أما في سورة **هود** فطال الكلام ، حيث جاء جواب لما بعد ثلاث آيات وهو قوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾[1] [هود:٨١] .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ [العنكبوت:٣٣] وقبلها قالت الملائكة لإبراهيم حين جادلهم في أمر لوط : ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ [العنكبوت:٣٢] فمرة قال : ﴿ مُنَجُّوكَ ﴾ ومرة قال : ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ ﴾ بصيغة الفعل ، فهل فيه فائدة ؟

والجواب : أنه لما قال لهم إبراهيم هناك : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ [العنكبوت:٣٢] وعدوه بنجاة لوط ، ووعد الكريم حتم .

وههنا لما قالوا للوط بعد الوعد مرة أخرى : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ [العنكبوت:٣٣] أي : ذلك واقع منا لا محالة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [الزمر:٣٠] لضرورة وقوعه[2] .

خامسا : إن قيل إن قول الملائكة للوط – عليه السلام – ﴿ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ [العنكبوت:٣٣] لا يناسبه ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ [العنكبوت:٣٣] لأن خوفه ما كان على نفسه ، فكيف يجاب عنه ؟

فالجواب : أن لوطا لما خاف عليهم وحزن لأجلهم قالوا له لا تخف علينا ولا تحزن لأجلنا فإنا ملائكة ، ثم قالوا له : يا لوط خفت علينا وحزنت لأجلنا ، ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك ، وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾[3] [العنكبوت:٣٣] .

سادسا : عذب القوم بسبب ما صدر منهم من الفاحشة ، وامرأته لم يصدر منها تلك ، فكيف كانت من الغابرين معهم ؟

والجواب : أن الدال على الشر كفاعله ، كما أن الدال على الخير كفاعله وهي التي كانت تدل القوم على ضيوف لوط – عليه السلام – فبذلك صارت واحدة منهم

(١) وانظر : (البرهان في متشابه القرآن) ص"٢٩٦" .

(٢) التفسير الكبير (٦٢/٢٥) .

(٣) التفسير الكبير (٦٢/٢٥) .

إضافة لكفرها الذي ذكره الله في قوله : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ [التحريم:٨] .

سابعا : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٣٥] وفي قصة نوح وإبراهيم في نفس السورة وقصة نجاتهما آية ، وههنا جعل الهلاك آية ، فهل من جواب يوضح ذلك ؟

والجواب : أن آية قدرة الله – تعالى – موجودة في الإنجاء والإهلاك ، فذكر من كل باب آية . وقدم آيات الإنجاء ؛ لأنها أثر الرحمة . وأخر آيات الإهلاك ؛ لأنها أثر الغضب . ورحمته سبقت غضبه عز وجل[١] .

سابعا : سورة الصافات :

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[٢] [الصافات:١٣٣-١٣٦] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولا : إن قيل : كيف قال الله – تعالى – : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الصافات:١٣٣-١٣٤] وهو من المرسلين قبل التنجية ؟

فالجواب : أن ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ ﴾ لا يتعلق بما قبله ، بل يتعلق بمحذوف تقديره : اذكر لهم يا محمد إذ نجيناه ، أو وأنعمنا عليه إذ نجيناه[٣] .

والمعنى : أنه حين إنجاء الله إياه وإهلاك قومه كان قائما بالرسالة عن الله – تعالى– ناطقا بما أمره الله[٤] .

ثانيا : السورة تعدد ما امتن الله به على أنبيائه من إكرام ونجاة ونصرة وغير ذلك ، ووجه تخصيص قصة لوط مع القصص الخمس[٥] في السورة بأن في عرض قصته مشاهد آثار قومه الذين كذبوا وأصروا على الكفر المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ

---

(١) التفسير الكبير (٦٢/٢٥) .

(٢) وتكملتها : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ، وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات:١٣٧] أي : على قرى قوم لوط .

(٣) تفسير الرازي " انموذج جليل " ص"٤٣٤" .

(٤) انظر : (التحرير والتنوير) (١٧١/٢٣) .

(٥) قصة نوح – عليه السلام – ، قصة إبراهيم – عليه السلام – ، قصة موسى – عليه السلام – ، فهؤلاء الرسل الثلاثة أصول ، ثم ذكر ثلاثة رسل تفرعوا عنهم ، وثلاثتهم على ملة رسل من قبلهم : فلوط على ملة إبراهيم ، وأما إلياس ويونس فعلى ملة موسى عليهم الصلاة والسلام . انظر : (التحرير والتنوير) (١٣٠/٢٣) .

عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] .

ثالثا : تنتهي هذه الإشارة لقصة قوم لوط بلمسة لطيفة لقلوب العرب الذين يمرون على ديار قوم لوط صباح مساء في رحلاتهم إلى بلاد الشام ، فلا تستيقظ قلوبهم ولا تفكر عقولهم فيما هو خير لهم[١] .

ثامنا : سورة القمر :

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القمر:٣٣-٤٠] .

لطائف الآيات :

أولا : عرف قوم لوط بالإضافة إليه في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر:٣٣] إذ لم يكن لتلك الأمة اسم يعرفون به عند العرب[٢] .

ثانيا : لم يقص علينا القرآن ما تلقى به قوم لوط دعوة لوط – عليه السلام – وإنما ذكرت ما كان منها مشابها لأقوال المشركين في تفصيله ؛ فلذلك اقتصر فيها على حكاية ما هو مشترك بينهم وبين المشركين وهو تكذيب رسولهم وإعراضهم عن نذره[٣] .

ثالثا : لم تذكر زوجة لوط في الآيات اكتفاء بما سبق من ذكرها وتنبيها على أن من لا يؤمن بالرسول لا يعد من آله كما قال تعالى : ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود:٤٦] .

رابعا : ذكرت الآيات ما أجملته القصص الأخرى[٤] في قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ [الحجر:٦٥] حيث فسره هنا بدقة في قوله : ﴿ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر:٣٤] أي : آخر الليل . وقيل : هو السدس الأخير من الليل[٥] .

(١) في ظلال القرآن (٢٩٩٨/٥) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٠٤/٢٧) .
(٣) المصدر السابق (٢٠٤/٢٧) .
(٤) أي سورتي هود ، آية (٨١) ، سورة الحجر ، آية (٦٥) .
(٥) التفسير الكبير (٥٨/٢٩) ؛ وانظر : (تفسير أبي السعود) (١٧٢/٨) ؛ فتح القدير (١٢٧/٥) .

خامسا : انفردت الآيات بذكر عذاب أولي أصاب قوم لوط حينما جاءوا لعمل الفاحشة بضيوفه ، فطمس الله أعينهم قبل وصولهم إليهم - قال المفسرون : خرج عليهم جبريل - عليه السلام - فضربهم بجناحه فطمس أعينهم[1] .

سادسا : فائدة ذكر ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر:٣٧،٣٩] في الموضعين أن يتجدد عند استماع كل نبأ من ذلك ادكار واتعاظ وإيقاظ استيفاء يتطلبه نص التنكير القرآني[2] .

فإن قيل الخطاب في ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ ممن وقع ؟ مع من وقع ؟

فالجواب من وجوه[3] :

الأول : فيه إضمار تقديره : فقلت على لسان الملائكة : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابِى ﴾ .

الثاني : هذا خطاب مع كل مكذب تقديره : كنتم تكذبون فذوقوا عذابي ، فإنهم لما كذبوا ذاقوا .

الثالث : إن هذا خرج مخرج كلام الناس ، فإن الواحد من الملوك إذا أمر بضرب مجرم وهو غاضب منه جدا ، فضرب ضربا مبرحا فإنه يصرخ مستغيثا ، فيقول الملك وهو لا يسمع قوله : ذق إنك مجرم مستأهل . والملك يعلم أنه لا يسمع كلامه مع مخاطبته له . وهذا كثير . فلذلك لما كان كل أحد بمرأى ومسمع من الله - عز وجل - إذا عذب أحدا كان قد سخط عليه فإنه يسمع قوله سبحانه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩] وقوله : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ .

سابعا : إن قيل : كيف يذاق النذر ؟

فالجواب : أن معناه : ذق مجازاة فعلك . أما معنى ﴿ وَنُذُرِ ﴾ فكما يقال : ذق فعلك ، أي : ذق ما لزم من إنذاري .

فإن قيل : فعلى هذا لا يصح العطف ؛ لأن قوله : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى ﴾ وما لزم من إنذاري وهو العذاب يكون كقول القائل : ذوقوا عذابي وعذابي ؟

---

(١) وسنده حدثنا بشر (هو ابن معاذ) قال حدثنا يزيد (هو ابن زريع) قال ثنا سعيد (هو ابن أبي عروبة) عن قتادة قوله : « ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر:٣٧] وذكر لنا أن جبريل عليه السلام استأذن ربه في عقوبتهم ليلة أتوا لوطا ، وأنهم عالجوا الباب ليدخلوا عليه فصفقهم بجناحه ، وتركهم عميا يترددون » وسنده صحيح لأن الرواة كلهم ثقات .
وانظر : (تفسير القرطبي) (٧٤/٩) وما بعدها ؛ تفسير ابن كثير (٢٨٥/٤) . وسيأتي تفصيله .

(٢) انظر : (التحرير والتنوير) (٢٠٧/٢٧) .

(٣) انظر : (التفسير الكبير) (٦١/٢٩) .

وجوابه : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى ﴾ أي : العاجل منه ، وما لزم من إنذاري هو العذاب الآجل . فكأنه قال : ذوقوا عذابي العاجل وعذابي الآجل .

فإن قيل : هما لم يكونا في زمان واحد ، فكيف يقال : ذوقوا ؟

وجوابه : أن العذاب الآجل متصل بآخر العذاب العاجل .

فهما كالواقع في زمان واحد ، وهو كقوله تعالى : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾[1] [نوح:٢٥] .

ثانيا : سبب العقوبة .

وفيه : أ – نماذج من دعوة سيدنا لوط – عليه السلام – .

ب – وقفة قبل النهاية .

دعا سيدنا لوط – عليه السلام – قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك أفعالهم القبيحة ، ولبث على ذلك زمنا طويلا يدعوهم ويجادلهم ويحذرهم عقاب الله ونقمته ، فاصطدمت دعوته بقلوب قاسية وأهواء مريضة ، ورفض متكرر ، فقد كانوا مجرمين حقا .

يستحي العاقل من ذكر جرائمهم للناس ؛ لئلا يتعلم المجرم المتفرغ من أفعالهم ، ولو فعل لاستحى بعد حين من فعلة واحدة ، ويكفيهم أنهم سنوا سنة سيئة عليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة! .

أ – نماذج من دعوة سيدنا لوط – عليه السلام – :

أولا : دعوته إلى عبادة الله وحده وطاعته .

كغيره من الأنبياء السابقين دعا قومه إلى عبادة الله وحده وطاعته ، ودعاهم إلى أن يطيعوه ؛ لأنه رسول من عند الله إليهم ، ولم يواجههم باستنكار المنكر أولا ؛ لأنهم إذا عبدوا الله وأطاعوه تخلوا من عند أنفسهم عما هم فيه .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٦٤] .

ثانيا : التنوع والتدرج .

تدرج سيدنا لوط عليه السلام في دعوة قومه يدل على ذلك كثرة إنكاره للمنكر وبألفاظ متعددة ، فتراه مرة يقول لهم : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ

---

(١) انظر : (التفسير الكبير) (٢٩/٦١) .

﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠] وهذه الفاحشة هي : اللواط ، بدليل الآية التي بعدها ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف:٨١] ومرة يقول لهم : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤] ومرة يقول لهم : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦٥] ومرة يقول لهم : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩] ومرة يقول بعد أن جاهدهم كثيرا : ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨] أي : إني أبغض وأكره بشدة عملكم ولا أحبه ولا أرضى به ، وإني بريء منكم[1].

فهنا أراد تغيير المنكر بقلبه ، وأخيرا قال لهم : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠] أراد تغيير المنكر باليد .

ثم وصفهم بأوصاف تليق بهم وبأمثالهم بقوله : ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨١] و ﴿عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٦] و ﴿تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:٥٥] .

قال صاحب (ملاك التأويل) في توجيه هذا التنوع : « إن اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم ، إذ ليس دعاؤهم إياهم في موقف واحد ولا لقوم مخصوصين ؛ بل يدعو النبي طوائف من قومه في أوقات مختلفة ومواطن شتى ، وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعي نبيهم ذلك في دعائهم ، وقد يخاطب ملأهم الأعظم في مواطن والفئة القليلة منهم في موطن آخر ، وربما أطال في موطن وأوجز في موطن ، وذلك بحسب ما يرونه – عليهم السلام – ، أجدى وأرجى ، فلا يشكل على هذا اختلاف أقوالهم ولا اختلاف مجاوبة أممهم لهم »[2] .

ثالثا : توفير البدائل واختيار أخف الضررين .

وهذا ما فعله سيدنا لوط – عليه السلام – حين هجم أولئك المجرمون على بيته يريدون فعل الفاحشة بأضيافه ، فدعاهم إلى البديل وهو الزواج من بناته أي : نسائهم ، أو الزواج الشرعي ببناته هو على قول من قال ذلك ؛ لأنه أب لأمته ، أو أنه فعل ذلك ليتزوج بناته الوجهاء منهم فيردوا الباقين ، وقد كان يرفض تزويجهم منهم لعدم الكفاءة ، فإن انتفى ما سبق وأنه – عليه السلام – قال ذلك من باب تصريفهم عنه لعلمه أنه لا حق لهم فيهن ، كما عرض سليمان – عليه السلام – للمرأتين حين اختصمتا في الولد فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينكما . ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٥٧) .

(٢) ملاك التأويل ، القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ، في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل . للإمام أحمد ابن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي . بتحقيق سعيد الفلاح (١/٥٤٤،٥٤٥) ، دار الغرب الإسلامي .

وهذا مثله . ولهذا قال قومه : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود:٧٩] وأيضا : يريد بعض العذر من أضيافه .

وقد رد الشيخ ابن سعدى قول من قال : إن معنى ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ [هود:٧٨] يعني : زوجاتهم ؛ لأن النبي أب لأمته ، وقال : هذا يمنعه أمران[1] :

أحدهما : قوله : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ يشير إليهن إشارة الحاضر .

ثانيا : هذا الإطلاق على زوجاتهم لا نظير له ، وأيضا : النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به ، لا للكفار ، والمحذور الذي توهموه يزول بما ذكرنا ، وأنه يعلم أنه لا حق لهم فيهن ، وإنما يريد مدافعتهم بكل طريق ، فاشتد الأمر بلوط فقال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود:٨٠] فلما رآهم جازمين على مرادهم الخبيث قال : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود:٧٨] فأخبرته الملائكة بأمرهم وأنهم أرسلوا بهلاكهم .

رابعا : التخويف والوعيد .

حاول لوط – عليه السلام – استثارة مشاعر قومه فيخوفهم بالله – تعالى – وينذرهم عقابه ، لعلهم يستجيبون له ويطيعونه ، فقال تعالى على لسانه : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود:٧٨] و ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ [الحجر:٦٩] ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء:١١٠] و ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر:٣٦] .

وتأتي آية أخرى تبين أن قومه يشهدون بلسانهم أنه توعدهم بالعذاب حين سخروا منه وتحدوه بقولهم : ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٩] .

قال الألوسي : « وهذا ظاهر في أنه – عليه الصلاة والسلام – كان أوعدهم بالعذاب »[2] .

خامسا : الاعتماد على الله وحده ، قال تعالى على لسانه : ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٦٤] .

مما سبق يتبين أن لوطا – عليه السلام – كان لا يخافهم ولا ترهبه تهديداتهم ، فقد دعاهم في أماكنهم الخاصة ونواديهم العامة غير آبه بهم ، لاعتماده على الله وحده – وهو كاف عبده – ، مؤمن بأن الله سيمنعه وينجيه منهم ومن أفعالهم الخبيثة .

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن . ص"١٧٠،١٧١" ، ط دار طيبة .

(٢) روح المعاني (٢٠/١٥٣) .

وقفة تأمل قبل النهاية

وفيها :

أولا : الميزان الفطري يختل عند قوم لوط.

كما سبق وأن علمنا أنهم هددوا لوطا - عليه السلام - بالإخراج ، وهم من قبل ذلك يحاولون عزله عن الناس ، فقد نما إلى علمهم أنه يؤوي إليه أضيافا من أماكن أخرى بين الحين والآخر : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَ لَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحجر:٧٠] فلم يستطيعوا منعه ؛ لأن الرجل كان كريما مضيافا ، فما هو بالذي يمكن أن يسكت ولو بعد حين عن أفعالهم ، فاختلقوا الأعذار الواهية المريضة لإخراجه ، وتعللوا بطهارته مما هم فيه مرة ، وبعدم رضائه عنهم أخرى ، فهو دائم الإنكار والبغض لما هم فيه ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٨٢] .

وهنا نلاحظ شدة تأثير الشذوذ عليهم حتى أنزلهم لهذا المستوى الهابط ، فانعكست القيم واختلت الموازين لديهم ، فالرذيلة في نظرهم فضيلة ، والعفة جريمة؛ إنه شذوذ أدى إلى الانخلاع من فطرة الأحياء جميعا ، وهذا يدل أيضا على فساد التركيب النفسي والعضوي لديهم ؛ لأن الله جعل لذة المباشرة الجنسية بين الزوجين متناسقة مع خط الحياة الأكبر ، وامتداد النسل الذي ينشأ عن هذه المباشرة . وجهز كيان كل من الزوجين بالاستعداد للالتذاذ بهذه المباشرة ، نفسيا وعضويا ، وأما المباشرة الشاذة فلا هدف لها ، ولم يجهز الله الفطرة بالتذاذها تبعا لانعدام الهدف منها ، فإذا وجد فيها أحد فمعنى هذا أنه انسلخ نهائيا من خط الفطرة ، وعاد مسخا لا يرتبط بخط الحياة[1] .

ثانيا : طلب قوم لوط العذاب .

طلب قوم لوط العذاب على سبيل السخرية والتحدي للوط - عليه السلام - ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٩] وهذا الرد ما هو إلا حلقة من حلقات تمرد العباد على

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٧٣٣) .

دعوات الرسل والأنبياء في كل زمان ومكان . إنه التبجح في وجه الإنذار ، والتحدي المصحوب بالتكذيب ، والشرود الذي لا تنتظر منه أوبة ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس:٣٠] وقد ظل هذا الطلب ديدن المكذبين منذ عهود الإصلاح الأولى ، قائما في وجه الدعاة والمصلحين وعباد الله الصالحين[١] .

ثالثا : فرض العزلة المنفردة عليه .

وكأن هذه الإرهاصات في تدرجها تؤذن بهلاك القوم ؛ حيث أجبروه على عدم الاتصال بالناس أو حتى استقبالهم وضيافتهم لعدة أمور . منها :

١ - أن الرجل محبوب من الناس ، فخافوا أن تنتشر دعوته بينهم فيضلهم في نظرهم ويبعدهم عن طريقهم .

٢ - أن لوطا - عليه السلام - كان كريما ، يحب إكرام الضيف فخافوا أن يعرض على من يأتيه دعوته فيخرج عليهم قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحجر:٦٨-٧٠] .

وهكذا يبقى أسلوب فرض العزلة والإقامة الجبرية ، وكبت الحريات قائمة ضد الدعاة إلى الله - تعالى - في كثير من المجتمعات وخاصة الدول الإسلامية التي لا تحكم بشريعة الله فضلا عن ذكر غيرها من الدول الكافرة ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١] .

رابعا : التهديد بعقوبة النفي للوط عليه السلام .

لاحظنا من قبل التدرج في التهديد للوط - عليه السلام - حيث قالوا له **أولا** : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٧-١٦٨] ثم تجاوزوا ذلك لأهله بصيغة الجمع ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٨٢] ثم تجاوزوا ذلك إلى التصريح وترك الكناية ، فقد ضاقوا ذرعا بتصرفاته فلا حل إلا أن

(١) كما سبق بيانه عن قوم نوح وهود وصالح ، وما سيلحقه في الفصول القادمة إن شاء الله .

يخرج هو وأهله ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل:٥٦] فجعلوا غاية المدح ذما يقتضي الإخراج ، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج[1] .

وهكذا بلغ بهم السوء وعدم المبالاة ، وتحكم الشر فيهم إلى أن يخرجوا النبي لوطا من بين أظهرهم ، وأن ينبذوه من مجتمعهم وقريتهم . لا لشيء إلا أنه ينتقد مساوئهم ويعيب قبائحهم الدنيئة وانحرافهم الخبيث الذي ألفوه حتى باتوا يقاومون الطهر والنقاء ويرفضون كلام الأنبياء النصحاء . فتمالؤا على إخراجه لأنه ليس بالذي يسكت ولو بعد حين عنهم ، ولا هو بالذي يرضى بأفعالهم ، فليس هناك من حل إلا أن يخرج وينفى بعيدا عن أرضهم فأخرجهم الله – تعالى – من الدنيا كلها ، ونجى لوطا ومن كان معه من المؤمنين ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] .

خامسا : وصول الملائكة إلى لوط – عليه السلام – في صورة بشر .

في طريقهم إلى لوط – عليه السلام – مروا بخليل الرحمن إبراهيم – عليه السلام – في صورة بشر فأكرمهم وأحسن وفادتهم ، ثم تبين له أنهم ملائكة ، ولابد أنهم مرسلون بأمر عظيم جاءوا من أجله فسألهم ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر:٥٧] فأخبروه ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات:٣٢-٣٤] فجادلهم إبراهيم فجاءه الرد ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود:٧٦] فأخبرهم لما في قلبه من الشفقة والرحمة على لوط عليه السلام وقال : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٢] .

وهكذا اطمأن إبراهيم على لوط ومن آمن معه ، ثم توجهت الملائكة قاصدة لوطا – عليه السلام – في صورة شبان حسان الوجوه للابتلاء والاختبار ، فلما رآهم لوط –

---

(١) قصص القرآن ، ابن كثير (١/١٧١) ، ط مكتبة الباز .

ومعنى اللجاج : اللجاج . التمادي في الخصومة . انظر : (لسان العرب) (١٢/٢٣٩) مادة "لجج" .

واللجة : الجلبة . وألج القوم : إذا صاحوا . النهاية في غريب الحديث والأثر ، لـ مجد الدين : المبارك ابن محمد الجزري ابن الأثير (٤/٢٣٤) .

عليه السلام - سيء بهم وضاق صدره بمجيئهم ، خوفا عليهم من قومه .

كما قال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود:٧٧] .

لعلمه بقومه أنهم خبثاء أشرار لا يرقبون إلا ولا ذمة ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي : شديد في الشر[١] . فأخبرت امرأته قومها بمجيء هؤلاء الشبان الحسان الوجوه إلى لوط ، فأسرع القوم إليه وجاؤا مستبشرين فرحين كما قال سبحانه : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:٧٨] وقال أيضا : ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الحجر:٦٧] .

لقد تسامع القوم بأن في بيت لوط شبانا صباح الوجوه ففرحوا بأن هناك صيدا ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور ، يكشف عن هذا المدى مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة مستبشرين بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية ، هذه العلانية التي يترفع عنها الحيوان ، بينما أولئك القوم المجرمون يجاهرون ويتلمظون عليها ، وهي حالة من الارتكاس معدومة النظير ، فأما لوط فوقف مكروبا يحاول أن يدفع عن ضيوفه وعن شرفه ، وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم ، ويستجيش وجدان التقوى لله ، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم يعد فيها نخوة ولا شعور إنساني ، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع ، فإذا هم يتبجحون فيؤنبون لوطا على استضافة أحد من الرجال ، كأنما هو الجاني الذي هيأ لهم أسباب الجريمة ، ودفعهم إليها وهم لا يملكون له دفاعا[٢] .

ولكن ما نقول في قوم اشربت نفوسهم حب المنكر ، فلم يعد لديهم نخوة ولا أصالة ولا شهامة . إن الرجل إذا عير في عرضه أو شرفه بشيء لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال حتى يغسل ما اتهم به مهما كلفه ذلك من ثمن ولو كانت روحه التي بين جنبيه ، أما هؤلاء فأصبحوا كالخنازير لا يغارون فانقلب لديهم الحق باطلا والباطل حقا ، فراحوا يهددون لوطا بالدخول عنوة على أضيافه فيقول لهم : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

(١) تفسير القرطبي (٧٤/٩) .

(٢) في ظلال القرآن (٢١٤٩/٤) .

ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩﴾ [الحجر:٦٨-٦٩] يذكرهم بالله ويستثير مشاعرهم ونخوتهم وتقاليدهم كبدو ينبغي عليهم إكرام الضيف لافضحه ، فأبوا ذلك فقال : ﴿ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ [هود:٨٠] ومراده – عليه السلام – بالركن : العشيرة والمنعة بالكثرة[١] .

قال ابن عباس وأهل التفسير : **أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظر قومه ويجادلهم ويناشدهم من وراء الباب ، وهم يحاولون تسور الجدار ؛ فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصب بسببهم ، قالوا : يا لوط إن ركنك لشديد ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ، وإنا رسل ربك ، فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم ، فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ولا اهتدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ، فإن في بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض ، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا ، وجعلوا يقولون : يا لوط ، كما أنت حتى نصبح فسترى ، يتوعدونه**[٢] .

فكان طمس أعينهم عذابا أوليا ، يبشرون به لوطا أنه لن يمسه منهم شيء ، ولا يستطيع القوم الهروب أو الخروج من البلد حتى ينزلوا بهم عذاب الله وسخطه .

قال الشوكاني في قوله تعالى : ﴿ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾ [القمر:٢٨] قال : أي : صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وقيل : أذهب الله أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها . قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا[٣] . وقال الزمخشري : إنهم لما جاؤوا إلى باب لوط ليدخلوا عنوة قالت الملائكة : خلهم يدخلون ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾ [هود:٨١] ، فصفقهم جبريل – عليه الصلاة والسلام – بجناحه صفقة فتركهم يترددون ولا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط[٤] .

---

(١) تفسير القرطبي (٧٨/٩) .

(٢) تفسير القرطبي (٧٨/٩، ٧٩) وهذا الأثر ذكره الحاكم في المستدرك ، كتاب تاريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين ، ذكر لوط النبي ﷺ (٦١٤/٢) ، برقم [٤٠٥٩] وقال : على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) فتح القدير (١٢٧/٥) .

(٤) الكشاف للزمخشري (٤١٥/٢) ؛ وانظر : (البحر المحيط) (٢٤٨/٥) ؛ وانظر : (تفسير الألوسي) (٩٠/٢٧) .

نوع العقوبة

عرفنا من قبل أن لوطا - عليه السلام - دعا قومه إلى عبادة الله وترك أعمالهم الخبيثة ، فقابلوا ذلك بالتكذيب والعصيان والسخرية والنكران ، وطلبوا أن ينزل بهم العذاب إن كان صادقا .

ولما يئس من استجابتهم دعا الله أن ينجيه وأهله وينصره على القوم المفسدين ، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٦٩ ﴾ [الشعراء:١٦٨-١٦٩] وقال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠ ﴾ [العنكبوت:٢٩-٣٠] .

فاستجاب الله دعوته وأقال عثرته وشفا صدره منهم فأنزل بهم رجزه وغضبه ، فلم يعرف أمة في التاريخ عذبوا بمثل عذابهم . وإليك الآيات التي ذكرت عذابهم ، ثم تفصيل ذلك .

ذكر الله - تعالى - أصنافا من العذاب التي أوقعها بأولئك المجرمين . ذكرها في عدد من سور القرآن في هذه الآيات ، قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣ ﴾ [هود:٨٢-٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ ﴾ [الحجر:٧٣-٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء:١٧٣] ومثلها في سورة النمل[1] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [العنكبوت:٣٤] وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ

(١) سورة النمل ، آية (٥٨) .

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر:٣٤] .

من خلال الآيات السابقة يتضح لنا أن الله – عز وجل – أهلك قوم لوط بأنواع من العذاب هي :

أ – المطر ، ب – الحجارة المسومة من السجيل المنضود ، جـ – الصيحة ، د – قلب قراهم بأن جعل عاليها سافلها ، هـ – الحاصب ، و – تتبعهم في القرى بالحجارة .

روى ابن جرير بسنده[١] : « **قال لوط : لو أن لي قوة أو آوي إلى ركن شديد ، فوجد عليه الرسل وقالوا : إن ركنك لشديد ! وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ، .. إلى أن قال : ونزلت حجارة من السماء فتتبعت من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا فأهلكهم الله ، ونجى لوطا وأهله إلا امرأته** » .

وعند ابن كثير : لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم وذلك قوله ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ [النجم:٥٣] ، ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه الحجارة ، ومن كان منهم شاذا في الأرض يتبعهم في القرى ، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله[٢] .

مما سبق نستطيع أن نقول :

أولا : قوم لوط عصوا الله وجاهروا بالمعاصي حتى أصبح فعلهم محادة لله تعالى ورسوله ، وسخروا من نبيهم واعتدوا عليه في بيته ، فأنزل الله بهم أنواعا من العذاب عقوبة لهم ، فلم يصب قوما ما أصابهم ، وقد ذكرها القرآن الكريم وفرقها في سوره لتكون عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين[٣] .

---

(١) حدثني المثنى (هو ابن إبراهيم الأملي) ثقة ، قال : حدثنا إسحاق هو (ابن راهويه) ثقة ، قال : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ثقة ، عن عبد الصمد بن معقل ثقة ، أنه سمع وهب بن منبه ثقة . فالسند صحيح إليه ، وذكر الأثر وفي آخره ما ذكرناه (١٥/٤٢٨ و٤٤٢) بسند حسن .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٤٧١) ؛ تفسير فتح القدير (٢/٥١٥،٥١٦) .

(٣) روح المعاني (٢٧/٩٠) .

ثانيا : قال الشوكاني : « ذكر المفسرون روايات وقصصا في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة ، وليس في ذكرها فائدة لاسيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح ، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب ، وحالهم في الرواية معروف . وقد أمرنا بأنا لا نصدقهم ولا نكذبهم فاعرف هذا »[1] .

ثالثا : والصحيح مما ذكره المفسرون ما كان موافقا لظاهر القرآن من أن الله تعالى جعل عالي القرية سافلها ، وأمطر عليهم في أثناء ذلك حجارة من طين متحجر صلب كانت تنهال عليهم متتابعة منتظمة لا يخطيء حجر طريقه ولا يضل سبيله حتى هلكوا وبادوا ، فلم ينفعهم ما أرادوا ، ولم يمنعهم كل ما ملكوا وسادوا .

رابعا : أن ما يحدث اليوم من أمراض معدية ، لا دواء لها إنما هي نتيجة لهذه الفعلة الخبيثة ، أو لكل عمل شاذ ليس طريقة الطريق الشرعي ؛ هذا ، وقد انتشرت هذه الفعلة في الدول الغربية انتشارا فاحشا يخشى من انتشارها في الدول الإسلامية من أصحاب القلوب المريضة ، والشهوات الرخيصة ، ليكون نذير شؤم ينذر بهلاك فاعلها والراضي بها قال تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:٨٣] إذا نهجوا نهجهم واقتفوا أثرهم ممن تشبه بهم في فعلهم القبيح ورأيهم العنيد[2] . وسنذكر بعضا من آثارها في الدروس المستفادة .

---

(١) تفسير فتح القدير (٥١٧/٢) ؛ وانظر : (كلام صاحب المنار) (١٣٩،١٣٨/١٢) .

(٢) انظر : (تفسير ابن كثير) (٤٧١/٢) ، تيسير الكريم الرحمن (٣٨١/٢) .

نجاة لوط - عليه السلام - ومن آمن معه

صدرت الأوامر بعد معركة بيت لوط - عليه السلام - إليه أن يخرج بأهله إلا امرأته بقطع من الليل أي : في وقت السحر ، وأن يكون خلفهم ولا يلتفت أحد منهم ، وفي الطريق تأتيه الأوامر إلى أين يتجه ؟

قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ[1] بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود:٨١] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ[2] وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ[3] وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾[4] [الحجر:٦٥] .

---

(١) قال الشوكاني : - رحمه الله - : « إن (أسري) للمسير من أول الليل ، و (سرى) للمسير من آخره ، والقطع من الليل : الطائفة منه . قال ابن الأعرابي : بقطع من الليل : بساعة منه، وقال الأخفش: بجنح من الليل ، وقيل : بظلمة من الليل ، وقيل : بعد هدوء من الليل . قيل : إن السرى لا يكون إلا في الليل ، فما وجه زيادة بقطع من الليل ؟ قيل : لو لم يقل : بقطع من الليل لجاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة ، وليس ذلك بمراد» تفسير فتح القدير (٥١٥/٢) .

(٢) واتبع أدبارهم : قال صاحب الكشاف : أمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تحصل منهم التفاتة احتشاما منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة ، لئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب ، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سربه ويفوت به . تفسير الكشاف (٥٨٤/٢) .

وذكر صاحب نظم الدرر (٧٢/١١) في معنى ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [الحجر:٦٥] زيادة على ذلك فقال :

١ - لتكون أقربهم إلينا وإلى محل العذاب ، فأنت أثبتهم قلبا وأعرفهم بنا . ٢ - جرت عادة الكبراء أن يكونوا أدنى جماعتهم إلى الأمر المخوف سماحا بأنفسهم وتثبيتا لغيرهم . ٣ - علما منهم بأن مداناة ما فيه وجل لا يقرب من أجل وضده لا يغني من قدر ولا يباعد من ضرر ، وانظر : (البحر) (٤٤٨/٥) ؛ والتحرير والتنوير (٦٤/٧) .

(٣) ولا يلتفت منكم : قال الرازي صاحب التفسير : (٢٠١/٢٠) [الفائدة] فيه أشياء : أحدها : لئلا يتخلف منكم أحد فيناله العذاب . ثانيها : لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء . ثالثها : معناه : الإسراع وترك الاهتمام لما خلف وراءه . ورابعها : لو بقي منه متاع في ذلك الموضع فلا يرجعن بسببه البتة .

(٤) وامضوا حيث تؤمرون : قال ابن عباس : الشام . وقيل : موضع نجاة غير معروف . وقيل : مصر . وقيل : إلى أرض الخليل . وقيل : يشعر بأنه يكون معهم بعض الملائكة - عليهم السلام - تدلهم على المكان . وقيل : بعض قرى لوط . انظر : (البحر) (٤٤٨/٥) ؛ ونظم الدرر (٣٣/١١) ؛ تفسير فتح القدير : (١٣٦/٣) . وقال أبو السعود في تفسيره (٣٣٣/٣) : « إلى حيث أمركم الله - تعالى - بالمضي إليه ، وهو الشام أو مصر » .

وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾[1] [الذاريات:٣٥-٣٦] .

نفذ لوط – عليه السلام – ما قالته له الملائكة ، لتكون نجاته بعيدا عن مصارع القوم خرج لوط من قريته غير آسف لما سيحل بقومه في الصباح ، فإذا هو عند خروجه لا يلوي على شيء ولا يحدوه الأمل أن يعود مرة أخرى ، أو ليقف فيتذكر الأطلال ، أو لينظر نظرة وداع . خرج حتى إذا صار بعيدا أنزل الله بقومه المجرمين عذابه ، فزلزلت الأرض زلزالها ، وجعل عاليها سافلها ، ثم غشاها بمطر من سجيل ، فإذا الديار غير الديار وإذا الأرض غير الأرض ، لقد صارت خاوية بما ظلموا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] [الشعراء:٨] .

---

(١) من هاتين الآيتين يعلم : أنه لم يكن مع لوط – عليه السلام – عند نجاته سوى بناته . وهو ظاهر الآيتين .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قال : لوط وابنتيه . تفسير الشوكاني (٥/٨٩) .

أما امرأته فهي مستثناة في آيات أخرى بأنها هالكة مع القوم . كما قال سبحانه : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ [هود:٨١] .

(٢) نظم الدرر (١٤/٨١) ؛ وانظر قريبا من هذا المعنى عند د/ عبد الكريم زيدان في كتابه " المستفاد من القصص القرآني " (١/٢٣٤) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبة قوم لوط

أولا : إنكار المنكر على الكافر في بيئته .

بمعنى : أن على الداعية المسلم أن ينكر على الكافر غير الكفر .

وذلك إذا كانت معصيته تلحق الضرر بالأمة وتشيع الفساد في الأرض ، وهذا ما رأيناه في دعوة سيدنا لوط – عليه الصلاة والسلام – حيث دعاهم للتقوى والطاعة وترك فعل الفاحشة . وقد رأينا كيف كان يتلطف معهم ويجادلهم بالحسنى ، لعل أحدا منهم يستجيب لدعوته .

ورأينا أيضا : أنه لم يكلفهم بتشريعات معينة كالصلاة مثلا أو غيرها ، وإنما ركز جل دعوته في النهي عن فعل هذه الفاحشة لضررها الكبير بالمجتمع التي عدوها إلى الذكور من غير الآدميين توغلا في الشر وتجاهرا بالتهتك[1] .

ثانيا : في هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح ، وأنها توجب العقاب الشديد ، واللعنة في الدنيا والآخرة .

ثالثا : أن من ابتلي بفعل هذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح ؛ فاستحسن ما كان قبيحا ونفر من كل طيب ، وذلك دليل على انحراف الأخلاق[2] .

رابعا : إن في ارتكاب جريمة اللواط مفسدة للنساء اللواتي انصرف أزواجهن عنهن حتى قصروا فيما يجب عليهم من إحصانهن ، وكم من امرأة اضطرها زوجها إلى الزنا لانصرافه عنها بتلك الفاحشة ، مع وفور جمالها وكمالها[3] .

خامسا : أنها تسبب قلة النسل ؛ لأن من لوازمها الرغبة عن الزواج ، والرغبة في إتيان الأزواج في غير مأتى الحرث .

وقد وردت أحاديث كثيرة في حظر إتيان النساء في غير سبيل النسل ولعن فاعل ذلك ، وهو من عمل قوم لوط ، وتسمى عند بعض العلماء : اللوطية الصغرى منها : حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن النبي ﷺ قال : « **الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى** »[4] .

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير الرحمن ص"١٧١" ؛ وانظر : (تفسير المنار) (٨/٥٢٠) .
(٢) انظر المرجعين السابقين .
(٣) تفسير المنار (٨/٥٢١) .
(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٢١٠) ، برقم [٦٩٦٨] .

قال قتادة : وحدثني عقبة بن وساج[1] ، عن أبي الدرداء[2] قال : وهل يفعل ذلك إلا كافر[3] .

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **من أتى حائضا ، أو امرأة في دبرها ، أو كاهنا فصدقه ، فقد كفر بما أنزل على محمد** »[4] .

سادسا : أنها ذريعة للاستمناء ولاتيان البهائم ، ولاشك أنهما معصيتان قبيحتان شديدتا الضرر في الأبدان والآداب ؛ لأن من يفعل ذلك يصير قصده الشهوة لذاتها ، فقد يستغني بها عن الزواج لقرب منالها وقلة تكلفتها ، فتجتمع عليه الشرور والبلايا من كل مكان أعاذنا الله منها![5] .

=

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٨/٤) وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط . ورجال أحمد رجال الصحيح . وقال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .

(١) عقبة بن وساج : (بتشديد المهملة وآخره جيم) الأزدي ، بصري نزل الشام ، ثقة ، من الثالثة ، قتل بعد الثمانين بالزاوية أو الجماجم . التقريب ص"٣٩٥" .

(٢) أبو الدرداء : الصحابي الجليل المعروف ، واسمه : (عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري) مشهور بكنيته ، شهد أحدا ، وكان عابدا ، مات في أواخر خلافة عثمان . وقيل : عاش بعد ذلك ، مختلف في اسمه واسم أبيه . التقريب ص"٤٣٤" .

(٣) رواه النسائي في الكبرى ، كتاب عشرة النساء ، باب ذكر حديث ابن عباس فيه واختلاف ألفاظ الناقلين عليه (٣٢١/٥) ، برقم [٩٠٠٤] .

وأخرجه عبد الرزاق [ابن همام الصنعاني] في مصنفه ، باب إتيان المرأة في دبرها (٤٤٣/١١)، برقم [٢٠٩٥٧] ، وابن أبي شيبة (عبد الله بن محمد) كتاب النكاح ، ما جاء في إتيان النساء في أدبارهن (٣٦٣/٣) ، برقم [١٢٤] قال الحافظ في التلخيص : (١٨١/٣) إسناده قوي .

وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط وقال : هو إسناد صحيح على شرط البخاري .

(٤) رواه أحمد في المسند (٤٠٨/٢) ، برقم [٩٢٧٩] ورواه أبو داود ، كتاب الطب ، باب في الكاهن (٢٢٥/٤،٢٢٦) ، برقم [٣٩٠٤] .

ورواه الترمذي ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض (٢٤٢/١) ، برقم [١٣٥] .

ورواه ابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب النهي عن إتيان الحائض (٢٠٩/١) ، برقم [٦٣٩] .

وعند النسائي في الكبرى ، كتاب عشرة النساء ، باب ذكر اختلاف الناقلين لخبر أبي هريرة (٣٢٣/٥) ، برقم [٩٠١٦] ؛ وفي مجمع الزوائد «من أتى النساء في أعجازهن فقد كفر» رواه الطبراني ورجاله ثقات والحديث المروي في السنن صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٤٤/١) ، برقم [١١٦] وفي إرواء الغليل (٦٨/٧) ، برقم [٢٠٠٦] .

والنسائي في الكبرى (٣٢٣/٥) ، ط دار الكتب العلمية ، برقم [٩٠١٦] ، وسنن ابن ماجه (٢٠٩/١) ، برقم [٦٣٩] .

(٥) تفسير المنار (٥٢٢/٨) .

سابعا : لقبح فعلة اللواط وشناعتها وضررها بالفرد والمجتمع حرمها الإسلام وجعل عقاب ذلك القتل على الراجح من أقوال أهل العلم كما سيأتي بيانه .

ومن أضراره الصحية : أنه ينقل إلى الإنسان مرض الزهري ، والسيلان ، والقرحة الرخوة ، وأمراض الجلد كالجرب وغيره . ثم إنه يحدث بالشرج أمراضا كثيرة منها :

ضعف العضلة العاصرة حتى يفقد فيها السيطرة على عملية الإخراج ، فيحدث من غير إرادة ، ويحدث تمزق الشرج نفسه وزوال الأنسجة حوله ، ثم إنه قد يصاب بداء الأبنة[1] حتى يصبح مخنثا . وقد يظهر على العكس من ذلك رجولة أكثر ليغطي النقص الذي عنده ، فقبح فاعلها ومفعولها ليس لكونها لذة بهيمية كما قيل ، إذ اللذة البهيمية لا قبح فيها لذاتها ، بل فحشها باستعمالها بما يخالف مقتضى الفطرة وحكمتها ، وبما يترتب عليها من المضار البدنية والاجتماعية والأدبية الكثيرة[2] .

ثامنا : عناية الله – تعالى – بخليله إبراهيم فإن لوطا – عليه السلام – من أتباعه ، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط أمر رسله أن يمروا بإبراهيم – عليه السلام – كي يبشروه بالولد ، وحدثوه بما بعثوا له حتى إنه جادلهم في إهلاكهم وحاول تأخير العذاب عنهم ، وما خرجوا من عنده حتى أقنعوه فطابت نفسه[3] . ومنه نأخذ مشروعية الجدال عمن يرجى له الخير من الناس ، وذلك في غير الحدود الشرعية إذا رفعت إلى الحاكم[4] .

تاسعا : أن الله – تعالى – قدر مجموعة من الأسباب جعلت لوطا – عليه السلام – يشتد غيظه وحنقه عليهم ، فلربما أنه لو لم يحصل ذلك لأخذته الرقة عليهم والرأفة بهم[5] .

عاشرا : أن الله – تعالى – ، إذا أراد أن يهلك قرية أمرهم بطاعته فأعرضوا وعصوا ، فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه[6] .

---

(١) الأبنة : داء يصاب به من ابتلي بهذه الفعلة الخبيثة . المنار (٥١١/٨) .

(٢) انظر : (تفسير المنار) (٥١٢/٨) ؛ وانظر : (مع الأنبياء في القرآن الكريم) لعفيف طبارة ص"١٤٨" .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٤٢/٣ .

(٤) أيسر التفاسير (٣٥٧/٢) .

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٤٢/٣) .

(٦) نفس المصدر السابق .

كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء:١٦] .

الحادي عشر : العادات السيئة في المجتمع تنتشر أسرع من العادات الحسنة ؛ وذلك لموافقتها هوى أو شهوة في نفوس من أشربها .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٢٧] .

ومن هنا نأخذ أن على الدعاة بذل الطاقة في دفع الشر قبل وقوعه حتى لا يكون بذرة لما هو أكبر . ومن هنا يأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحالاته للتصدي لكل من يستحسن قبيحا أو يقبح حسنا .

فكم من فعل قبيح سكت عنه حتى أصبح عادة يستعدي بها على من نصح أو دعا إلى هدى .

الثاني عشر : إكرام الضيف واجب على كل مسلم بالقول والفعل والذود عنه بكل وسيلة ممكنة .

ونحن رأينا أن سيدنا لوطا – عليه السلام – استقبل أضيافه وهو يعلم أنه ممنوع من ذلك[1] ويعلم أنه سيلقى متاعب عظيمة من أجلهم ، ومع ذلك أكرمهم بحسن استقباله . فلما جاء قومه يريدونهم دافع عنهم مضحيا بفلذات أكباده ، فلما رأى أنهم لا يرعون حقا ولا يستجيبون لأمر أخذ يدافع عنهم بما أوتي من قوة ويتمنى لو أنه يملك قوة أكبر يدافع بها عن ضيوفه حتى أخبرته الملائكة أنهم رسل الله أتوا لعذابهم فكان ما كان .

وفي هذا المقام نذكر حديث النبي ﷺ الذي شدد فيه على إكرام الضيف فقال : « **ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه** »[2] .

الثالث عشر : جواز التعريض[3] بأمر معين ليستجلب منفعة أو يدفع عنه مضرة . مثل ما فعل سيدنا لوط حين قال : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ ﴾ [هود:٧٨] وهو

---

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحجر:٧٠] .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٤/٩٤) ، برقم [٦٠١٨] ، [٦٠١٩] ، [٦١٣٥] ، [٦١٣٦] ، [٦١٣٨] ، [٦٤٧٥] ، [٦٤٧٦] .

(٣) التعريض : هو أن يقصد المتكلم أمرا معينا ويوهم السامع أو الرائي أمرا آخر لجلب نفع أو دفع ضر . وقد بوب البخاري بابا سماه " المعاريض مندوحة عن الكذب " (١٣٠/٤) ورقم الباب [١١٦] أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، باب المعاريض ، برقم [٨٨٨] ص"٢٩٦" من طريق قتادة عن مطرف بن عبد الله ، وأخرجه الطبري في التهذيب ؛ وقال ابن حجر في الفتح : وأخرجه الطبراني ورجاله ثقات "٦٣٥" .

لا يريد إلا دفع ضررهم عنه حين أرادوا الاعتداء على أضيافه .

الرابع عشر : أن من علامة الرجل الرشيد أنه المسدد في أقواله وأفعاله فينصر المظلومين ويفرج الكرب عن المكروبين ويأمر بالخير وينهى عن الشر ، هذا هو الرشيد حقيقة فلهذا قال قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾[1] [هود:٧٨] .

وبالمقابل ذم الله فرعون لأنه لم يكن أمره رشيدا فكان قائدا لهم على الضلال في الدنيا وقائدا لهم إلى النار يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود:٩٧-٩٨] .

الخامس عشر : طلب القوة المادية أو التطلع إليها للقضاء على الشر لا يقدح في الإيمان والتوكل على الله .

وعلى هذا لو سعى المؤمن في الاستعانة على أمور الخير ودفع الشر بأهل الشر لما كان لذلك تأثير على إيمانه ؛ لأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم عند الله[2] ، ولهذا قال لوط – عليه السلام – ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود:٨٠] وهذا التمني صدر من لوط لشدة غيظه على قومه ، فلم يعاتبه الله على ذلك ، ولم يقدح ذلك في إيمانه وتوكله على ربه وثقته به .

روى البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « **يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته** »[3] .

وزاد الترمذي « **ما بعث الله بعده نبيا إلا في ثروة من قومه** »[4] أي : كثرة ومنعة

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص"١٧١،١٧٢" ، والآية من سورة هود ، آية (٧٨) .

(٢) من حديث رواه البخاري – كتاب الجهاد – باب : إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر (٣٧٦/٢) برقم [٣٠٦٢] ، [٤٢٠٤] ، ورواه مسلم كتاب الايمان – باب تحريم قتل الإنسان نفسه – (١٠٥٩/١) برقم [١١١] .

(٣) رواه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب : **لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين** (٤٧٠/٢) برقم [٣٣٨٧] وأطرافه في [٣٣٧٢] ، [٣٧٧٥] ، [٤٦٩٤] . ورواه مسلم كتاب الإيمان – باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (١٣٣/١) برقم [١٥١] .

(٤) رواه الترمذي كتاب التفسير – باب (١٤) ومن سورة يوسف (٢٩٣/٥) برقم [٣١١٦] وقال : حديث حسن ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ، ص"٢٠٩" ، برقم [٦٠٥] ، وذكره الألباني في الصحيح برقم [١٦١٧] ، [١٨٦٧] .

وفي رواية عند سعيد بن منصور وأبي الشيخ : « ما بعث الله نبيا بعد لوط إلا في عز من قومه » ، انظر : (الدر المنثور) (٦٢١/٣) .

لتأييد الحق وقمع الباطل ، وقد حصل ذلك لنبي الله شعيب - عليه السلام - بعد ذلك حين خاف قومه من رهطه ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٩١] وحصل أيضا لنبينا محمد ﷺ حين رماه قومه بالعداوة البليغة حتى انحازت قبيلته معه - مسلمهم وكافرهم - فعجزوا عن الفتك به حتى اتفق رأيهم على أن يقتله من كل قبيلة رجل يضربونه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فيعجز قومه عن الأخذ بثأره ولكنهم يمكرون ويمكر الله . والله خير الماكرين![1] .

والخلاصة أن إعداد القوة واجب لحماية الحق ومنع الظلم ، وتمني القوة والاطلاع إليها دون خدش لمعاني التوكل على الله لفرض رد الظلم أمر لا بأس به ؛ بشرط ألا يغيب التوكل والاعتماد على الله عن الإنسان .

السادس عشر : لله - تعالى وتقدس - أن يقسم بما شاء من مخلوقاته . أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله تعالى .

لما روى البخارى وغيره عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه فقال : « **ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت** »[2] .

وروى الترمذي وغيره عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك** »[3] .

ولعل أحدا يعتذر بأن الله قد أقسم بحياة نبينا محمد ﷺ في قوله سبحانه : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر:٧٢] يعتذر بذلك فيقسم بشخص[4]

---

(١) خلاصة تفسير القرآن - عبد الرحمن السعدي ص"١٧٢" ، تفسير أضواء البيان (٤٩/٣) ، وانظره : عند د/ عبد الكريم زيدان في ما يستفاد من القصص القرآني (٢٣٤/١،٢٣٥) .

(٢) رواه البخاري - كتاب الأيمان والنذور - باب لا تحلفوا بآبائكم (٢١٨/٤) برقم [٦٦٤٦] وأطرافه في [٢٦٧٩] ، [٦٦٤٧] ، [٦٦٤٨] ، ورواه مسلم كتاب الايمان - باب النهي عن الحلف بغير الله (١٢٦٦/٣) برقم [١٦٤٦] .

(٣) رواه الترمذي - كتاب النذور والايمان - باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (١١٠/٥) برقم[١٥٣٥] وقال : حديث حسن ، ورواه أحمد (٤٧/١) برقم [٣٢٩] .

(٤) كأن يقول : « والنبي » أو غيرها ، كالقسم بالحياة فيقول : بحياتك وبعيشك وغيرها . قال الإمام مالك : وليس من كلام أهل الذكر ، وإن كان الله أقسم به أي : بشخص الرسول فذلك بيان لشرف المنزلة وشرف المكانة فلا يحمل عليه سواه ، ولا تستعمل في غيره . أحكام القرآن : لابن العربي (١١٣٠/٣) . وأخرجه في المصنف أيضا من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر قال : أما في المعاريض ما يكفي المسلم من الكذب برقم [٨٨٧] .

النبي ﷺ لأن الله أقسم بها وعليه ، فإن توجيهات الأحاديث السابقة تبين أنه لا يجوز القسم بغير الله تعالى ، مهما كان منزلة المقسوم به .

السابع عشر : الحث على نظر التفكر والاعتبار فيما حصل لقوم لوط وغيرهم من العذاب ، وأن في ذلك منفعة للعقل البشري .

وقد بين هذا المعنى في مواضع كثيرة بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥] ، وقوله : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٣٥] ، وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات:٣٧] وغير ذلك . ومجموع الآيات تبين أن ما وقع من النكال لقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك ، فتحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب ، وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:٨٣] وهذا تهديد عظيم منه تعالى لمن لم يعتبر بحالهم ، فيجتنب ارتكاب ما هلكوا بسببه[1] .

الثامن عشر : أهلك الله قوم لوط فلم يبق منهم أحدا ينبت ببنت شفه ، ومن لم يكن فيهم وقت نزول العذاب اتبع بالحجارة ، وهذا من الله تطهير كامل لوجه الأرض من الخبث الذي عم وطم فيها ، وأقر الله عين لوط - عليه السلام - بهلاك قومه المجرمين .

عن أبي موسى الأشعري[2] - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « **إن الله - عز وجل - إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها ، فجعله لها فرطا وسلفا بين يديها . وإذا أراد هلكة أمة ، عذبها ونبيها حي ، فأهلكها وهو ينظر ، فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره** »[3] .

---

(١) أضواء البيان (٦٣/٢) . وانظر : (أيسر التفاسير) (٥١٠/٢) .

(٢) أبو موسى : عبد الله بن قيس ، الصحابي الجليل .

(٣) رواه مسلم - كتاب الفضائل - باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها (١٧٩١/٤) برقم [٢٢٨٨] وقد عذبهم جميعا رجالا ونساء وقد يسأل سائل لم عذب قوم لوط بعمل رجالهم ؟ والجواب كما ذكره صاحب المنار عن علي بن جعفر قال : قلت لمحمد بن علي : عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالها ؟ قال : الله أعدل من ذلك! استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال . تفسير المنار (٥٢٢/٨) .

وأخيرا لقد كتب في ذلك أهل العلم مؤلفات عديدة ، وسنتعرض لأقوالهم ونبين الراجح منها ، ثم نحيل لبعض المراجع لمن أراد الاستزادة في ذلك .

نقول وبالله التوفيق : إن العلماء - رحمهم الله تعالى - اختلفوا في عقوبة مرتكب فاحشة قوم لوط على ثلاثة أقوال :

القول الأول : يقتل الفاعل والمفعول به مطلقا ، سواء كانا محصنين أولا ، أو أحدهما محصنا والآخر بكرا .

وهذا القول هو قول الجمهور - قال الشنقيطي : وحكى غير واحد إجماع الصحابة على هذا القول . وهو قول الإمام مالك والإمام الشافعي وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد[1] .

غير أنهم اختلفوا في كيفية قتله ، وليس هذا محل تحريره .

واستدلوا على ذلك بما يلي :

أولا : حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال : « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** »[2] .

ثانيا : حديث علي - رضي الله عنه - « **أنه رجم لوطيا** »[3] .

---

(١) انظر : (الشرح الكبير على متن المقنع) (لشمس الدين أبي الفرج : عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي) (٤٠٤/٥) ط دار الفكر ؛ الداء والدواء (لأبي عبد الله : شمس الدين محمد بن أبي بكر ، المعروف بابن القيم الجوزية) (٢٠٠-٢٠١) ، ط دار الحديث ؛ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين المختار الشنقيطي (٤٠/٣) ، ط عالم الكتب .

(٢) رواه أحمد (٣٠٠/١) برقم [٢٧٢٧] .

ورواه أبو داود - كتاب الحدود - باب فيمن عمل عمل قوم لوط (٦٠٧/٤) برقم [٤٤٦٢] ، ورواه الترمذي - كتاب الحدود - باب ما جاء في حد اللوطي (٥٧/٤) برقم [١٤٥٦] . وفي كتابه (علل الترمذي الكبير) (٦٢٠/٢) ط مكتبة الأقصى ، ورواه ابن ماجه - كتاب الحدود - باب من عمل عمل قوم لوط (٨٥٦/٢) برقم [٢٥٦١] ، ورواه الحاكم - كتاب الحدود - (٣٩٥/٤) برقم [٨٠٤٧] ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في سننه الكبرى (٢٣٢/٨) . انظر : (مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مستدرك الحاكم) (٣١٢٤/٧) ط دار العاصمة ، بتحقيق سعد آل حميد ، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٦/٨ : ١٨) ، وفي صحيح سنن ابن ماجة برقم (٨٢/٢،٨٣) برقم [٢٠٧٥] .

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٣٢/٨) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في البكر يوجد على اللوطية : إنه يرجم[١] .

قال صاحب أضواء البيان : ويستأنس لذلك بأن الله رمى أهل تلك الفاحشة بحجارة من سجيل[٢] .

ثالثا : استدلوا بفتوى الإمام علي - رضي الله عنه - « في الرجل الذي وجده خالد - رضي الله عنه - ينكح كما تنكح النساء » أن يحرق بالنار[٣] .

رابعا : استدلوا أيضا بأن الله - تعالى - رفع قوم لوط ثم ألقاهم ثم أتبعوا بالحجارة قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [الحجر:٧٤] روى ذلك عن ابن عباس حين سئل عن ذلك[٤] .

القول الثاني : إنه كالزاني : يجلد مرتكبها مائة إن كان بكرا ويغرب سنة ، ويرجم إن كان محصنا .

وهذا القول هو أحد قولي الشافعي ، وإحدى الروايتين عن أحمد ، وبه قال عطاء وابن الزبير ، وأبو يوسف ومحمد بن الحسن (صاحبا أبي حنيفة) ، وسعيد بن المسيب والحسن وقتادة والنخعي والثوري والأوزاعي[٥] .

واستدلوا بما يلي :

أولا : حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « **إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان** »[٦] .

وجه الدلالة : أن النبي ﷺ سمى من فعل ذلك زانيا ، وعلى هذا فإن اشتراكهما في الاسم يدل على اشتراكهما في الحكم .

مناقشة سند الحديث : قال الحافظ ابن حجر في التلخيص : في سنده محمد بن

---

(١) رواه أبو داود - كتاب الحدود - باب فيمن عمل عمل قوم لوط (٤/٦٠٨) برقم [٤٤٦٣] ، ورواه النسائي - كتاب الحدود - باب ما جاء في حد اللوطي رقمه ٢٤ برقم [١٤٥٦] ، وصحح إسناده موقوفا الألباني . انظر : صحيح سنن أبي داود (٢/٨٤٤) برقم (٣٧٤٧) .

(٢) أضواء البيان (٣/٤٣) .

(٣) رواه البيهقي - كتاب الحدود - باب ما جاء في حد اللوطي (٨/٢٣٢) ، قال عنه الحافظ المنذري في كتابه (الترغيب والترهيب) : إسناده جيد .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/٤٩٤) رقم الباب"٤٢" ، ورواه البيهقي في السنن (٨/٢٣٢) .

(٥) انظر : (المغني) لابن قدامة : عبد الله بن أحمد (٨/١٨٨) ط مكتبة الرياض الحديثة .

(٦) أخرجه البيهقي في سننه (٨/٢٣٣) ، وقال : في إسناده من لا أعرفه ، ونقل ابن أبي حاتم عن والده توهينه ، وقال : إسناده منكر ، إذا الحديث ضعيف . انظر : ميزان الاعتدال (١/٣٢٤) ؛ تلخيص الحبير (٤/٦٢) ؛ خلاصة البدر المنير (عمر بن علي بن الملقن الأنصاري) (٢/٣٠٢) ، ط الأولى تحقيق : حمدي السلفي .

عبد الرحمن القشيري ، كذبه أبو حاتم[1] .

ورواه أبو الفتح الأزدي[2] في الضعفاء والطبراني في الكبير من وجه آخر ، وفيه : بشر بن الفضل البجلي (مجهول) إذا فالحديث ضعيف لا يحتج به[3] .

ثانيا : استدلوا أيضا بالأثر المروي عن عثمان - رضي الله عنه - أتي برجل قد فجر بغلام من قريش معروف النسب فقال عثمان بن عفان ويحكم أين الشهود ؟ أحصن ؟ قالوا : تزوج بامرأة و لم يدخل بها بعد . فقال علي لعثمان رضي الله عنهما : لو دخل بها لحل عليه الرجم ، فأما إذا لم يدخل بها فاجلده الحد ، فقال أبو أيوب : أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول الذي ذكره أبو الحسن ، فأمر به عثمان فجلد مائة[4] .

فدل هذا الأثر على أن عقوبة اللوطي عقوبة الزاني المقررة شرعا .

مناقشة هذا الأثر : ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد : في إسناده جابر الجعفي وقد صرح بالسماع . وقال : « وفيه من لم أعرفه »[5] .

وقال عنه ابن حجر في التقريب[6] : ضعيف رافضي . إذن فلا يحتج بحديثه .

ثالثا : استدلوا أيضا بما ورد عن عطاء بن أبي رباح قال : أتى ابن الزبير بسبعة في لواطة ، أربعة منهم قد أحصنوا ، وثلاثة لم يحصنوا ، فأمر بالأربعة فرضخوا بالحجارة ،

---

(١) الجرح والتعديل (٣٢٥/٧) واسمه : محمد بن عبد الرحمن المقدسي القشيري .

(٢) أبو الفتح الأزدي : محمد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله الموصلي - صاحب كتاب الضعفاء - حدث عن جمع من مشاهير العلماء منهم : ابن جرير الطبري . وحدث عنه أئمة حفاظ منهم : أبو نعيم الحافظ ت"١٧٤هـ" - انظر : (سير أعلام النبلاء) (٣٤٨،٣٤٧/١٦) ؛ وانظر : (كتاب المنتظم في تاريخ الأمم والملوك) لابن الجوزي (٣٠٩،٣٠٨/١٤) ط دار الكتب العلمية ؛ تذكرة الحفاظ للذهبي (أبي عبد الله شمس الدين) (٩٦٧/٣) .

(٣) انظر : (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) للذهبي (محمد بن أحمد) (٣٢٤/١) ط دار المعرفة ؛ تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ، لابن حجر العسقلاني (٦٢/٤) ط مكتبة ابن تيمية .

(٤) انظر : (نصب الراية) (٣٤١/٣) ط إحياء التراث العربي .

(٥) انظر : (مجمع الزوائد) (٢٧٢/٦) .

(٦) التقريب لابن حجر ص"١٣٧" .

وأمر بالثلاثة فضربوا الحد ، وابن عباس وابن عمر في المسجد[1] .

فدل هذا الأثر كما دل عليه الأثر السابق .

مناقشته : قال ابن حزم في كتابه المحلى[2] : هذه الرواية فيها مجهولون ولا يصح الاحتجاج بها .

رابعا : واستدلوا بالمعقول : أنهم قاسوه على الزنا بجامع الإيلاج في فرج آدمي لا ملك له فيه ولا شبهة فيعطى حكمه[3] .

ويجاب عن ذلك أن هذا قياس في مقابل نص ، ومن شروط صحة القياس عدم وجود نص على حكم الفرع ، والنص الصحيح الصريح موجود .

وقال الشنقيطي : القياس لا يكون في الحدود ؛ لأنها تدرأ بالشبهات . والأكثرون على جواز القياس في الحدود إلا أن قياس اللائط على الزاني يقدح فيه بالقادح المسمى (فساد الاعتبار) لمخالفته لحديث ابن عباس « اقتلوا الفاعل والمفعول به »[4] .

القول الثالث : إن مرتكب فاحشة قوم لوط لا حد مقرر عليه ، وعقوبته التعزير وهي مفوضة لرأي الحاكم ، وبه قال أبو حنيفة والظاهرية وهو قول عند الشافعية[5] .

ولا يوجد لهم دليل من الكتاب والسنة يحتجون به ، وإنما كانت وجهة نظرهم التي عبر عنها الكاساني في البدائع بما ملخصه : أنه لا يوجد نص من كتاب الله أو سنة تقدر حدا لهذه الجريمة . هذا **أولا** ، **وثانيا** : اختلاف الصحابة – رضي الله عنهم – في حد هذا الفعل ، وهذا يدل على عدم وجود النص الصحيح ، فالواجب فيه التعزير لوجهين :

الأول : أن التعزير هو الذي يحتمل الاختلاف في القدر والصفة لا الحد .

الثاني : أنه لا مجال للاجتهاد في الحد بل لا يعرف إلا بالتوقيف ، وللاجتهاد مجال

---

(١) انظر : (السنن الكبرى) (٨/٢٣٣) ، المحلى لابن حزم الظاهري (١٣/٤٤٧) ، ونصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي (عبد الله بن يوسف الحنفي) (٣/٣٤١) ط إحياء التراث العربي .

(٢) المحلى (١٣/٤٥٣) .

(٣) انظر : (الشرح الكبير على المقنع) (٥/٤٠٤) ؛ أضواء البيان (٣/٤٤) .

(٤) أضواء البيان (٣/٤٤) .

(٥) انظر : (بدائع الصنائع) (٧/٣٤) ، ط مكتبة العلمية ؛ فتح القدير في الفقه لكمال الدين محمد بن عبد الواحد (٥/٤٣) ، ط دار إحياء التراث العربي .

في التعزير[١] ، ثم إنه لا يتناوله اسم الزنا ، لأن لكل منهما اسما خاصا به .

وقد أجاب ابن القيم - رحمه الله - عن ذلك فقال : « إن المبلغ عن الله - تعالى- جعل حد صاحبها القتل حتما ، وما شرعه رسول الله ﷺ فإنما شرعه عن الله ، ثم إن نفي دليل معين لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول ، وكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير منتف »[٢] .

وأما قولهم إن الصحابة - رضي الله عنهم - اختلفوا فيجاب عنه : بأنهم لم يختلفوا في أصل العقوبة وهي القتل ، وإنما اختلفوا في كيفية التنفيذ كما سبق بيانه عند بيان القول الأول[٣] .

وأما قولهم : إن اللواط لا يتناوله اسم الزنا . فجوابه : أن أصحاب القول الأول القائلين بالقتل لم يقولوا به أصلا .

وبعد فإنه إذا ثبت النص عن صاحب الرسالة محمد ﷺ فلا يجوز لأحد كائنا من كان أن يتجاوز ذلك إلى قياس أو تعليل أو مناقشة .

والقول الراجح : ما ذهب إليه أصحاب القول الأول بأن عقوبة من ارتكب جريمة اللواط هو القتل مطلقا ؛ لقوة أدلتهم وسلامتها من المعارضة ، وضعف أدلة المعارضين ، ولإجماع الصحابة - رضي الله عنهم - كما حكى ذلك الشنقيطي في أضواء البيان ، ولكثرة الشواهد لحديث « **اقتلوا الفاعل والمفعول به** » .

مثل حديث « **الذي يعمل عمل قوم لوط فارجموا الأعلى والأسفل ، ارجموهما جميعا** »[٤] .

وحديث « **من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** »[٥] .

---

(١) بدائع الصنائع (٣٤/٧) .

(٢) الداء والدواء (٢٠٧،٢٠٨) .

(٣) الشرح الكبير (٤٠٤/٥) .

(٤) رواه ابن ماجه ، كتاب الحدود ، باب من عمل عمل قوم لوط (٨٥٦/٢) ، برقم [٢٥٦٢] ، وحسنه الألباني في الصحيح (٨٣/٢) برقم [٢٠٧٦] .

(٥) سبق تخريجه وتصحيحه ص٢٦٩ لكثرة طرقه وشواهده .

وإليك بعضا ممن كتب في هذا الموضوع :

١- ذم اللواط ، لأبي محمد : الهيتم البدوري ، ت سنة"٣٠٧هـ" ، مطبوع بتحقيق خالد علي محمد .

٢ - تحريم اللواط ، لأبي بكر : محمد بن الحسين الآجري ، ت سنة"٣٠٦هـ" ، مطبوع بتحقيق خالد علي محمد .

⇦

وبعد فهذه وسائل وتدابير يجب الأخذ بها لمنع ظهور أو تفشي هذه الفاحشة ، لئلا يحل بنا ما حل بالأمم السابقة من الهلاك .

أولا : غرس القيم الإسلامية السليمة في نفوس الأبناء من الصغر ، وذلك بتوجيههم لحفظ كتاب الله وتعريفهم طريق بيوت الله وتذكيرهم بين الحين والآخر أن الله يراقبك ويعلم ما تفكر فيه وما تتلفظ به ...

ثانيا : التفريق بين الأبناء في المضاجع منذ الصغر لحديث « ... **وفرقوا بينهم في المضاجع** »[١] .

ثالثا : توجيه الأبناء إلى الرفقة الخيرة وتحذيرهم قرناء السوء لحديث « **الرجل على دين خليله** »[٢] .

قال إبراهيم الحربي[٣] : أول فساد الصبيان بعضهم من بعض . وقال : جنبوا

=

٣ - تحريم الأبنة ، لأبي القاسم : علي بن الحسين بن عساكر ، ت سنة"٥٦٧هـ" ، مخطوط . انظر : (فهرس المخطوطات للمكتبة الظاهرية جامعة أم القرى) .
٤ - ذم الهوى ، لأبي الفرج : عبد الرحمن بن الجوزي ، ت سنة"٥٩٧هـ" ، مطبوع بتحقيق مصطفى عبد الواحد .
٥ - الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) لشمس الدين محمد بن بكر بن قيم الجوزية ، مطبوع .
٦ - قرع السياط في قمع أهل اللواط ، لأبي العون : محمد بن أحمد السفاريني ، ت سنة"١١٨٨هـ" ، بتحقيق راشد العقيلي .
٧ - رسالتا ماجستير مخطوطتان :
الأولى : لوط - عليه السلام - وقومه على ضوء الكتاب والسنة ، للباحث ناصر نصار ، جامعة أم القرى .
الثانية : دعوة لوط - عليه السلام - ، سليمان محسن ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(١) رواه أحمد في المسند (١٠/١٦٥) .
أبو داود في سننه (١/٣٣٤) ، برقم [٤٩٥] .
الترمذي في سننه (٢/٢٥٩-٢٦٠) وقال : حديث صحيح ، برقم [٤٠٧] .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/٣٠٣،٣٣٤) .
ورواه أبو داود في سننه (٥/١٦٨) ، برقم [٤٨٣٣] .
ورواه الترمذي (٤/٥٨٩) ، برقم [٢٣٧٨] وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) هو إبراهيم بن إسحاق الحربي ، من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل ، عاش زاهدا في الدنيا معرضا عنها. من أهم كتبه: غريب الحديث، ت"٢٨٥هـ". انظر : (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي (أحمد بن علي) (٦/١٢٧) ، ط دار الكتب العلمية. انظر : (سير أعلام النبلاء) (١٣/٣٥٦،٣٧٢) .

أولادكم قرناء السوء قبل أن تصبغوهم في البلاء كما يصبغ الثوب[1] .

رابعا : إظهار نخوة الرجولة وتأصيلها فيهم ، ثم تأصيلها في المجتمع بكل وسيلة ممكنة وذلك بـ :

البعد عن التشبه بالنساء في اللبس والزينة ، وتأكيد الدعاة على هذا الأمر كثيرا لكثرة تفشيه ، وتوزيع الكتب والأشرطة التي تحذر من ذلك ، ومن ثم التأكيد على عدم حلق اللحية لأنها من الرجولة .

خامسا : التأكيد على عدم ترك الأبناء فريسة للخدم (من نساء ورجال) في تربيتهم ، فلربما تعلموا منهم الأخلاق السيئة .

سادسا : الذهاب بهم كل ما أمكن إلى منتديات الرجال لتعلم الشهامة والرجولة وكلام وأحاديث الرجال ، وحضور بعض حلقات العلم لتعلم الجرأة ، ومجالسة أهل الخير وإشراكهم في بعض المسابقات المحلية والدولية إن أمكن .

سابعا : منع مجالسة الأحداث والنظر إلى المردان ؛ لأن ذلك يفضي إلى التهمة والشبهة لعموم الآية : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور:٣٠] وقد حكى الإمام النووي أن المذهب الصحيح المختار عند العلماء المحققين أنه يحرم النظر إلى وجه الأمرد إذا كان حسن الصورة ، سواء كان نظر بشهوة أم لا ، سواء أمن الفتنة أم خافها[2] .

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي (أبي الفرج : عبد الرحمن بن علي بن محمد) ص"١١٦" ، تحقيق مصطفى عبد الواحد .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٣١/٤) ، وانظر : (مجموع الفتاوى) لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٤٧/٣٢) ؛ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (٢٨/٨، ٢٩) ، ط مكتبة ابن تيمية ، بتحقيق محمد حامد الفقي .

المبحث الخامس

عقوبة قوم شعيب - عليه السلام -

تمهيد :

أرسل الله شعيباً – عليه السلام – إلى قومه أهل (مدين)[1] فدعاهم إلى عبادة الله وحده كما فعل الأنبياء من قبله . قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف:٨٥] و [هود:٨٤] .

ونهاهم عن الشرك ، وأمرهم بالعدل في المعاملات ، وزجرهم عن البخس في المعاملات ، وذكرهم بنعم الله الكثيرة عليهم ، فلا حاجة لهم بعدها إلى ظلم الناس ، وخوفهم نقمة الله وعذابه إن استمروا على ذلك .

فأجابوه ساخرين مكذبين ، وجادلوا بالباطل عناداً وكبراً ، فحاول جهده أن يردهم مراراً وتكراراً إلى الحق ، فما زادهم إلا غروراً وصلفاً وبغضاً له وللحق الذي يدعوهم إليه ، فانتقم الله منهم شر نقمة ، وجمع عليهم أنواعاً من العذاب زهقت منه أرواحهم وخمدت منه أنفاسهم .

---

(١) مدين : بلد بالشام معلوم قريب من غزة ، وهو المذكور في كتاب الله تعالى ، وهي منازل جذام بن عدي بن الحارث و(شعيب النبي عليه السلام) أحد بني وائل بن وائل بن جذام . انظر : (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع) لـ عبد العزيز البكري الأندلسي ، ت"٤٨٧هـ" ، تحقيق مصطفى السقا (١٢٠١/٤) ، ط عالم الكتب .

وعند ياقوت الحموي : مَدْين (بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناه من تحت وآخره نون) مدين على بحر القلزم فيها البئر التي استقى منها موسى – عليه السلام – لسائمة العبد الصالح الذي أجر موسى نفسه له عشر سنين . سميت بمدين بن إبراهيم عليه السلام . انظر : (معجم البلدان) ياقوت الحموي الرومي البغدادي (٩٢/٥) ، ط دار الكتب ؛ وانظر : (تاريخ ابن خلدون) (٩٣/٢) ، ط دار الفكر ؛ وانظر : (البداية والنهاية) (١٨٤/١،١٨٥) .

وانظر : (من التفاسير : تفسير الطبري) (٥٥٤/١٢) ؛ زاد المسير (١٥٥/٣) ؛ التفسير الكبير (١٧٢/١٤) ؛ تفسير ابن كثير (٢٤١/٢) .

المطلب الأول : الآيات التي تحدثت عن عقوبتهم :

أشار القرآن الكريم إلى عقوبة قوم شعيب في عدة سور ، وفصل ذلك في سور أخرى .

فالسور التي أشارت إلى قوم شعيب دون تفصيل هي :

٥ سورة **التوبة** ، **الحجر** ، **ص** ، **ق** .

سورة **التوبة** : قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة:٧٠] .

سورة **الحجر** : قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر:٧٨-٧٩] . ١٠

سورة **الحج** : قال تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٤٤] .

سورة **ص** : قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص:١٢-١٤] . ١٥

سورة **ق** : قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ق:١٢-١٤] .

٢٠ نلاحظ في سور (**التوبة** ، **الحج** ، **ص** ، **ق**) أن ذكر قوم شعيب – عليه السلام – جاء في معرض ذكر الأقوام المكذبين لغرض الإعلام والإخبار بمجموع هؤلاء المكذبين تسلية للنبي ﷺ .

وأما سورة **الحجر** :

فجاءت مناسبة لما ذكر قبلها من قصص قوم لوط ، ولتشابه ما بينهم من تكذيب ، ٢٥ ولتشابه البيئة التي كانوا يعيشون فيها ، ولقرب المدة بينهم ، وأخيراً لتشابه العقاب .

الآيات التي فصلت عقوبة قوم شعيب – عليه السلام – ذكرت في كل من :

سورة **الأعراف** ، **هود** ، **والشعراء** .

أولا : سورة الأعراف :

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأعراف:٨٥-٩٣] .

لطائف الآيات :

أولاً : من لطف الله بعباده إرسال الرسل لتعليم الناس وهدايتهم للحق ونهيهم عن الظلم ؛ لتحصل لهم السعادة في الدنيا والآخرة . فها هو نبي الله شعيب – عليه السلام– يأمر قومه بطاعة الله وعبادته أولاً ، ثم يعدد جرائمهم على سبيل الذم لينتهوا عن ما هم فيه :

*** التطفيف في الكيل والوزن .**

*** الإفساد في الأرض .**

*** قطع الطريق .**

*** تشويه سمعة نبي الله شعيب – عليه السلام – .**

ثانياً : بعد الأمر بالتوحيد وتعداد جرائمهم حصر ما أمرهم به في ثلاثة أصول :

الأصل الأول : حفظ حقوق المعاملة المالية ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الأعراف:٨٥] .

الأصل الثاني : حفظ نظام الأمة ومصالحها : يدل عليه ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف:٨٥] .

الأصل الثالث : النهي عن التعرض للناس والحيلولة بينهم وبين الإيمان ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ ﴾[1] [الأعراف:٨٢] .

ثالثاً : نلاحظ في الآيات كثرة الأوامر والنواهي ، حتى إنه كان يقدم بعضها على بعض ، ثم يعود ويذكرهم بالإيمان ، ثم يعود فيأمر وينهى ، ثم يعود إلى التذكير بما حصل للأمم السابقة مما يدل أن وجوه المناسبة في نظم الكلام تختلف وتتعدد، وإن كان بعضها أرجح من بعض[2] .

رابعاً : الصدع بالحق مبدأ الأنبياء حين المفاصلة النهائية بينهم وبين قومهم ، وهذا ما حصل لشعيب – عليه السلام – حين هددوه بالإخراج أو العودة إلى دينهم ، فأخبرهم أن هذا محال ولا يمكن أن يتراجع خطوة واحدة أو يتنازل عن مبدأ الإيمان قدر أنملة مهما كلفه ذلك من مشقة ، فما هو إلا وقت يسير ويحكم الله بينهم! .

خامساً : إن قيل : كيف خاطبوا شعيباً بقولهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف:٨٨] وهو أجابهم بقوله : ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ [الأعراف:٨٩] وهو لم يكن في ملتهم قط ؟

فالجواب : أن العرب تستعمل (عاد) بمعنى : صار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩] هذا أولاً .

وثانياً : أنهم قالوا ذلك على تغليب الجماعة على الواحد ، كأنهم عطفوا على ضمير الذين آمنوا منهم بعد كفرهم ، فجعلوهم عائدين جميعاً إجراء للكلام على حكم التغليب ؛ وعلى ذلك أجرى شعيب – عليه السلام – رده وجوابه . ومراده عود قومه المعطوفين عليه[3] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤٣/٨) .

(٢) انظر المصدر السابق (٢٤٧/٨ ، ٢٤٨) .

(٣) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"١٥٢،١٥٣" .

سادساً : في قول شعيب : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ ﴾ [الأعراف:٨٩] تأدب مع الله – عز وجل . وتفويض أمره وأمر المؤمنين إليه لا من باب أنه يمكن عوده ؛ لعصمة الأنبياء فهم معصومون من الشرك قبل النبوة ، فعصمتهم بعد النبوة من باب أولى[1] .

ثامناً : التكرار في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف:٩٢] للتعديد وإيقاظ السامعين من مشركي العرب ؛ لئلا يحصل لهم ما حصل لأولئك الأقوام ممن كذب على طريقة التعريض ، كما وقع التصريح بذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد:١٠] .

ثانياً : سورة هود :

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ

(١) التحرير والتنوير (٩/٩) .

أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود:٨٤-٩٥] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : بعد أن دعاهم إلى توحيد الله وعبادته والالتزام بالعدل في التعامل لما لـه من صلة وثيقة بالعقيدة ذكرهم بما لهم من خير وفضل عند الله إن هم آمنوا واتبعوا ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [هود:٨٦] فما عند الله خير لكم مما تجمعونه من الحرام ، وفيما تأخذونه من الحلال غنية عن غيره[١] .

ثانياً : انظر إلى الاستهزاء (المؤدب) ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧] ولم ترد هذه العبارة من قبل ، فهم يقصدون عكس معناها كما فسرها حبر الأمة بأنهم يعنون : إنك لست بحليم ولا رشيد[٢] ؛ لأن الرشد عندهم أن يعبد ما يعبدون دون تفكير[٣] .

ثالثاً : انفردت الآيات بذكر أصل من أصول الدين ، ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام الداعي بذلك .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود:٨٨] أي : ما أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعل خلافه ؛ بل آمركم بالأمر وأفعله ولا أنتهي إلا عما أنهاكم عنه[٤] .

رابعاً : إن قيل : إنه – عليه السلام – كان يخاطبهم بلسانهم ، فلم قالوا : ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ [هود:٩١] ؟

فالجواب من وجوه :

الوجه الأول : أن المراد ما نفهم كثيراً مما تقول ؛ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم ولا يطيقون كلامه ، فهو كقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الكهف:٥٧] .

---

(١) انظر : (تفسير الطبري) (١٥/٤٤٧) .

(٢) انظر : (التفسير الكبير) (١٨/٤٤) ؛ وانظر : (تفسير المنار) (١٢/١٤٤) .

(٣) انظر : (تفسير الطبري) (١٥/٤٥٢) .

(٤) انظر : (تفسير الطبري) (١٥/٤٥٣) .

الوجه الثاني : أنهم فهموه ولكنهم ما أقاموا له وزناً فقالوا هذا الكلام على وجه الاستهانة .

الوجه الثالث : أن ما جاء به من الدلائل والبينات لم تقنعهم فقالوا : ﴿ مَا نَفْقَهُ ﴾ أي : لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب[1] .

خامساً : إن قيل : قوله ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٩١] كلام واقع فيه وفي رهطه ، وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله : ﴿ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [هود:٩٢] .

فالجواب : أن تهاونهم به – وهو نبي الله – تهاون بالله ، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾[2] [الفتح:١٠] .

سادساً : إن قيل : قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته في قوله تعالى : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود:٩٣] .

ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه عليه السلام ومنهم فكان الموافق في الظاهر أن يقول : « من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق » ؟

والجواب : ما ذكر صحيح ، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ [هود:٩٣] يعني : في زعمكم ودعواكم تجهيلاً لهم[3] .

سابعاً : إن قيل : لم قال : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود:٩٣] بحذف الفاء ، و لم يقل : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود:٣٩] كما ذكرها عن قوم نوح عليه السلام ؟

والجواب : أن إدخال الفاء وصلٌ ظاهرٌ بحرفٍ موضوع للوصل .

وحذفها وصل خفي يجعله جواباً عن سؤال مقدر تقديره أنه لما قال لهم : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ﴾ [هود:٩٣] فكأنهم قالوا : فماذا

---

(١) التفسير الكبير (٤٨/١٨ ، ٤٩) .

(٢) انظر : (تفسير الرازي) (أنموذج جليل) ص"٢١٢" .

(٣) تفسير الرازي المسمى (أنموذج جليل) ص"٢١٢" .

يكون بعد ذلك ؟ فقال : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود:٩٣] فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل في باب الفظاعة والتهويل .

فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف ، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب[١] .

ثامناً : في هذه السورة ذكر الله – عز وجل – أن عذابهم كان بالصيحة ، وفي سورة الأعراف بالرجفة ، حيث جمعها الله عليهم .

تاسعاً : ذكر القرآن الكريم آخر قصة شعيب – عليه السلام – بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ [هود:٩٤] فعطف (لما) على ما قبلها بالواو ، ومثله في قوم هود[٢] ، ولكنه عطفها بالفاء في قصة ثمود[٣] وقصة قوم لوط[٤] ، ووجه ذلك أن الآيتين جاءتا عقب الإنذار بالعذاب وحلول موعده فعطفتا بالفاء الدالة على التعقيب ؛ لأنه ليس قبل الآية وعيد بالعذاب .

وأما عن قوم هود وشعيب – عليهما السلام – فعطف بالواو ؛ لأن فيه وعيداً مسوفاً فيه مقروناً بالارتقاب لا الاقتراب ، فلا يناسب العطف عليه بالفاء التي تفيد التعقيب بدون انفصال .

ثالثاً : سورة الشعراء :

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾

---

(١) تفسير الكشاف (٢/٤٢٤) ؛ وانظر : (التفسير الكبير) (١٨/٥١) .

(٢) في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ [هود:٥٨] .

(٣) في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا ﴾ [هود:٦٦] .

(٤) في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود:٨٢] .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٩٠] .

لطائف الآيات غير ما سبق :

أولاً : تذكر الآيات أصحاب الأيكة دون مدين لأن وصفهم كوصفهم وذنبهم كذنبهم .

والأيكة : هي الشجر الملتف وواحدها : الأيك . وكل شجر ملتف فهو عند العرب أيكة[1] .

هذا ، وقد اختلف المفسرون في أصحاب الأيكة هل أهم مدين أم قوم آخرون أرسل إليهم شعيب – عليه السلام؟ – وافترقوا في تقرير ذلك إلى أربعة أقوال :

الأول : إن أهل مدين وأصحاب الأيكة أمة واحدة أرسل إليهم شعيب – عليه السلام – .

الثاني : إن أصحاب الأيكة قوم غير أهل مدين أرسل إليهم شعيب – عليه السلام – كما أرسل إلى مدين .

الثالث : إن الأيكة غيضة حول مدين كان يسكنها قوم لا ينتسبون إلى شعيب ولكن أرسل إليهم .

الرابع : إن شعيباً أرسل إلى ثلاث أمم هم أهل مدين ، وأصحاب الأيكة ، وأصحاب الرس .

أدلة كل فريق :

القول الأول : وهم الجمهور[2] .

أدلتهم : عند ابن جرير بسنده[3] عن ابن عباس قوله : ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦] قال : أهل مدين .

واستدلوا بما ذكره ابن كثير بدليل عقلي وهو أن الله – تعالى – ذكر عن أصحاب الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال فدل على أنهم أمة واحدة .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٩/٣٩٠) ؛ وانظر : (لسان العرب) (١/٢٨٩) مادة (أيك) .

(٢) نص على ذلك ابن حجر في فتح الباري (٦/٥٥٦) ؛ وقد ذهب إلى ذلك ابن جرير الطبري (١٩/٣٩٠) ، وابن كثير (٣/٣٥٨) في تفسيره ، وابن حجر وغيرهم وجاء من المتأخرين جمع منهم القاسمي في تفسيره (٧/٢٠٦ ، ١٣/٤٣) ، والشنقيطي في أضواء البيان (٦/٣٧٨ – ٣٧٩) ، ومحمد الفقي في قصص الأنبياء أحداثها وعبرها ص"١٢٦" .

(٣) قال : حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج عن جرير قال ابن عباس . تفسير ابن جرير الطبري (١٩/٣٩٠) .

القول الثاني : القائلون بأن أصحاب الأيكة وأهل مدين أمتان أرسل الله إليهم شعيباً . وهذا قول قتادة والسدي وعكرمة وابن عساكر[١] وابن جزي الكلبي[٢] والنسفي[٣] .

أولاً : استدلوا بما رواه عبد الله بن عمرو مرفوعاً « **إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام** »[٤] .

ثانياً : عن عكرمة وابن السدي[٥] قالا : « **ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً : مرة إلى مدين فأخذهم الله – تعالى – بالصيحة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله – تعالى – بعذاب يوم الظلة** »[٦] .

ثالثاً : أنه لما خاطبهم قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧] ولم يقل : أخاهم ، كما قال ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[٧] [هود:٨٤] .

رابعاً : أنه عذب أهل مدين بالصيحة والرجفة ، وعذب أصحاب الأيكة بالظلة[٨].

وقد أجاب الفريق الأول القائلون بأن أصحاب الأيكة وأهل مدين أمة واحدة على أدلة الفريق الثاني بالآتي :

أولاً : بالنسبة لحديث ابن عمرو المرفوع فإنه حديث غريب ، وفي رجاله من تكلم فيهم .

قال ابن كثير[٩] : والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملين من أخبار بني إسرائيل .

---

(١) تاريخ ابن عساكر (٣١٩/٦) .

(٢) في كتابه " التسهيل لعلوم التنزيل " (٨٤/٣) .

(٣) في تفسيره " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " (١٩٤/٣١) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣٥٨/٣) .

(٥) ابن السدي هو : عبدالله بن إسماعيل بن عبدالرحمن السدي – وروايته عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل – انظر : (التاريخ الكبير) محمد بن إسماعيل البخاري (٤٤/٥) ط . دار الكتب العلمية .

(٦) تفسير ابن كثير (٣٥٨/٣) ؛ وانظر : (تفسير روح البيان) (١٧٥/٨) ؛ فتح القدير (٢٢٦/٢) .

(٧) تفسير البيضاوي (ناصر الدين أبي سعيد : عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي) في تفسير (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) (١٦٥/٢) ؛ وانظر : (تفسير فتح القدير) (١١٤/٤) .

(٨) تفسير أبي السعود (٢٦٣/٦) .

(٩) تفسير ابن كثير (٣٥٨/٣) ؛ البداية والنهاية (١٩٠/١) .

ثانياً : وأما الأثر الثاني المروي عن السدي وعكرمة ففيه إسحاق بن بشير الكاهلي (ضعيف)[١] . وقال عنه ابن أبي حاتم وأبو زرعة : كذاب .

ثالثاً : أما عن عدم ذكره للأخوة في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧] فلأنه وصفهم بعبارة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم ، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة![٢] .

رابعاً : وأما احتجاجهم بيوم الظلة ، فإن كان هذا الدليل دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان ، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن[٣] ، ثم إن هذا لا يخالف السياق القرآني ، وما المانع أن يكون الله جمع كل ذلك عليهم . وجوابكم في كونه ذكر الرجفة في موضع والصيحة في موضع آخر هو جوابنا على كونه ذكر الظلة في موضع والرجفة والصيحة في موضع آخر . فإن قيل : إن العذاب متباين . فنعم ، وأما كونه على قوم آخرين فلا يلزم .

وأما ما قاله أصحاب القول الثالث من أن الأيكة غيضة حول مدين كان يسكنها قوم لا ينتسبون إلى شعيب ولكن أرسل لهم فلا اعتراض على أنهم قوم كانوا يسكنون معهم ، فلما كثروا ضاقت بهم المدينة فخرجوا منها ونزلوا حولهم .

روى ابن عباس – رضي الله عنهما – أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط – عليه السلام – فولدت ، فرمى الله في نسلها البركة والنماء فكثروا وفشوا[٤] ، وعلى ذلك فمساكنتهم لهم في أول الأمر لا يمنع أن يكونوا قوماً منهم يطلق عليهم اسم أصحاب مدين وأصحاب الأيكة . هذا أولاً .

وثانياً : أن شعيباً – عليه السلام – لو أرسل لأهل مدين وحدهم ثم جاءهم العذاب وانقطع دابرهم ، ثم أرسل لأصحاب الأيكة بعدهم لاتعظوا بهم لقرب العهد والمزامنة .

---

(١) المصدر السابق (٣/٣٥٨) ؛ وانظر : (الجرح والتعديل) (٢/٢١٤) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٣٥٨) ؛ وانظر : (فتح الباري) (٦/٥٥٦) .

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٣٥٨) ؛ البداية والنهاية (١/١٩٠) .

(٤) انظر : (التفسير الكبير) (١٤/١٧٦) ؛ تفسير البحر المحيط (٤/٣٤٢) ؛ تفسير روح المعاني (٨/١٧٩) جميعهم عند ذكر قول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ [الأعراف:٨٦] .

ثالثاً : أن أصحاب الأيكة لو فرض أنهم قوم آخرون غير أهل مدين فما المانع أن يرسل عليهم العذاب مرة واحدة ، فهم أهل ذنب واحد اكتسبه بعضهم من بعض .

رابعاً : في الحديث المتفق عليه « ... **وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى النّاس كافة** »(١) .

دل الحديث على أن كل الأنبياء كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة . والزعم بأن شعيباً بعث إلى قومه (مدين) وإلى غير قومه وهم (أصحاب الأيكة) يخالف هذا الدليل . وبعد البحث لم أجد أن أحداً من المحدثين أو شراح الحديث استثنى شعيباً من هذا العموم .

خامساً : ذكر المفسرون عند قوله تعالى في لوط – عليه السلام – أنه قال لقومه ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود:٨٠] .

الحديث « **ما بعث الله بعده نبياً إلا في ثَروة من قومه** »(٢) .

فالزعم بأن شعيباً بعث إلى أصحاب الأيكة وهم ليسوا قومه يخالف هذا العموم ، ويحتاج إلى دليل يحملنا على مخالفته ، ولا دليل يحملنا على ذلك .

وأما الفريق الرابع الذي زعم أن شعيباً أرسل إلى ثلاث أمم وزادوا على ذلك أصحاب الرس ، فأسهل ما يرد به عليهم أن القرآن الكريم ذكر أصحاب الرس ضمن الأقوام المكذبين مع أصحاب الأيكة في سياق واحد في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ ﴾ [ق:١٢-١٤] .

فهنا أضاف كل أمة إلى قومها ، والإضافة تقتضي المغايرة وهذا واضح في أن الآية لم تكتف بذكر أصحاب الرس بل أوردت أصحاب الأيكة مما يدل على عدم الصلة بينهما(٣) .

القول الراجح : قول من قال : إن أهل مدين وأصحاب الأيكة أمة واحدة . لما يلي :

١ – قوة أدلتهم الموافقة لظاهر القرآن .

٢ – سلامتها من المعارضة المقرونة بالأدلة .

٣ – عدم وجود نص صحيح صريح يبيّن أن أصحاب الأيكة قوم مستقلون كلية وبعث إليهم شعيب – عليه السلام – والله أعلم .

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري – كتاب التيمم – باب (١) – (١٢٦/١) برقم [٣٣٥] وطرفاه في : [٤٣٨] ، [٣١٢٢] ، ورواه مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب (٥) (٣٧٠/١) برقم [٥٢١] .

(٢) سبق تخريجه ص"٢٦٦" .

(٣) انظر : (البحر المحيط) (٤٥٧/٦) .

نعود إلى اللطائف :

ثانياً : ومن لطائف الآيات على ما ذكر سابقاً أن أصحاب الأيكة هم من أهل مدين ، وحذف الأخ في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء:١٧٧] تخفيفاً وعلى ما ذكرنا آنفاً .

٥ **ثالثاً** : جاء الأمر بإيفاء الكيل والوزن في آيات السورة بأسلوب آخر غاية في البلاغة ، حيث جمع الأمر بالإيفاء والنهي عن بخس الناس أشياءهم في ثلاث آيات بديعة الألفاظ سهلة التراكيب ، وهذا كما يقول العلماء تعميم بعد تخصيص[١] .

رابعاً : إن قيل : لم قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

١٠ [الشعراء:١٨٣] والعَثْوُ : الفساد ، فيصير المعنى : ولا تفسدوا في الأرض مفسدين فكيف ؟

فالجواب : معناه ولا تعثوا في الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بسائر المعاصي[٢] .

خامساً : مما سبق من آيات سورة (**الأعراف وهود**) أن رد قوم شعيب عليه فيه نوع من السخرية ، لكن دون تصريح أما هنا في سورة **الشعراء** فاتهموه في عقله صراحة حيث قالوا له : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء:١٨٥] سحرت كثيراً

١٥ حتى غلب على عقلك فلا حقيقة لما تدعيه[٣] .

سادساً : انفردت سورة **الشعراء** بذكر (الواو) في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء:١٨٦] فما الفرق بين حذف (الواو) في قصة صالح – عليه السلام – ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء:١٣٧] وإثباتها في قصة شعيب – عليه السلام – .

والجواب : أن الكلام عن قوم صالح ناسب أوله ، وكذلك ناسب كلام قوم

٢٠ شعيب آخره[٤] .

سابعاً : ذكرت سورة الشعراء عذاب قومه بشيء زائد عما في السور السابقة هو (الظلة) كما ذكرت الرجفة والصيحة في عذاب قوم صالح .

---

(١) انظر : (تفسير أبي السعود) (٢٦٢/٦) .

(٢) تفسير الرازي (أنموذج جليل ص"٢٥" .

(٣) انظر : (التفسير الكبير) (١٥٩/٢٤) .

(٤) انظر : (ملاك التأويل) (٨٩٥/٢-٨٩٦) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة

وفيه :

أ – نماذج من دعوة شعيب عليه السلام .

ب – ما قبل العقوبة .

البشر دائماً في حاجة إلى من يعرفهم بربهم الذي يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ، ويضر وينفع ، ويعطي ويمنع ...

فهم في حاجة إلى من يرشدهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم على هدى وبصيرة ، ويبعدهم عن كل عمىً وحيرة . تلك هي مهمة الرسل المكلفين بتبليغ ما أوحي إليهم دون تأخير أو تأجيل .

يقول ابن القيم : « فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث إلى التفصيل إلا من وجهتهم ، ولا ينال رضا الله إلا على أيديهم ، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به ، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال »[1] .

وسوف نذكر نماذج من دعوة شعيب لقومه ، وكيف حاول قدر استطاعته إبلاغ أمر الله بكل وسيلة ممكنة لهداية قومه إلى طريق الله المستقيم .

أ – نماذج من دعوة شعيب – عليه السلام – قومه :

أولاً : شعيبٌ يدعو قومه إلى عبادة الله وتوحيده .

كان قوم شعيب – عليه السلام – مشركين يعبدون الأوثان ، فدعاهم أخوهم شعيب إلى توحيد الله وعبادته مثل ما دعا إخوانه الأنبياء من قبله – نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط – ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [هود:٨٤] فلا حل لمشكلات قومه إلا بالعبودية الخالصة لله ، فإذا استطاع تعبيدهم لله فإن تلك المعاملات السيئة ستختفي تماماً عند انطباع الإيمان في قلب كل واحد منهم .

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٦٩/١) لشمس الدين أبي عبد الله : محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ، المعروف بابن القيم الجوزية ، ط مؤسسة الرسالة .

وعندما ذكرهم بذلك وبدين أجدادهم من المرسلين ما كان منهم إلا أن أبوا واستكبروا وتنكروا لرسالته إلا فئة قليلة اتبعته وآمنت بما جاءت به ، وأما الكثرة الكاثرة فأصروا على دين ءابائهم الضالين وقالوا له : ﴿ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ...﴾ [هود:٨٧] فعاد فذكرهم بأن إيمانهم بالله واليوم الآخر فلاح لهم في الدنيا والآخرة ، وسيثيبهم الله ثواباً ونعيماً لا ينفد ولا يزول ؛ بل يسبغ عليهم نعمه في الدنيا ، ويجزل لهم فضله وكرمه في الآخرة قال تعالى: ﴿ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ...﴾ [العنكبوت:٣٦] وإلاّ فإن النار تنتظرهم وسيصلونها لا محالة إن هم أصروا على ما هم فيه من الضلال والكفر .

ثانياً : شعيب يكشف لهم عن معجزة تؤيده .

قال تعالى على لسانه : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف:٨٥] .

وقال : ﴿ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا...﴾ [هود:٨٨] .

أي : قد جاءتكم معجزة شاهدة لصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه[١] .

وفي تفسير المراغي : البينة : كل ما يتبيّن به الحق فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية ، والأمم القديمة لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات[٢] .

وسميّت المعجزة بينة لأنه يتبيّن بها الحق من الباطل . وقد ذكرت في القرآن في آيات كثيرة ذكرناها سابقاً ويحسن أن نجمعها هنا .

---

(١) تفسير الكشاف (١٢٧/٢) انظر : (تفسير الخازن (٢٢٦/٢) ، ط دار الكتب العلمية) .
وقال عطاء : (موعظة) . وأنكر ذلك الزجاج وقال : لا تقبل نبوة بغير معجزة ؛ ولكن القول في شعيب إن آيته كما قال : « بينة » . إلا أن الله – جل ثناؤه – ذكر بعض آيات الأنبياء في القرآن ، وبعضهم لم يذكر آيته ، فمن لم يذكر آيته لا يقال : لا آية له . وآيات محمد ﷺ لم تذكر كلها في القرآن ولا أكثرها . (معاني القرآن وإعرابه) للزجاج أبي إسحاق : إبراهيم السري ، بتحقيق د/ عبد الجليل عبده شلبي (٣٥٣/٢) ، ط عالم الكتب . وانظر : (تفسير الكشاف (١٢٧/٢) ؛ البحر المحيط (٣٣٩/٤) ، وتفسير السمعاني (١٩٧/٢) .

(٢) تفسير المراغي (٢٠٩/٨) مجلد"٣" .

قال تعالى عن معجزة نوح - عليه السلام - : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ.. ﴾ [هود:٢٨] وحكى عن قوم هود أنهم ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:٤٦] .

ثم كذبهم بعد ذلك فقال : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ ﴾ [هود:٥٤] .

وقال عن صالح - عليه السلام - : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً... ﴾ [هود:٦٣] ثم ذكر بعدها معجزته التي أنذرهم عذاب الله بها فقال : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود:٦٤] .

أما بينة شعيب - عليه السلام - فقد قال أكثر المفسرين : إنها معجزة (ما) الله أعلم بها ، والقرآن لم يذكرها كما لم يذكر أكثر معجزات نبينا - عليه الصلاة والسلام - . ومهما يكن من أمر فإن نبي الله شعيباً له بينة أظهرت لقومه أنه مرسل من عند الله وسكوت القرآن عنها وعدم ورود نص صريح من السنة فيها يدعونا إلى عدم الخوض فيها وتفويض أمرها لله والإيمان بأن له معجزة كغيره من الأنبياء تدل على صدقه .

روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة** »[1] .

والذي يهمنا أن قومه كذبوه وأعرضوا عن هذه البينة التي أوتيها ؛ بل تمادوا في طغيانهم وزادوا من عنادهم ، ولكن شعيباً - عليه السلام - تركهم ومضى في دعوته يدعوهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر يحدوه الأمل لعل وعسى الله أن يهديهم .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٣٣٦/٣) ، برقم [٦٩٦] .

صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمدﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٣٤/١) ، برقم [١٥٢] .

ثالثاً : أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر .

كان أهل مدين يمتهنون التجارة ، فقد كان موقعهم الجغرافي يفرض ذلك ، فمدينتهم تقع على ملتقى الطرق التجارية الآتية من جنوب شبه جزيرة العرب أو القادمة من شمالها من بلاد الشام .

وكانوا يرون ألاّ مانع لديهم من ظلم الناس في تجارتهم من أن ينقصوا الكيل والميزان إذا باعوا لغيرهم ، وأن يطففوا إن هم اشتروا منهم .

وكانوا يقطعون الدنانير والدراهم الصحاح لهم ، فيتعاملون بالصحاح عداً ووزناً إضافة لبخسهم في الوزن .

قال ابن وهب[١] : قال مالك : كانوا يكسرون الدنانير والدراهم .

وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم[٢] وغيرهما ، وكسرهما ذنب عظيم ، بل عده بعض العلماء من الكبائر[٣] .

وكان الغريب إذا دخل بلادهم أخذوا دراهمه وقالوا له : هذه زيوف ، فيقطعونها ثم يشترونها بالنقصان[٤] .

مع أنهم كانوا أغنياء لا حاجة لهم في ذلك ، فقد أنعم الله عليهم بنعم كثيرة أدت إلى وفرة أرزاقهم ورخص أسعارهم[٥] ، ولا أدل من قول شعيب - عليه السلام - لهم ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ ﴾ [هود:٨٤] ولكن عمى البصيرة وعبوديتهم للمال استولت على قلوبهم حتى صار معبوداً لهم من دون الله .

فما كان من شعيب - عليه السلام - إلا أن دعاهم إلى ترك الغش وإيفاء الكيل ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، ونهاهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي ، ونهاهم عن السعي الحثيث الخبيث في تشويه دعوته ، وفي ذلك يقول الله تعالى على لسانه : ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٨٥] .

---

(١) عبدالله بن وهب المصري ، صاحب مالك ، ثقة حافظ عابد ، من التاسعة ، مات سنة سبع وتسعين ، انظر : التقريب ص"٣٢٨" ، وانظر الجرح والتعديل (١٨٩/٥) .

(٢) زيد بن أسلم مولى عمر أبوعبدالله وأبوأسامة المدني ، ثقة عالم سئل عنه الإمام أحمد وأبوزرعة فقالا : ثقة . انظر : الجرح والتعديل (٥٥٥/٣) التقريب ص"٢٢٢" .

(٣) انظر : (تفسير القرطبي) (٨٨/٩) .

(٤) تفسير المنار (٥٢٦/٨) .

(٥) انظر : (تفسير الطبري) (٤٤٣/١٥) .

قال المفسرون : إن قوم شعيب كانوا أهل كفر بالله ، وبخس للمكيال والميزان ، فأمرهم شعيب بتوحيد الله وإتمام الكيل والوزن[١] . قال الزمخشري : هو عام في كل حق ثابت لأحد ، لا يجوز هضمه[٢] .

وقال أبو حيان : « أمرهم أولاً بشيء خاص وهو : إيفاء الكيل والميزان ، ثم نهاهم عن شيء عام وهو قوله : أشياءهم »[٣] ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾ [الأعراف:٨٥] أي : لا تعملوا فيها بالمعاصي بعد أن أصلحها بالأمر بالعدل وإرسال الرسل ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾ [الأعراف:٨٥] قال الكلبي[٤] والسدي وقتادة : لا تقعدوا على طريق الناس ، تخوفون أهل الإيمان بشعيب[٥] ، وكانوا يتوعدونهم بالقتل إن لم يعطوهم أموالهم[٦] .

قال أبو هريرة عند قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف:٨٦] قال : هذا نهي عن قطع الطريق وأخذ السلب المكوس ، وكان ذلك من فعلهم ، ثم روى أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « **رأيت ليلة أسري بي خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته ، فقلت : ما هذا يا جبريل؟ قال : هذا مثل لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا** ﴿ وَلَا

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت سنة"٤٦٨" ، ط دار الكتب العلمية ، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرون (٣٢٨/٢) وانظر : (تفسير الخازن (٢٢٦/٢) ؛ تفسير ابن كثير (٣٥٨/٣) .

(٢) تفسير الزمخشري (٣٣٢/٣) والعبارة كاملة (وهو عام في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم، وفي كل ملك ألا يغصب عليه ملكه ولا يتحيف منه ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً .

(٣) تفسير أبي حيان (٣٣٩/٤) .

(٤) الكلبي : محمد بن السائب بن بشر الكلبي أبو النضر الكوفي ، النسابة المفسر ، روى عن الشعبي وجماعة . أخرج له أبو داود في المراسيل والترمذي وابن ماجه في التفسير . انظر : (طبقات المفسرين) ، للداودي (شمس الدين محمد بن علي بن أحمد) (١٤٩/٢) ، ط دار الكتب العلمية ؛ وانظر : (ميزان الاعتدال) (٥٥٦/٣) .

(٥) تفسير الوسيط للنيسابوري (٣٨٧/٢) .

(٦) تفسير ابن كثير (٢٤١/٢) .

تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:٨٦] »[1] .

والصد عن سبيل الله : من قطع الطريق المعنوي . قال ابن عباس : كانوا يجلسون في الطريق فيخبرون من يأتي عليهم أن شعيباً كذاب فلا يفتنكم عن دينكم .

﴿ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾ قال مجاهد : تتلمسون لها الزيغ . وقال الحسن : لا تستقيمون على طريق الهدى ؛ وقال الزجاج : يريد الاعوجاج والعدول عن القصد[2] .

إذاً فكانوا يبعدون الناس عن دين الله وطاعته بتهديدهم بما يضرهم إن اتبعوا شعيباً ، بل كانوا مع ذلك يطلبون لها أن تكون عوجاً بإلقاء الشبه حولها ، ويصفونها بما ينقصها ويشينها ؛ لينفروا الناس منها وتكرهها قلوبهم[3] .

نلاحظ مما سبق :

أنه حينما ينعدم الخوف من الله – تعالى – فإن حب الدنيا يشغل ذلك الحيز ،

---

(١) قال محقق الطبري الشيخ محمود شاكر : هذا الأثر مختصر من خبر طويل ذكره أبو جعفر ، وسنده : حدثنا علي بن سهل قال : حدثنا حجاج قال : حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية عن أبي هريرة أو غيره ، ثم قال : وأبو جعفر وأبو العالية ثقات جميعاً . وذكره الهيثمي مطولاً في مجمعه (٦٧/١ – ٧٢) . وخرجه السيوطي في الدر (٢٦٩/٤) ونسبه البزار وأبو يعلى وابن جرير ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل . انظر : (تفسير الطبري) (٥٥٨/١٢) .

(٢) تفسير الوسيط (٣٨٧/٢) .

(٣) تفسير القاسمي بتصرف (٢٠٨/٧) ومثل هذا يذكرنا بما كانت تفعله قريش مع النبي ﷺ وأصحابه، وإليك بعضاً من ذلك :

أخرج الإمام أحمد في مسنده (٣٤١/٤) ما نصه : حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا إبراهيم بن أبي العباس ثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد من بني الديل وكان جاهلياً قال: **رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب . فسألت عنه؟ فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ وقالوا لي: هذا عمه أبو لهب**. رواه الطبراني في الكبير (٦١/٥) ، برقم [٤٥٨٢] ، [٤٥٩] وقال الهيثمي (٢٢/٦): أحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات الرجال. وأيضاً بما كانت تفعله قريش بمن يأت مكة لقصة الطفيل بن عمرو الدوسي حيث حشى أذنه كرسفاً فرقاً أن يبلغه من قول النبي ﷺ شيئاً . انظر: (أسد الغابة في معرفة الصحابة) (٧٨/٣،٧٩) لعز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري ، ط كتاب الشعب .

فيتنافس أهل الظلم في ظلمهم ويفرط الناس حقوقهم ، ولهذا حذر الله من التطفيف في الكيل والوزن ، وأنزل سورة كاملة باسم صاحب هذا المنكر وهي سورة (المطففين) وتدعو من أولها بالويل والثبور على من فعل ذلك قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ﴾ [المطففين:١-٣] .

ونلاحظ أيضاً : إنعدام الثقة فيما بينهم ، فكيف مع من يتعاملون معه من غيرهم؟ ذلك أشد وأنكى ، لقد كونوا عصابات منهم لقطع الطريق على القوافل التجارية المارة بأرضهم مما أدى إلى انصرافهم وتحويل طريق التجارة عنهم ، وهذا العمل الإجرامي منكر يحذر منه الإسلام! .

ونلاحظ أيضاً : أنهم كانوا يشوهون سمعة شعيب – عليه السلام – وذلك بصد الناس عن دعوته ، حيث استجاب لدعوته بعضهم فصاروا للإيمان بدعوته فازدادوا كيداً وصد الناس عن دعوته ، فقعدوا في طريقه . فكان كل من يأتي إليه يتوعدونه ويصدونه قائلين : إن شعيباً كاذب فلا يفتنكم عن دينكم[1] .

ونلاحظ أيضاً : تمسك أهل الضلال بضلالهم كأنهم هم أهل الحق والهدى ، ومن خالفهم هو الضال ، وهذا هو عمى البصيرة بحق قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝ ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٧] .

رابعاً : أسلوب الترغيب والترهيب في دعوته .

هدف الداعية الأسمى هو هداية الناس وإبعادهم عن الشرك والكفر والعصيان فأنى له ذلك ؟

---

(١) تفسير الطبري (٥٥٧/١٢) .

والجواب : أنه لابد من التدرج في الدعوة ، وهذا ما سلكه نبي الله شعيب – عليه السلام – في دعوته ؛ حيث رجع بهم إلى الوراء قليلاً ليذكرهم بالحال الذي كانوا عليه من قبل من قلة في العدد فبارك في نسلهم حتى كثروا في السهل والجبل ، فكان الواجب عليهم شكر هذه النعمة ، والاعتراف بفضل من أسداها ، وإخلاص العبادة له ، واتباع أوامره وترك نواهيه من التطفيف والسعي في الأرض بالفساد ، ثم التفكر في حال من سبقهم وكيف أن الله أهلكهم بكفرهم وظلمهم وفسادهم ، فيجب أن يعتبروا بذلك[1] .

وفي ذلك كله يقول الله – عز وجل – على لسان شعيب : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:٨٦] .

ثم رغبهم مرة أخرى في الاستغفار والتوبة وترك عداوته وعدم اتخاذهم ذريعة في الإصرار على الكفر والفساد لئلا يُصيبهم ما أصاب من قبلهم .

قال تعالى على لسانه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود:٨٩-٩٠] .

أي : لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب من قبلكم من الكفار ، واستغفروا ربكم من سالف الذنوب فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة . فالله رحيم ودود لمن تاب[2] .

ثم انتقل إلى أسلوب الترهيب في صورة تشعر أنه يخاف عليهم عاقبة هذا الاستكبار والتمرد .

قال تعالى : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود:٨٤] .

أي : إني أراكم بخير وسعة في معيشتكم ورزقكم ورخص أسعاركم ، وإني أخاف عليكم سلب نعم الله منكم بتجاوزكم محارم الله لذا فإني أخاف عليكم عذاباً عاجلاً يقطع دابركم في الدنيا ولا ينجو منه أحد وعذاباً آجلاً يحيط بكم في الدار الآخرة .

---

(١) تفسير المنار (٥٣٢/٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤٧٣/٢ ، ٤٧٤) .

وأخيراً عرف أنه لا منفعة من نصحهم ولا رجاء في إيمانهم ، فقد بان ضلالهم وزاد عنادهم ، فما بقي إلا أن يقول لهم : سيروا على الطريق الذي ارتضيتموه منهجاً وأنا كذلك سائر على ما ارتضاه الله لي منهجاً ، وفي نهاية المسير ستعلمون من الخاسر فينا فانتظروا إني معكم من المنتظرين قال تعالى على لسانه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود:٩٣] .

خامساً : صبره وتحمله .

لقي شعيب – عليه السلام – من أهل مدين أصنافاً من الأذى ، وأنواعاً من الاستهزاء ، ومع ذلك كان يتلطف معهم في تبليغ دعوته ويذكرهم كل حين أنه أمين في النصح لهم ولا يريد منهم أجراً أو مصلحة تعود عليه من وراء ذلك ، إنما يريد لهم الخير والبعد عن الشر . نلمس ذلك من قول الله – تعالى – على لسانه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الشعراء:١٧٧-١٨٠]

وهذا ما قاله الأنبياء من قبل شعيب – عليه السلام – ، وجميعهم يحبون الخير لقومهم ليسعدوا في الدنيا ويفوزوا في الآخرة .

ثم نلمس من صبره وتحمله أنه كلما دعاهم ورأى منهم الصد والاستهزاء راجعهم والتمس العذر لهم أنهم ربما يرجعون إلى الحق ، وكان يقال له خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه ، ولفصاحة عبارته وجزالة موعظته[1] .

---

(١) وسنده عند الطبري (٥٦٦/١٢) حدثنا ابن حميد (محمد بن حميد الرازي) شيخ الطبري ، ثقة ، عن سلمة بن الفضل وثـقه ابن معين فيما رواه ابن أبي حاتم (١٦٨/٤) ، عن محمد بن إسحاق (صاحب السيرة) ، ثقة معروف ، فالسند إليه صحيح ، والله أعلم . وانظر : تفسير ابن أبي حاتم (١٥٢٢/٥) وسنده : أخبرنا يوسف بن عبدالأعلى قراءة أنبأنا وهب قال : سمعت مالكاً يقول : وذكره . وأخرج أيضاً من طريق محمد بن العباس مولى بني هاشم قال حدثنا عبدالرحمن بن أبي سلمة ، حدثني ابن إسحاق قال : ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة إذا ذكر شعيباً... ، انظر : (تفسير الطبري) (٥٦٧/١٢) ، وانظر : (مستدرك الحاكم) – كتاب تاريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين – ذكر شعيب النبي ﷺ وسكت عنه الذهبي في التلخيص . وفي البداية والنهاية (١٨٥/١) بسنده روى إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : كان ⇦

وانظر إلى حسن مراجعته قومه في هذه الآيـة قـال تعـالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨] وفيها عدة معان نتدبرها فيما يلي :

أولاً : الدعوة إلى أكل الرزق الحلال وترك الحرام . لما رأى منهم من أكل الحرام وعدم الاكتفاء بالرزق الحلال الطيب .

ثانياً : الدعوة إلى الالتزام بفعل الأوامر وترك النواهي في السر والعلن ، فشعيب – عليه السلام – قال لهم : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ أي : لم أكن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه كما لا أترك ما أمرتكم به[١] .

ثالثاً : مهمة شعيب والمرسلين جميعاً الإصلاح قدر استطاعتهم .

فشعيب قال لهم : ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ ﴾ أي : إنما أريد إصلاحكم جهد طاقتي ، وذلك بأن تصلحوا دنياكم بالعدل وآخرتكم بالعبادة ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ ﴾ في إصابة الحق فيما أريده ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ وإليه ﴿ أُنِيبُ ﴾ أي : أرجع فيما ينزل بي من جميع النوائب إليه[٢] .

نلاحظ مما سبق أن شعيباً – عليه السلام – كان يتلطف معهم ليوصل الحق إليهم بأحسن مقال وأطيب فعال ، حتى إنه كان يفهمهم بحسن فعله أنه لا يمكن أن يأكل الحرام ولا أن يتنازل قدر أنملة عن مبدأ طلب الرزق الحلال ، وفي هذا المسلك درس للمؤمنين عامة وللدعاة خاصة في تحري أكل الحلال والبعد كل البعد عن مشتبهات الأمور لحديث « **كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به** »[٣] .

=

رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً... ، انظر : (تفسير ابن عطية (٣٨١/٧) ، ط أمير قطر . انظر : (تفسير ابن كثير) (٤٧٤،٢٤١/٢) ، وانظر : (تفسير القرطبي) (٩٠/٩) ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (محمد بن مكرم المعروف بابن منظور) (٣١٠/١٠) .

وفي نظري أن أصحّ هذه الروايات ما ذكره ابن أبي حاتم موقوفاً على الإمام مالك بن أنس وذكره غيره من أئمة السلف كسفيان الثوري وغيره .

(١) انظر : (تفسير القرطبي) (٨٩/٩) ؛ تفسير البحر المحيط (٢٥٤/٥) ؛ تفسير ابن كثير (٤٧٣/٢) .

(٢) تفسير القرطبي (٩٠/٩) ؛ تفسير ابن كثير (٤٧٣/٢) .

(٣) ولفظه كما في صحيح الجامع الصغير للألباني (١٧٢/٤) : **كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به** ، ط المكتب الإسلامي . السحت : الحرام الذي لا يحل كسبه ، كما في النهاية لابن الأثير ⇦

ونلاحظ أيضاً : فظاظة قومه في التعامل معه بعكس ما كان يعاملهم به من لين في المجادلة والحوار فيقول لهم : (يا قوم) وهم ينادونه (يا شعيب) فرق بين الخطابين (يا قوم) تشعر بأنه يريد لهم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة فلا يجد إلا الرد العنيف والكلام النابي (يا شعيب) كأنه غريب عنهم ، وهذه الكلمة تشعر بأنهم يريدون له الشر فيقولون له مهددين : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٩١] .

سادساً : التذكير بمصير الأمم السابقة .

ذكرنا أن شعيباً – عليه السلام – ذكرهم من باب الترهيب أحوال الأمم السابقة وما حل بهم من عقاب لما عصوا أنبياءهم قال تعالى على لسانه : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:٨٩] .

هذا هو أسلوب الداعية في التذكير والوعظ بحال من سبق ؛ ليكون أبلغ في إيقاظ القلوب من غفلتها ولفت الأنظار والأفهام لعاقبة الصد والتكبر والنكران ، ثم يفتح لهم بعد ذلك – وهم في مواجهة العذاب والهلاك – ، باب المغفرة والتوبة ، ويطمعهم في رحمة الله وقربها بأرق الألفاظ وأحناها[1] قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود:٩٠] .

فبدأ بتذكيرهم بما حل بقوم نوح وما حل بهم من الغرق بعد أن كذبوا رسولهم وناصبوه العداء ، فدعا عليهم دعوة استجابها الله – تعالى – : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦] ثم انتقل بهم إلى قوم هود

= (٣٤٥/٢) ، ط دار الفكر . باب السين مع الحاء .
ورواه أحمد (٣٢١/٣) برقم [١٤٤٨١] وهو في المشكاة كتاب البيوع ، باب الكسب وطلب الحلال (٨٤٥/٢) ، برقم [٢٧٧٢] ورواه الدارمي ، كتاب الرقائق ، باب في أكل السحت (٤٠٩/٢) ، برقم [٢٧٧٦] ، ط دار الكتاب العربي .
ورواه البيهقي في شعب الإيمان ، باب في المطاعم والمشارب ، فصل في طيب المطعم والملبس (٥٦/٥ ، ٥٧) ، برقم [٥٧٥٩] ، [٥٧٦٠] ، [٥٧٦١] ، [٥٧٦٢] ، ط دار الكتب العلمية .

(١) في ظلال القرآن (١٩٢١/٤) .

وكيف أن نبيهم دعاهم فلم يستجيبوا له ، فدعا عليهم فقطع الله دابرهم بريح صرصر أهلكتهم ، ثم انتقل بهم إلى قوم صالح وكيف أنه دعاهم للتوحيد والإيمان وترك عبادة الأوثان فما كان منهم إلا أن تجبروا وطغوا وعقروا الناقة فدمرهم الله بصيحة قطعت قلوبهم ولم ينج منهم أحد .

ثم ذكرهم بأقرب قوم كانوا مجاورين لهم ، وعذابهم ظاهر لهم ، وطريقتهم معروفة لديهم وهم (قوم لوط) وكيف أن نبيهم دعاهم إلى اتباع الأوامر وترك النواهي والبعد عما كانوا يشتركون معهم من قطع الطريق والإفساد في الأرض فلم ينتهوا فأهانهم الله وأنزل بهم عقاباً لم يسبق له مثيل ، فكانوا عبرة للمعتبرين . فيا قوم هذا مصير الأمم قبلكم فانظروا ما حل بهم واعتبروا . فإن لم تفعلوا فارتقبوا مثل ما حل بهم .

سابعاً : استهزاء القوم بشعيب عليه السلام .

وجه القوم سهام غضبهم من شعيب – عليه السلام – في عبارات لاذعة وكلمات نابية ، تذكرنا بما كان المشركون يفعلونه مع رسول الله محمد ﷺ حينما يرونه يطوف أو يصلي في المسجد الحرام .

فهم يرون أن الصلاة[1] التي يصليها شعيب هي التي تأمره أن يدعوهم إلى ما دعاهم إليه ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود:٨٧] وهذه إشارة منهم إلى شركهم وتمسكهم بموروث الآباء ، ثم قالوا له : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ﴾ [هود:٨٧] وكأنهم يريدون منه عدم التدخل فيما يخصهم من مال ، فهم أحرار فيما يتصرفون فيه ، ولا علاقة بين العبادة والسلوك الشخصي

---

(١) كان شعيب – عليه السلام – كثير الصلاة . قال الحسن : لم يبعث الله نبياً إلا فرض الله عليه الصلاة والزكاة . انظر : (تفسير الثعالبي) (٢/٢١٤) وقد لاحظ القوم أنفسهم تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه ، وكيف أنها رفعتهم من مقام عبودية المال أو الجاه إلى رحاب آخر يستخدم هذا المال في طاعة ربه ومعبوده الحقيقي وهو الله – عز وجل – ثم هم لا يُرون يطففون ولا يبخسون ويفعلون كما يفعلون ، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وما من قوم اهتموا بالصلاة إلا أفلحوا وسعدوا ، وما من قوم تركوا الصلاة وتهاونوا فيها إلا خابوا وخسروا .
ومما كان من استهزائهم أنهم كانوا إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا . انظر : (الكشاف) (٢/٤١٩) وكما تقدم أنه كان كثير الصلاة حتى صارت عنده سمة بارزة يعرف بها ، ويتضح ذلك في القراءة السبعية (**أصلواتك**) انظر : (الألوسي) (١٢/١١٧) فالجمع يدل على الكثرة .

للإنسان ، فالعبادة شيء ، والمعاملات شيء آخر ، أو العقيدة شيء والأخلاق المتعلقة بالمعاملات المادية شيء آخر .

﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧] وهم يعنون عكس معناها ، فيتلطف معهم ويعرض عن تلك السخرية ، لأنه يشعر بقصورهم وجهلهم فهم كما سخروا من صلاته سخروا من شخصه فهم يعنون أنك قد تجردت من هاتين الصفتين (الحلم والرشد) فالحليم الرشيد : من يأتيهم بما يوافق أهواءهم ، وشعيب – عليه السلام – أتاهم بعكس ذلك ، أو أنهم قالوه من باب التعريض بما يعتقدونه من اتصافه بضدهما : وهو الجهالة والسفه في الرأي والغواية في الفعل قال ابن عباس رضي الله عنه يقولون إنك لست بحليم ولا رشيد[1] .

ثم انتقلوا بعدما رأوا تأثيره على من تبعه من قومهم فاتهموه بالسحر ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٦] وهذا هو شأن المعاندين المستكبرين يتبعون بعضهم بعضاً في إلقاء التهم والتهديد بالقتل أو الإخراج .

فهنا يخبر الله – تعالى – عن قوم شعيب أنهم أجابوا بمثل ما أجاب به قوم صالح نبيهم ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات:٥٣] .

مما سبق يتضح أن استهزاء القوم بشعيب – عليه السلام – لم يقتصر على ما كان يدعو إليه ، وإنما تعدوا ذلك إلى شخصه واتهموه في عقله . وهذا كما قلنا من قبل سياسة الخصم إذا لم يجد برهاناً على صحة مجادلته ، يلجأ إلى إلقاء التهم وتشويه السمعة والتهديد بالقتل أو النفي خارج البلاد . وهذا ما سنعرض إليه فيما يأتي .

---

(١) انظر : (تفسير المنار) (١٢/١٤٤) .

وقفة قبل النهاية

وفيها :

أولاً : التآمر عليه بالرجم أو النفي خارج البلاد .

لقد أيقن قوم شعيب أن السخرية لا تنفع ولاتجدي في إضعاف عزيمة شعيب ومن آمن معه للرجوع عن دينهم أو على الأقل إسكات الحق الذي ينطق به خشية أن يكثر أتباعه ويشتد جانبه وينتشر دينه ، فكان لابد من تدارس هذا الأمر وتبادل الآراء حوله ليخرجوا برأي فاصل يقطع الجدال ويشفي صدورهم من شعيب ومن آمن معه في ثورة غضب أن يرجموه ويرتاحوا منه ؛ لأنه سبب هذه الفرقة في زعمهم ، وما إن هدأ غضبهم حتى تذكروا أن وراءه قومه وعشيرته ومن آمن معه ، فلربما لو قتل استأثروا له حمية وعصبية جاهلية لا لأجل دينه وما فارق عليه قومه .

قال تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا[1] وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٩١] .

أي قالوا له : ما نفهم كثيراً من قولك ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث بعد الموت ، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله ، وأنت وحيدٌ فينا ليس لك جند ولا أعوان تقدر بها على مخالفتنا[2] .

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ أي : لولا قومك ومعزتهم علينا لقتلناك رجماً بالحجارة ، وما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع .

فرد عليهم لائماً لهم وموبخاً لهم في تركهم من هو أعز من رهطه وأعظم من

---

(١) قال سعيد بن جبير والثوري : كان ضرير البصر . والظاهر أن العزيز إنما هو صاحب موسى الذي عبر عنه القرآن (الشيخ الكبير) في قوله تعالى : ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص:٢٣] وليس بنبي ، وبينهما ثلاثمائة سنة . ووصفه بالأعمى ينافي العصمة . انظر : (تفسير القرطبي) (٩/٩١) ، وانظر : (تفسير ابن كثير) (٢/٤٧٤) .

وقال الحسن : معناه : (مهين) ، وقال علي بن عيسى : ضعيف البدن ، وقال النحاس : إن حمير تقول للأعمى ضعيفاً ، أي : قد ضعف بذهاب بصره . واخترت قول السدي لما تقدم من أن وصفه بالأعمى ينافي العصمة . والله أعلم .

(٢) تفسير القرطبي (٩/٩١) ؛ تفسير ابن كثير (٢/٤٧٤) .

عشيرته وهو الله - عز وجل - ، وكان الأولى بهم أن يُعظموا من يستحق التعظيم ، ولا يخافوا من المخلوقين ؛ لأنهم جميعاً تحت قهره وتصرفه ، وهو المحيط بجميع أعمالكم وسيجزيكم عليها .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود:٩٢] .

وهو جدالهم معه وتوعدهم إياه ، وإن رهطه هو المانع الوحيد الذي يخافونه ، فعليه أن يختار من أمرين أحلاهما عنده مُرّ : إما أن يخرج من قريتهم هو ومن آمن معه لينجو من بطشهم فلا صبر بعد اليوم فتريحنا وترتاح منا ، **والثاني** : أو تعود أنت ومن معك إلى ديننا .

قال تعالى على لسانهم : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ [الأعراف:٨٨] .

هكذا في تبجح سافر ، وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد . فصاحب الدعوة لا يملك أن يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت ، وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه . عندها صدع بالحق ، مستمسكاً بملته كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩] .

لقد كان الرد مفاصلة حقيقية تجلت فيها طبيعة الإيمان ومذاقه في نفوس أهله ، كما تجلت طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه . وكذلك نرى أن شعيباً لم يطأطيء رأسه أمام عزتهم و لم يضعُف أمام قوتهم ؛ بل أجاب بما ينبض به قلبه من إيمان فقال : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ إذ يستحيل على الإنسان أن يكون مؤمناً بأمر ما وفي إيمانه شائبة إكراه ، والرجوع أو النكوص عن عقيدة التوحيد بعد أن كلف بإيصالها إلى البشر خيانة لأمانة الله .

وهيهات للرسل – عليهم الصلاة والسلام – أن يتنازلوا عن مبدأهم الذي أرسلوا من أجله ، قال تعالى على لسانه : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ [الأعراف:٨٩] إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية بعد إذ قسم الله له الخير وكشفه له الخير وهداه إلى الحق وأنقذه من العبودية للعبيد ، إنما يؤدي شهادة كاذبة بملة الله ودينه شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت ، أو مؤداها على الأقل أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود وشرعية في السلطات وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله . فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله .. وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، و لم يرفع راية الإسلام شهادة الاعتراف براية الطغيان . ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة[1] .

ولسان حاله بعد كل هذا يقول : أبعد حلاوة الإيمان والاتصال بالرحيم الرحمن نعود إلى الطغيان . ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف:٨٩] وانظر إلى قوة التصميم في قوله : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ إلا أنه لا يتألى على الله ولا يجزم بشيء أمام قدره ومشيئته[2] ، فهو ومن آمن معه تحت تصرفه خاضعين لأمره ، فإذا أراد ولا راد لإرادته أن نعود من جديد إلى ملة القوم فهو يعلم ولا نعلم ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الأعراف:٨٩] وليس أمامنا إلا أن نتجه إلى الله – جل جلاله – ، فبه نستعين وعليه نتوكل وندعوه أن يفصل

---

(١) في ظلال القرآن (٣/١٣١٩) .

(٢) قال أبو السعود : معنى ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ...﴾ أي : ما يصح لنا أن نعود فيها في حال من الأحوال، أو في وقت من الأوقات ، إلا أن يشاء الله ، أي : إلا حال مشيئة الله تعالى ، أو وقت مشيئته تعالى لعودنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿ رَبُّنَا... ﴾ فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم مما ينبيء عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً ، وكذا قوله ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ [الأعراف:٨٩] فإن تنجيته تعالى لهم منها من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها . ثم قال القاسمي بعد ذلك في تفسيره : ليس المراد أن العود فيها في حيز الإمكان وخطر الوقوع ، بناءً على كون مشيئته تعالى كذلك ، بل بيان استحالة وقوعها ، كأنه قيل : وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وهيهات ذلك . بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له » اهـ تفسير القاسمي (٧/٢١٤،٢١٥) .

بيننا وبين قومنا بالحق ﴿ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف:٨٩] قالها شعيب بعد أن يئس من هداية قومه جميعاً وتبين له إصرارهم على الكفر ، فقد دعاهم كثيراً إلى الهدى وجادلهم بالحجج والبراهين فما رأى إلا النكوص والإعراض والجدال بالباطل والتهديد بالرجم تارة والإخراج أخرى . عندها طلب من الحكم العدل أن يحكم بينهم وينصره على الظالمين المفسدين .

طلب قوم شعيب العذاب على سبيل التحدي :

كما طلب الأولون من قوم لوط[١] وصالح[٢] وهود[٣] ونوح[٤] العذاب طلب قوم شعيب العذاب حيث قالوا : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٧] وهذا الطلب شبيه أيضاً بتحدي المشركين للرسول الكريم محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء:٩٢] وهو كما يقول سيد قطب : تحدي المستهتر الهازئ المستهين[٥] .

فما كان من شعيب – عليه السلام – إلا أن رد الأمر إلى الله – تعالى – بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الشعراء:١٨٨] أي : الله – تعالى – أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم ، وهكذا وقع كما طلبوه جزاء وفاقاً[٦] .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية (٢٩) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٧٧) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٠) .

(٤) سورة هود ، آية (٣٢) .

(٥) في ظلال القرآن (٢٦١٥/٥) .

(٦) تفسير ابن كثير (٣٥٩/٣) .

المطلب الثالث : نوع العقوبة

وفيه :

١ – عظم هول العقوبة .

٢ – نجاة شعيب ومن آمن معه .

أولاً : عظم هول العقوبة .

علمنا مما سبق أن طلب قوم شعيب العذاب ما هو إلا نوع من التحدي السافر لنبيهم شعيب ﷺ وأنه غير صادق في دعواه إن لم يستجيبوا ؛ فكان ذلك إرهاصاً قوياً لوقوع العذاب . فلم يعد هناك مجالٌ لدخول الدعوة اللينة لقلوبهم ؛ لأنهم اختاروا الضلال على الهدى والعذاب على المغفرة ، ولا يمكن أن تلين هذه القلوب القاسية إلا بعذاب أليم يستأصل شأفتها في الدنيا وخزيٌ ونارٌ في الآخرة جزاء جحودهم . فها هو شعيب – عليه السلام – تتضح أمامه النتيجة ويرى أنه لا فائدة من مخاطبة هؤلاء فقد أصبحوا صماً لا يسمعون ، وبكماً لا ينطقون ، عمياً لا يرون ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨] فاتجه إلى الله يدعوه ويستنصره ليحكم بينه وبين قومه قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف:٨٩] فاستجاب دعاءه ، وهذه هي سنة الله التي لا تتبدل في استئصال المجرمين ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥] .

والناظر في كيفية عذابهم يرى أن الآيات ذكرت صفة عذابهم بثلاثة ألفاظ : مرة بالرجفة ، وأخرى بالصيحة ، وثالثة بالظلة .

ففي سورة الأعراف قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٩١] وكذلك في سورة العنكبوت[1] .

وفي سورة هود جاء ذكر عذابهم (بالصيحة) في قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٩٤] .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية (٣٧) أولها ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ... ﴾ [العنكبوت:٣٧] . وأول آية الأعراف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ... ﴾ .

وفي سورة الشعراء يأتي ذكر عذابهم بالظلة في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٨٩] .

وقد سبق أن ذكرنا أن شعيباً - عليه السلام - أرسل إلى أهل مدين وهم أنفسهم أصحاب الأيكة وذكرنا الخلاف في ذلك وأدلة كل فريق ، وظهر بعد ذلك صواب قول من قال : إنهم أمة واحدة عذبوا جميعاً بعذاب واحد . فكيف نجمع بين الآيات ؟

والجواب :

أن الله - تعالى - جمع عليهم ذلك كله ، قال محمد بن كعب القرظي : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزعٌ شديد فَفَرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا ، هلموا أيها الناس فدخلوا جميعاً تحت الظلة فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعاً ، ثم تلا محمد بن كعب ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٨٩] هذه هي نهاية أولئك الظالمين ، لقد أصبحوا في دارهم جاثمين ميتين هلكى[١] كأنهم لم يغنوا فيها ولا ساعة واحدة ، فمن الخاسر إذاً ؟ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٢] حقاً ، إنهم هم الخاسرون في الدنيا الخاسرون في الآخرة ، وهاهو شعيب يتولى عنهم بعد هلاكهم غير آسف عليهم فقد أدى ما أمره الله به ونصح ؛ ولكن القوم لا يحبون الناصحين ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٣] فالأسى والحزن لا يكون على هؤلاء ، كأنهم ليسوا أهلاً له ، بل يجب أن يُحمد الله ويُشكر على هلاكهم[٢] .

---

(١) انظر : (تفسير ابن كثير) (٣/ ٣٥٩) ؛ الدر المنثور (١٧٥/٥) ؛ وانظر : (درة التنزيل) ص"١٣٧"، وقد اخترت ما سبق تحاشياً من كثرة النقول التي يمكن أن تزيد البحث طولاً ولموافقتها لظاهر القرآن الذي ذكر في كل سياق ما يناسبه : ففي الأعراف لما قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ ﴾ [الأعراف:٨٨] ناسب أن يذكر هنا الرجفة فرجفت بهم الأرض ولما أساؤا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي أخمدتهم ولما قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الشعراء:١٨٧] قال : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء:١٨٩] قال ابن كثير (٤٧٤/٢) بعدها : « وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً » .

(٢) انظر : (تفسير ابن كثير) (٢٤٣/٢) ؛ تفسير القاسمي (٢١٨/٧) .

نجاة شعيب ومن آمن معه

يخبر الله – تعالى – عن نجاة نبيه شعيب في هاتين الآيتين ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٣] .

٥ وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٩٤] .

أي : فتولى شعيب – عليه السلام – عن قومه بعد أن أهلكهم الله وقال موبخاً لهم : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف:٩٣] أي : قد أديت ما أرسلت به إليكم فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئت به ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٣] .

١٠

والآية الثانية تثبت أيضاً نجاته ونجاة المؤمنين معه ، وهاهي سنة الله التي لا تتبدل في نصرة أوليائه ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:١٠٣] .

وقال أيضاً : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف:١١٠] . ١٥

وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] .

وهكذا تحقق وعد الله لأوليائه وأصفيائه من خلقه « رسله وعباده المؤمنين » وهيهات هيهات أن يستوي الطائع والعاصي في ميزان الله! ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١] وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨] . ٢٠

المطلب الرابع: الدروس المستفادة من عقوبة قوم شعيب عليه السلام

أولاً : كما رأينا من قبل في أن جميع الأنبياء أول ما يدعون أقوامهم إليه هو عبادة الله وحده ونبذ الشرك والكفر ، ثم ينتقل الرسول منهم إلى إنكار المفاسد المتفشية في قومه ويبيّن لهم خطرها وفسادها وعقوبة الاستمرار عليها ، ثم يوضح لهم الطريق الأمثل للتخلص منها ، ثم الترغيب في ثواب الله وأنه خير لهم وأبقى .

والداعية الحق هو الذي يقتفي أثر الأنبياء والصالحين المصلحين فيعمل تدريجياً في إيصال الحق بأحسن مقال وأطيب فعال ، وبالمقابل التحذير من الفساد مع ملاحظة قواعد وأسس الإنكار حتى لا يضيع جهده بأسهل ما يكون ، وذلك على ضوء حديث « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** »(١) .

وهذا هو المسلك الذي سلكه شعيب - عليه السلام - في نصح قومه ، بلسانه وهذه هي المرتبة الثانية من إنكار المنكر ، ثم تراه يربط إنكاره بعدها بمعاني العقيدة الصحيحة والإيمان بالله تعالى .

ثانياً : على المصلح أو الداعية أن يراعي في سلوكه أشد المراعاة كل كلمة وتصرف يصدر منه ؛ لأن السلوك يؤثر أكثر من الكلمات ، فمهما صدر من المصلح من خطب وحكم ومواعظ بليغة تستهوي العقول فلن يكون لها الأثر الفعال في نفوس مستمعيها إذا لم يكن قائلها هو أول العاملين بمضمونها وأول المؤتمرين بأوامرها ونواهيها ، ولهذا ذم الله قوماً أمروا الناس بالبر و لم يلزموا أنفسهم به فقال : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾(٢) [البقرة:٤٤] .

إذاً فسلوك الداعية والتزامه بما يدعو له هو صمام الأمان لنجاح دعوته .

روى ابن عساكر بسنده(٣) إلى الضحاك : أن رجلاً قال لابن عباس : إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر! قال : أو بلغت ذلك ؟ قال : أرجو . قال : فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل . قال : ما هن ؟ قال : قوله

(١) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان - (٦٩/١) برقم [٤٩].
(٢) مع الأنبياء لعفيف طبارة ، وانظر : (تيسير اللطيف المنان) ص"١٧٥" .
(٣) السند : أخبرنا أبو القاسم : زاهر بن طاهر ، أنبأ أبو بكر البيهقي ، ثنا أبو سعد الزاهد ، أنبأ أبو الحسن : محمد بن عبد الله بن صبيح ، أنا أبو عبد الله : الحسين بن محمد بن عفير ، حدثنا الحجاج بن قتيبة ، ثنا بشر بن الحسين ، ثنا الزبير بن عدي ، عن الضحاك عن ابن عباس اهـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (٧٣/٢٣) ، ط دار الفكر .

عز وجل : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٤٤] هل أحكمت هذه الآية قال : لا ! قال : فالحرف الثاني قال : قوله ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢] أحكمت هذه الآية؟ قال : لا! . قال : فالحرف الثالث قال : قول العبد الصالح شعيب – عليه السلام – ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود:٨٨] أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا! قال : فابدأ بنفسك »[1] .

ثالثاً : على الدعاة خاصة والمسلمين عامة أن يتنبهوا لما يحاك ضدهم من مؤامرات وما يُعقد حولهم من المؤتمرات سواءً كان من بني جلدتهم أو من مخططات أعدائهم وأذنابهم داخل المجتمع المسلم وهم المنافقون أو ما يسمون الآن (بالعلمانيين) الذين يريدون إسكات ضوء الحق الذي ينطلق من أفواههم وترك الدعوة ضعيفة في أيدٍ لا تقدّر وزناً لها ، أو إعطائها لقوم يُبغّضون للناس شرع الله، أو على الأقل سلب خاصية جذب القارئ والسامع إليها ، وبالمقابل إشاعة الشهوات وتقليل فاعلية الحسبة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر وجعل نشاطها صورياً أكثر منه واقعياً قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٢٧] .

وما سبق ما هو إلا غيض من فيض ، وما خفي أعظم . وهذا الذي ذكرناه ما هو إلا صَدٌّ عظيمٌ عن سبيل الله الذي قال الله عنه على لسان شعيب – عليه السلام – ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف:٨٦] الآية .

رابعاً : أن العبد في حركات بدنه وتصرفاته وفي معاملاته داخل تحت كنف الشريعة ، فما أمر به فعله وما نهي عنه تركه ، ومن يزعم أنه في ماله حرٌّ له أن يتصرف فيه بما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة فهو بمنزلة من يرى أن لا فرق عنده بين الكفر والإيمان والصدق والكذب وفعل الخير والشر الكل مباح ، وهذا مذهب الإباحيين الذين هم شر الخليقة ، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا ؛ فقد أنكروا على شعيب دعوته إياهم وخاصة حين نهاهم عن المعاملات الظالمة فردوا عليه أنهم أحرار فيها يفعلون ما يشاؤون . ومثلهم من يقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقرة:٢٧٥] فمن سوى بين ذلك فقد انحرفت فطرته وعقله بعد ما انحرف في دينه[2].

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٦/٣٢٠) .

(٢) تيسير اللطيف المنان ص"١٧٥" ويقاس على ما ذكرنا ما قاله القرطبي رحمه الله تعالى (٧/٢٤٩) ⇦

نلاحظ : أن شعيباً - عليه السلام - لما قال لقومه : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾ [الأعراف:٨٥] أو قوله : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ [هود:٨٨] فهو إنما كان يريد إصلاح الحياة السياسية والاقتصادية والأخلاقية ، ويسد جميع المنافذ التي يمكن أن تتسرب منها أمور سيئة تؤدي إلى هدم ما يصلحه ، ولكن قومه لم يرقبوا فيه إلاًّ ولا ذمة ولم يأبهوا بكلامه ، بل اعتبروه كلاماً ساذجاً لا يمكن تصديقه ، فدبت التفرقة بينهم وفقدت الثقة فانتشر الفساد في الأرض وطف كيل الفسق فحق عليهم المحق قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦] .

خامساً : أن الكفار كما يعاقبون ، ويخاطبون بأصل الإسلام فكذلك بشرائعه وفروعه ؛ لأن شعيباً دعا قومه إلى التوحيد ، وإلى إيفاء المكيال والميزان ، وجعل الوعيد مرتباً على مجموع ذلك[1] .

قلت : ذكر صاحب أضواء البيان[2] أن بعض علماء الأصول استدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٧ ﴾ [فصلت:٦-٧] على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ؛ لأنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة بأنهم مشركون وأنهم كافرون بالآخرة ، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة وعدم إيتائهم الزكاة .

إذاً فهم مخاطبون بذلك (أعني : فروع الشريعة) وأنهم يعذبون على الكفر والمعاصي كما جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى مقرراً له ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤

=

قال علماؤنا : ومثلهم اليوم هؤلاء المكاسون الذين يأخذون من الناس مالا يلزمهم شرعاً من الوظائف المالية بالقهر والتجبر ، وضمنوا مالا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث ، والملاهي والمترقبون في الطريق إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود وعمل به في سائر البلاد ، وهو من أعظم الذنوب وأكبرها ، وأفحشها، فإنه غصبٌ وظلم وعسف على الناس وإذاعة للمنكر وعمل به ، ودوام عليه، وإقرار له ، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء ، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ولم يبق من الإسلام إلا اسمه ولا من الدين إلا رسمه » اهـ يقول هذا في زمانه فكيف لو رأى زماننا وما فيه من الغش والخداع والتحايل على الربا والضرائب وغيرها .

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٨٧/٢) .

(٢) أضواء البيان (١١٤/٧،١١٥) .

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ [المدثر:٤٢-٤٧] ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢] ثم بين سبب ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحاقة:٣٣-٣٦].

سادساً : أن نقص المكاييل والموازين ، من كبائر الذنوب ، وتخشى العقوبة العاجلة على من فعل ذلك ، وأن ذلك من سرقة أموال الناس ، وإذا كانت سرقتهم في المكاييل والموازين ، موجبة للوعيد ، فسرقتهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى[1] .

أما الوفاء فيها فهو الطريق إلى بناء اقتصاد إسلامي على هدي من كتاب الله – تعالى – وسنة نبيه ﷺ فضلاً عن أنه طاعة وقربة إلى الله تعالى .

سابعاً : أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم . ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشاب ، والكِبر في الفقير أقبح من الغني ، والسرقة لمن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج .

لهذا قال شعيب لقومه : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ ﴾ [هود:٨٤] أي : بنعم كثيرة ، فأي أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة[2] .

ثامناً : على العبد أن يقنع بما آتاه الله والاكتفاء بحلاله عن حرامه ، وأن يقصر نظره على الموجود عنده من غير تطلع إلى ما عند الناس[3] . ولهذا قال شعيب لقومه : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [هود:٨٦] .

إذاً القصد من ذلك هو الاقتصار على الحلال ولو كان قليلاً وعدم سؤال الناس ما في أيديهم لأن ذلك من المذلة ، ومعلوم أن النبي ﷺ نهى عن المسألة إلا لحاجة[4] .

تاسعاً : أن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات وللنصيحة لعباد الله، وقد لاحظ قوم شعيب تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه ، وكيف أنها غيرت أوضاعهم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٧/٢) .

(٢) تيسير اللطيف المنان ص"١٧٤" .

(٣) نفس المرجع .

(٤) انظر : (الاكتساب في الرزق المستطاب) لـ محمد بن الحسن الشيباني ص"٥٩،٦١" دار الكتب العلمية ، توزيع دار الباز .

وأدت بهم إلى التحرر من عبادة غير الله وربط القلب دائماً بالله ، إذاً فهي تهدف إلى صنع ضمير نقي في الإنسان فتحرك فيه مشاعر التقوى والمراقبة وتذكّره دائماً بالآخرة . فما كان من قوم شعيب إلا أن تهكموا واستهزأوا به وقالوا : ﴿ يَـٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧] .

فهم يرون أنه لا علاقة بين الصلاة والعقيدة ، ولا صلة لها بالمعاملات بين الناس ، وهذا الأمر نجده اليوم فيمن يقول : لا صلة للدين بالسلوك الشخصي ، ويتساءلون ما للإسلام والعري في الشواطيء ؟ وما للإسلام وزي المرأة في الطريق ؟ وما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ وما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ؟ وما للإسلام وهذا الذي يفعله المتحضرون ؟ فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ... ﴾؟[هود:٨٧] .

ويتساءلون **ثانياً** بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد ، فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي ؟ بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده .

فلا يذهب بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى . ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة ، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات المادية في السوق تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود !!

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض . فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد .

والشرك ألوان : منه هذا اللون الذي نعيش فيه الآن . وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان[1] .

إذاً فبإقامة الصلاة على وجهها تكمل أحوال العبد ، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية والدنيوية ، ويصبح آلة للأهواء ومنقاداً للشهوات والشبهات .

---

(١) في ظلال القرآن (١٩٢٠/٤) .

عاشراً : على العبد أن يتوكل على الله وحده ، ويكل جميع أموره لله وحده ، ويدعو الله كثيراً بأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين .

ألا ترى إلى نبي الله شعيب يقول ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا... ﴾ [الأعراف:٨٩] « وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لموليه ومسديه ولا يعجب بنفسه »[1] ألا ترى إلى قول الله على لسانه : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨] وأن يعوّد نفسه على عدم حب الظهور أمام الأضواء خشية الغرور إلا لمصلحة تهم الأمة وتقدر بقدرها ، وبشرط إحسان القصد لطلب الأجر والمثوبة من الله .

الحادي عشر : على الداعي إلى الله – تعالى – الابتعاد عن بعض المباحات أو عن المباحات جميعها إذا كان من شأنها أن يستغلها أعداء الدعوة شبهة حولهم ، فيبتعد على سبيل المثال عن شبهات أكل أعطيات الأجر على الدعوة إلى الله – تعالى – لئلا يُظن أن ذلك عوضاً عما يدعون إليه ، والابتعاد عن الوقوف على أبواب السلاطين والحكام أو الحرص على كسب مودتهم لأن فيه ما فيه ، ويتذكر قول الأنبياء جميعاً : ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٨٠].

الثاني عشر : الداعي إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك ، وانظر إلى شعيب – عليه السلام – وحسن خلقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعونه الأقوال السيئة فلا يرد عليهم بمثل ما يقولون بل يلاطفهم ويقول لهم : (يا قوم) ، وشأن من يقول ذلك أنه يحب الخير لقومه وهم يدعونه (يا شعيب) على سبيل الاستهزاء تارة وعلى سبيل التهديد أخرى ، فسبحان مقلب القلوب ومدبر الأمور ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ ﴾!![البقرة:٢٦٩] .

الثالث عشر : إن أهل الباطل يدبرون ويكيدون لأهل الحق ويفترون عليهم الكذب ويؤذونهم بأنواع الأذى ، فمرة يهددونه بالرجم وأخرى بالنفي من البلاد ، ومع ذلك يكيلون له التهم فيزعمون أنه مسحور وأنه سفيه وكذاب ، وهذا ما حصل لسيدنا شعيب – عليه السلام – وغيره من الأنبياء – عليهم السلام – فعلى سالكي سبيل الدعوة إلى الله – تعالى – أن يصبروا ويقدموا لأنفسهم العزاء بمن سلف من

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٨/٢) .

الأنبياء وغيرهم من العلماء والمصلحين الذين ابتلوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام:٣٤] .

وقال سبحانه : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت:١-٣] .

الرابع عشر : التذكير بمصير الأمم وما جرى عليهم من عذاب عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين ؛ لأن من سنن الله انتصار الحق على الباطل بعد الابتلاء والتمحيص ، فدولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة . قال تعالى : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود:٩٥] وهكذا هلك قوم شعيب غير مأسوف عليهم ، دمرهم الله فسحقاً لهم وبعداً ! . بينما بقي ذكر شعيب ومن آمن معه في الخالدين ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [هود:٩٤] الآية .

الخامس عشر : مشروعية توبيخ الظالمين بعد هلاكهم كما فعل رسول الله ﷺ بأهل القليب ، وكما فعل صالح وشعيب عليهما السلام[1] .

قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٣] يكون التوبيخ درساً لمن سلك مسلكهم من الأحياء .

(١) أيسر التفاسير (٢/٥٣) .

المبحث السادس

عقوبة قوم الرسل المذكورين في سورة يس

تمهيد :

أرسل الله رسولين في وقت واحد إلى قوم الرسل الذين أمر الله محمداً ﷺ أن يضرب لقومه مثلاً بهم وهم أصحاب القرية ، فكذبوهما ، فشد الله أزرهما برسول ثالث ، وتقدم ثلاثتهم بدعوتهم إلى عبادة الله وحده فادّعوا بشريتهم وأنهم يكذبون عليهم ، ولا يمكن أن يبعث الله بشراً إلى البشر ، فإن كانوا صادقين فلم لا يوحى إليهم مثلهم ، بل إنهم أمعنوا في الإنكار بقولهم : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾ [يس:١٥] وهذا إنكار منهم لجميع النبوات[1] ، فأرسل الله عليهم صيحة أهلكتهم .

وإليك تفصيل ذلك :

المطلب الأول : الآيات التي تحدثت عنهم .

قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا

---

(١) انظر : (تفسير ابن عطية) (٢٨٣/١٢) .

مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَاحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس:١٣-٣٠] .

في الآيات :

أولاً : مثلٌ من أمثلة الدعوة إلى الله – تعالى – تبين فيه :

١ – نفاذ جهد الدعاة إلى الله – تعالى – في إبلاغ الدعوة .

٢ – التضحية بالنفس والنفيس من أجل هداية قومهم .

٣ – رحمة الله – تعالى – بعباده إذ أرسل إليهم ثالثاً ليشد من أزرهما فكذبوه .

ثانياً : كيف قال تعالى أولاً : ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ [يس:١٤] وقال سبحانه : ثانياً : ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:١٦] .

والجواب : لأن الأول ابتداء إخبار فلا حاجة إلى التأكيد باللام ، أما الثانية فإنها جواب بعد الإنكار فاحتاجت للتأكيد[1] .

ثالثاً : في آية ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [يس:٢٠] إلى آخر الآيات عدة فوائد :

أولها : في تعلقه بما قبله وجهان :

الوجه الأول : أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن الرجل الساعي وهذا يدل على أن إنذارهم للناس بلغ أقصى المدينة .

الوجه الثاني : في ذلك تسلية لقلب النبي ﷺ وقلوب أصحابه ، وذلك أن المؤمنين يسعون إلى تصديق رسلهم وأن ما يصيبهم من الأذى قد أصاب من قبلهم فصبروا حتى نصرهم الله . مع ما في ذلك من الجزاء الأوفى لهم في الآخرة .

ثانياً : في تنكير الرجل مع أنه كان معروفاً عند الله فائدتين :

الأولى : أن يكون تعظيماً لشأنه ، أي : رجلٌ كامل الرجولة .

الثانية : أن في إتيانه إظهاراً للحق الذي جاء به المرسلون حيث آمن رجل لا معرفة لهم به ، فلا يقال : إنهم تواطئوا على مبدأ فيما بينهم .

---

(١) تفسير الرازي (أنموذج جليل) ص"٤٢٣" .

ثالثا : في كلمة (يسعى) تبصرة للمؤمنين ، وهداية لهم ، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم .

رابعا : في قول الرجل لقومه : (يا قوم) إشفاق عليهم جد إشفاق ، فإضافتهم إلى نفسه يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيرا .

٥ فإن قيل : هنا في آيات سورة يس قال هذا الرجل ﴿ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠] ، وفي سورة غافر قال مؤمن آل فرعون : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ ﴾ [غافر:٣٨] فما الفرق ؟

والجواب : أن هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته فقال : اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل ، وأوضحوا لكم السبيل .

١٠ وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مرارا فقال : اتبعوني في الإيمان بموسى وهارون – عليهما السلام – ، واعلموا أنه لو لم يكن خيرا لما اخترته لنفسي وأنتم تعلمون أني اخترته .

و لم يكن للرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى أن يقول : أنتم تعلمون اتباعي لهم .

١٥ **خامسا** : هذا الرجل جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه فقوله : (اتبعوا) نصيحة . وقوله : (المرسلين) إظهار أنه آمن .

سادسا : أنه قدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان ، لأنه كان ساعيا في النصح ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل .

سابعا : في قوله لهم ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس:٢١] في

٢٠ غاية الحسن وذلك من حيث إنه لما قال : ﴿ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠] كأنهم منعوا كونهم مرسلين ، فنزل درجة وقال : لاشك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقه وطالبون للاستقامة ، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه ، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين :

- إما مغالاة الدليل في طلب الأجرة .

٢٥ - وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق .

لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى

الحق ، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين أليسوا بمهتدين ؟ فاتبعوهم![1] .

ثامناً : في قوله تعالى : ﴿ وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [يس:٢٢] سؤال كيف أضاف الفَطْر إلى نفسه بقوله : (فطرني) وأضاف البعث إليهم بقوله : (وإليه ترجعون) مع علمه بأن الله – تعالى – فطره وفطرهم ، وسوف يبعثه ويبعثهم فهلا قال : (فطرنا وإليه نرجع) أو (فطركم وإليه ترجعون) ؟!

والجواب : أن الخلق والإيجاد نعمة من الله – تعالى – توجب الشكر ، والبعث بعد الموت وعيد وتهديد يوجب الزجر ؛ فكان إضافته النعمة إلى نفسه أظهر في الشكر ، وإضافته البعث إليهم أبلغ في الزجر[2] .

تاسعاً : في قوله تعالى : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ [يس:٢٣] إتمام لما سبق من قوله : ﴿ وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ﴾ [يس:٢٢] الدالة على وجود الإله ليتحقق معنى لا إله إلا الله .

فإن قوله : ﴿ وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ﴾ فيه إشارة إلى وجود الخالق ، وقوله : ﴿ ءَأَتَّخِذُ ﴾ فيه إشارة إلى نفي غيره[3] .

عاشراً : في قوله تعالى : ﴿ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ [يس:٢٣] لطيفة عجيبة ، وبيانها هو : أنه لما بيّن أنه يعبد الله بقوله : ﴿ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [يس:٢٢] بين أن من دونه لا تجوز عبادته ، فإن عُبدَ غير الله وجب عبادة كل شيء مشارك للمعبود الذي اتخذ غير الله ، لأن الكل محتاج مفتقر حادث ، فلو قال لا أتخذ آلهة لقيل له : ذلك يختلف إن اتخذت إلهاً غير الذي فطرك ، ويلزمك عقلاً أن تتخذ آلهة لا حصر لها ، وإن كان إلهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة[4] .

الحادي عشر : تصريح هذا العبد الصالح لهم بإيمانه يدل على شجاعته وقوة إيمانه ، ذلك أنه لم يأبه بما يصيبه منهم من أذى .

الثاني عشر : أن قومه قتلوه بعد ذلك فأدخله الله الجنة وعُذب قومه

---

(١) انظر : (التفسير الكبير) (٢٦/٥٤-٥٦) .

(٢) تفسير الرازي المسمى (بانموذج جليل) ص"٤٢٣" .

(٣) التفسير الكبير (٢٦/٥٧) .

(٤) نفس المصدر (٢٦/٥٧) .

بعده حيث قال : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ [يس:٢٨] .

قال الرازي : فيه إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على أسهل وجه ، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم[١] .

الثالث عشر : في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [يس:٢٨] يرد سؤال : لم أضاف القوم إليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قوماً لهم ، فإن الواحد يكون له قوم وهم أصحابه ، والرسول لكونه مرسلاً ؛ فإن جميع الخلق وجميع من أرسل إليهم قوماً له ؟

والجواب عن ذلك بوجهين :

أحدهما : ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة ، أُكرم أحدهما غاية الإكرام بسبب الإيمان ، وأهين الآخر غاية الإهانة بسبب الكفر ، وهذا من قوم أولئك في النسب .

ثانيهما : أن العذاب كان مختصاً بأقارب ذلك ، لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب[٢] .

الرابع عشر : وهنا يرد سؤال آخر هو : أن الله – تعالى – لم ينزل عليهم جنداً من السماء فما سبب ذلك ؟

والجواب : أن الصيحة كافية في استئصالهم .

الخامس عشر : أنه قال ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يس:٢٨] ولم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جنداً من الأرض ، فما فائدة التقييد ؟

والجواب : أن العذاب نزل عليهم من السماء ، فتبين أن النازل لم يكن جنداً لهم عظمة وإنما بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم[٣] ، فقدرته تعالى اكتفت بما يمكن أن يكون سبباً في إهلاكهم وهو الصيحة ، فكيف لو أنه سلط عليهم جنده من ملائكة السماء وجنده الموحدين من الأرض .

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/٦١) .

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٠/٦١ ، ٦٢) .

(٣) نفس المصدر .

السادس عشر : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ مع قوله : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا ﴾ ؟

والجواب : أن قوله ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ أي : ما كان ينبغي لنا أن ننزل ؛ لأن الأمر كان يتم بدون ذلك ، فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال ، أو (وما أنزلنا ، وما كنا منزلين) في مثل تلك الواقعة جندا في غير تلك الواقعة .

فإن قيل : فكيف أنزل الله جنودا في يوم بدر وفي غير ذلك ؟

والجواب : أن ذلك كان تعظيما لمحمد ﷺ ، وإلا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافية في استئصالهم[1] .

السابع عشر : في قوله تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس:٢٩] كان الأصل أن يذكر فيقول إن كان إلا صيحة فلماذا ؟

قال الزمخشري : أصله إن كان شيء إلا صيحة .

وفي لفظ (واحدة) تأكيد لكون الأمر هينا عند الله تعالى ، وفي قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ إشارة إلى سرعة الهلاك ، فإن خمودهم كان مع الصيحة وفي وقتها لم يتأخر[2] .

الثامن عشر : في قوله تعالى : ﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس:٣٠] يرد سؤال ، من المتحسر يا ترى ؟

والجواب من وجهين :

الأول : الحقيقة أنه لا متحسر ، إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة، حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب .

الثاني : المتلهفون من المسلمين والملائكة .

---

(١) التفسير الكبير (٦٢،٦١/٢٠) .

(٢) نفس المصدر (٦٢/٦١/٢٠) .

المطلب الثاني : سبب العقوبة

أ - تكذيبهم لرسل الله .

ذكر الله سبب عقوبتهم بقوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ[1] إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ ﴾ [يس:١٣-١٥] .

ب - ثم بدأوا بالتهديد والوعيد :

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس:١٨].

---

(١) قال القرطبي (١٥/١٤) : إن هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين .
قال ابن كثير (٣/ ٥٧٦،٥٧٧) : وفي ذلك نظر من وجوه :
الأول : ذكر بعض السلف أن هؤلاء الرسل المذكورين في سورة (يس) كانوا مبعوثين من قبل المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام - ، وظاهر القرآن يدل على أنهم كانوا رسل الله - عز وجل - قال الله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا... ﴾ [يس:١٤] إلى أن قالوا : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ ﴾ [يس:١٦-١٧] ولو كانوا من حواري عيسى بن مريم لقالوا عبارة تناسب ذلك .
الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، وأهل هذه القرية ذكر الله أنهم كذبوا رسله وأنهم أهلكوا بصيحة واحدة أخمدتهم .
الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح كانت بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري (الصحابي الجليل) وغير واحد من السلف أن الله - تعالى - بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، حيث ذكروا ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [القصص:٤٣] ، انظر الأثر : (تفسير ابن جرير) (١٩/٥٨٤) ، البزار برقم[٢٢٤٧] موقوفا ، [٢٢٤٨] مرفوعا وعزاه السيوطي في الدر (٥/١٢٩) إلى ابن أبي حاتم ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٨٨) رواه البزار مرفوعا وموقوفا ورجالهما رجال الصحيح .
فعلى هذا يتعين أن هذه القرية قرية أخرى غير أنطاكية ، أو تكون مدينة أخرى غير هذه المشهورة فإنه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك . لكن إن كان الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديما فكذبوهما وأهلكهم الله ثم عمرت بعد ذلك ؛ فلما كان زمن المسيح آمنوا برسله إليهم فلا يمنع هذا ، والله أعلم . انظر : (البداية والنهاية) (١/٢٢٩،٢٣٠) .

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ ﴾ أي : لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا . وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ ﴾ قال قتادة : بالحجارة ، وقال مجاهد : بالشتم ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة .

٥ ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ ﴾ [يس:١٩] أي : مردود عليكم ﴿ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾ [يس:١٩] أي : من أجل أن ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا بل أنتم قوم مسرفون .

قال الزمخشري : ﴿ تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ ﴾ [يس:١٨] تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه

١٠ وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا : ببركة هذا وبشؤم هذا ، كما حكى الله عن القبط ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾ [الأعراف:١٣١] فردوا عليهم وقالوا : ﴿ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ ﴾ [يس:١٩] وهو كفركم أو أسباب شؤمكم معكم ، وهي كفرهم ومعاصيهم[١] .

عندها قابلوهم بالتهديد ﴿ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [يس:١٨]

١٥ وهكذا أسفر الباطل عن غشمه ، وأطلق على الهداة تهديده ، وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة ، ورغى وأزبد في التعبير والتفكير ؛ ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق حتى النهاية[٢] .

قال القرطبي : هددوا الرسل بالرجم ، أي : بالقتل ، أو بالرجم بالحجارة ، أو بالتعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب[٣] .

٢٠ ومع ذلك واصلوا الوعظ والتذكير ؛ ولكن القوم كانوا غافلين بعيدين عن الاستجابة ، حتى جاءهم رجل منهم مصدق بالرسل مصرحٌ الإيمان بهم لعلهم يقتدون به ، غير آبه بما يصيبه منهم من أذى ، فماذا فعلوا به ؟

---

(١) تفسير الكشاف (٤/٩) .

(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٩٦٢) .

(٣) تفسير القرطبي (١٥/١٦) .

وقفة قبل النهاية

قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ[1] يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[2] [يس:٢٠-٢٥] .

وكان من خبر القرية التي جاءها المرسلون أن آمن رجل منهم بالمرسلين ، فحمله إيمانه على أن يأتي سريعاً من أقصى المدينة ليدعو قومه إلى الإيمان بما آمن به ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠] فهم على الحق ، وما جاءوا به هو الهدى والحق، ثم احتج عليهم بقوله ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس:٢١] أي : اتبعوهم فهم لا يسألونكم مالاً على إبلاغكم رسالة الله ، ثم إنه لا خسارة في اتباعهم لشيء من دنياكم ، بل الربح الوافر يكمن في تدينكم بالدين الحق فينتظم لكم خيرا الدنيا والآخرة ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له[3] .

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان . ولم يكن ذا منزلة في قومه من عشيرة ، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصا المدينة إلى أقصاها[4].

ثم حاول الرجل أن يتلطف معهم في الدعوة ، فأبرز كلامه معهم في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ليقبلوا منه ، فوضع قوله ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس:٢٢] فكان قوله : ومالكم لا تعبدون الذي فطركم ، يدل على ذلك قوله ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذي فطرني وإليه أرجع ، ثم ساق كلامه ذلك المساق تلطفاً منه في

---

(١) عند ابن عطية أنه رُوي عن أبي مجلز ، وكعب الأحبار ، وابن عباس : أن اسم هذا الرجل (حبيب) وكان نجاراً (٢٨٦/١٢) .

(٢) سورة يس ، آية (٢٠ - ٢٥) .

(٣) تفسير ابن كثير (٥٧٥/٣) ؛ تفسير الكشاف (١٠/٤) .

(٤) في ظلال القرآن (٢٩٦٣/٥) .

الدعوة إلى أن قال : ﴿ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾[1] [يس:٢٥] ثم قال لهم في معرض مناصحة نفسه وهو يريدهم : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس:٢٣] .

أي : إن هذه الآلهة التي تعبد من دون الله لا تملك من الأمر شيئا ، فإن الله – تعالى– لو أرادني بضر فلا كاشف له إلا هو ، فهل أتخذها آلهة أعبدها من دون الله وهذا حالها من الضعف والعجز ، إني إذا فعلت ذلك لفي ضلال مبين[2] .

يقول صاحب الظلال : « وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعفاء لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله »[3] .

وها هو الرجل بعد كل هذه المناصحة يقرر قراره الأخير في وجه قومه المكذبين المهددين المتوعدين . لأن صوت الفطرة أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب[4] ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس:٢٥] أي : فاسمعوا قولي وأطيعوني فيما أمرتكم به ونصحتكم به . وقيل : لما سمع قومه قوله أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم : ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ أي : اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي : إني آمنت بربكم واتبعتكم . ولم يكن له أحد يمنع عنه القتل .

وقال قتادة : كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . فلم يزالوا به يرجمونه وهو يقول ذلك حتى مات رجما بحجارتهم[5] .

---

(١) تفسير الكشاف (١٠/٤) .

(٢) تفسير ابن كثير (٥٧٥/٣) .

(٣) في ظلال القرآن (٢٩٦٤/٥) .

(٤) في ظلال القرآن (٢٩٦٤/٥) .

(٥) تفسير الكشاف (١٠/٤ ، ١١) ؛ تفسير ابن كثير (٥٧٥/٣) .

المطلب الثالث : نوع العقوبة

وفيه :

أولاً : مقتل الرجل المؤمن .

سياق القصة يوحي أنهم لم يمهلوه بعد جهره بكلمة الحق أن قتلوه وهو يقول ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ [يس:٢٥] لينتقل إلى الدار الآخرة وإلى العالم الآخر لينظر إلى ما ادخر الله له من كرامة وما أعد له من نزل يليق بمقام المؤمن الشجاع[1] .

قال الله تعالى : ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝ ﴾ [يس:٢٦-٢٧] .

قال ابن مسعود – رضي الله عنه – : « أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق » ، قال القرطبي[2] : أراد قوله تعالى : ﴿ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩] فلما رأى ذلك النعيم قال : ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس:٢٦] الآيات .

وهكذا لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً ، فها هو في غمرات الموت لما عاين ما عاين من كرامة الله له قال ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝ ﴾ [يس:٢٦-٢٧] .

قال ابن عباس : نصح قومه في حياته وبعد مماته فرحمه الله ورضي عنه ، لقد كان حريصاً على هداية قومه[3] .

ولكن ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس:٩٢] .

وقد شبه النبي ﷺ عروة بن مسعود الثقفي بصاحب يس هذا بما نصه « **قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي ﷺ : ابعثني إلى قومي ادعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « إني أخاف أن يقتلوك » ، فقال : لو وجدوني نائماً ما أيقظوني ، فقال له رسول الله ﷺ : « انطلق » ، فانطلق فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غداً بما يسوؤك » فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف ، إن اللات لالات ، وإن العزى لا عزى ، أسلموا تسلموا . قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه**

---

(١) انظر : (في ظلال القرآن) (٥/٢٩٦٤) .

(٢) تفسير القرطبي (١٥/٢٠) .

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٥٧٦) .

رجل فأصاب أكحله فقتله ، فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هذا مثله كمثل صاحب يس ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧ ﴾ »[1] .

وقد ذكر المفسرون روايات مختلفة في صفة قتل صاحب يس ، والذي اجتمعت فيه أنهم قتلوه ، فانتقل شهيدا إلى الدار الآخرة متمنيا لو أن قومه عرفوا مقدار الكرامة التي أعدها الله له[2] .

ثانيا : هلاك أصحاب القرية .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩ ﴾ [يس:٢٨-٢٩] .

يخبر تعالى أنه انتقم من أصحاب القرية (قوم الرجل المؤمن) غضبا منه لتكذيبهم رسله وقتل وليه ، حيث أرسل عليهم صيحة واحدة أخمدتهم .

قال الزمخشري : « والمعنى : أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ، ولم ينزل لإهلاكهم جندا من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق »[3] بل كان الأمر أيسر من ذلك .

﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ [يس:٢٨] أي : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ؛ بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم[4] ، وذلك لأنه تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض ، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة[5] قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٧١٣/٣) كتاب معرفة الصحابة ، باب ذكر عروة بن مسعود الثقفي ، برقم [٦٥٧٩،٢١٧٧] .

ورواه الطبراني في الكبير (١٤٨/١٧) ، باب من اسمه عروة ، برقم [٣٧٤] ، [٣٧٥] .

وقال الهيثمي في المجمع (٣٨٦/٩) باب ما جاء في عروة بن مسعود - رضي الله عنه - وذكر أن إسنادهما حسن .

وانظر : نص الحديث في (تفسير ابن كثير) (٥٧٦/٣) ؛ نظم الدرر (١٣/١٦) ؛ الدر المنثور (٤٩٢/٥) .

(٢) انظر : (تفسير ابن جرير) (٥٠٨/٢٠) ؛ تفسير ابن عطية (٢٨٨/١٢) ؛ الدر المنثور (٤٩١/٥) .

(٣) تفسير الكشاف (١٢/٤) .

(٤) تفسير ابن كثير (٥٧٦/٣) .

(٥) تفسير الكشاف (١٢/٤) .

ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ [يس:٢٩] أي : إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة ﴿ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ خمدوا كما تخمد النار فتعود رمادا كما قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يحور رمادا بعد إذ هو ساطع[1]

قال قتادة : فلا والله ما عاتب قومه بعد قتله إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل - عليه السلام - فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم ثم صاح بهم صيحة فإذا هم خامدون أي : أخمدت أصواتهم وسكنت حركاتهم و لم يبق منهم عين تطرف[2] .

وسبب الندامة في قوله ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ ﴾ [يس:٣٠] هو قوله ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس:٣٠] .

وأن مثل ذلك كما يقول الرازي : مثل ملك جاء رجلا في بادية فأعرفه نفسه وطلب منه أمرا هينا فكذبه ، و لم يجبه إلى ما دعاه ثم جاء بعد حين ووقف بين يديه ، وهو على سرير ملكه فعرفه ، عند ذلك يكون عنده من الندامة الشيء الكثير .

فكذلك الرسل هم ملوك ، وأعظم من ذلك إعزاز الله إياهم حيث جعلهم نوابه في الأرض كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] وما تركوا بابا إلا عرفوا أتباعهم أنهم ناصحون لهم فكذبوهم ...ثم يوم القيامة ظهرت عظمتهم عند الله لهم وعرفوهم ، عندها يكون لهم من الندامة الشديدة ما الله به عليم ، كيف لا وهم لم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزوا واستخفوا واستهانوا!![3] .

---

(١) نفس المصدر (١٢/٤) . والبيت في ديوان لبيد ص"٨٨" حرف العين ، دار صادر .

(٢) انظر : (الوسيط في تفسير القرآن المجيد) النيسابوري (علي بن أحمد الواحدي) (٥١٢/٣) ؛ تفسير البغوي (١٦/٧) ؛ تفسير ابن كثير (٥٧٦/٣) ؛ روح المعاني (٢/٢٣) ؛ وانظر : (البداية والنهاية) (٢٣١/١) .

(٣) التفسير الكبير (٦٣/٢٦) .

المطلب الرابع : الدروس المستفادة من عقوبة أصحاب القرية

أولا : الله تعالى رحيم لطيف بعباده حيث لم يترك في كتابه سبيلا لدعوة الناس إلى الإيمان الصحيح ، سواء بالأدلة والبراهين ، أو بإعمال الفكر والعقل ، أو بالتأمل والمشاهدة ، أو بضرب الأمثال ، أو بذكر القصص للعظة والعبرة .

والمراد من قصة أصحاب القرية : بيان أن النبي ﷺ أمر بإنذار المشركين من قومه ، حتى لا يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل[1] .

ثانيا : القيام بالدعوة إلى الله – تعالى – من قبل أكثر من واحد تقوية لهم ولموقفهم أمام المدعوين[2] .

فهذا موسى الكليم ﷺ طلب من الله – تعالى – مؤازرة أخيه هارون له ، فاستجاب الله له ولم ينكر عليه ذلك قال تعالى : ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص:٣٤-٣٥] .

وعلى هذا فإنه ينبغي لهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووزارات الشؤون الإسلامية وغيرهما من جماعات الدعوة والإرشاد في إرسالها للدعاة أن يختاروا من الأكفاء أكثر من واحد للدعوة في منطقة أو مكان معين يحتاج للدعوة فيه مجتمعين غير متفرقين ؛ ليكون أقوى لهم وأدعى أيضا لتقبل المدعوين[3].

ثالثا : يبعث الله الرسل من جنس المرسل إليهم عادة ، حتى لا يعتذروا ويعرضوا بحجة المغايرة ، فلو كان من غيرهم كأن يكون ملكا مثلا لاعتذروا ولقالوا : ما نستطيع أن نفعل مثل ما يفعل . وعلى هذا تكون شبهة الكافرين ببشرية الرسل في غير محلها ، وإنما الباعث عليها الاعتزاز بالنفس والاستكبار وحب التسلط[4] .

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٣٠٦/٢٢) ، دار الفكر المعاصر .

(٢) المستفاد من قصص القرآن (٥٤٥/١) .

(٣) الداعية المتجول في القرى والهجر وغيرها يرى بنفسه تقبل المدعوين للدعوة من غير محلته أكثر ممن لو كان منهم ، ولهذا يحبذ لخطباء الجمع تبادل المهمات في بعض الأحيان بقصد التنويع في المواضيع والشخصيات .

(٤) انظر : (التفسير المنير) (٣٠٦/٢٢) .

رابعا : كما عرفنا من قبل أن الله - تعالى - أرسل رسولين إلى أهل القرية فكذبوهما ، فأرسل الله إليهم رسولا ثالثا تعزيزا للرسولين ، فكذبوا الجميع ، وهذا الأسلوب من التكذيب قديم من عهد نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد ﷺ ، وآيات القرآن في ذلك كثيرة جدا .

فعلى الدعاة أن لا يعجبوا من التكذيب إذا كذبوا أو سخر منهم ومن لحاهم أو قصر ثيابهم أو إخراجهم من بلدهم أو سجنهم أو منعهم من الدعوة إلى الله ؛ بل لا يحملهم ذلك على الغضب عليهم أو رميهم بالعناد والصلف ، بل لا يحملهم الغضب على الدعاء عليهم ؛ فهذا الرجل كان يقول إلى آخر لحظة من عمره : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ثم على الدعاة مراجعة أنفسهم ، فقد يكونون قصروا في كيفية التبليغ ، إما لعدم اختيار الوقت المناسب أو الأسلوب المناسب أو غير ذلك .

خامسا : الطغاة إذا ضاقوا ذرعا بالدعاة إلى الله ؛ فإنهم يلجأون عادة إلى التهديد بالقتل وبما دونه كالسجن والتعذيب الجسدي كما رأينا من قبل من أصحاب القرية الذين قالوا لرسلهم ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس:١٨] .

فعلى الدعاة إلى الله - تعالى - أن لا يعجبوا من تلك التهديدات ، فقد فعلها إمامهم فرعون حينما قال لموسى ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩] .

وقتل الأنبياء من بني إسرائيل على أيدي أولئك الطغاة ، وكاد أن يقتل محمد ﷺ أمام بيته . فعليهم أن لا يعجبوا من تهديد الظالمين وزيف المرجفين ، بل عليهم أن يستمروا في تبليغ الدعوة ، فإن منعوا من أسلوب معين في الدعوة فعليهم الانتقال إلى أسلوب آخر ، فإن منعوا من الدعوة جهرا فليبلغوا سرا ، وإن منعوا من الدعوة في المساجد فليدعوا إلى الله في زيارتهم لبيوت مجتمعهم ومن حولهم ، وهكذا المؤمن يكون « كيس فطن » . كلما انسد باب فتح بابا ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١] .

سادسا : لا يعدم الحق في كل زمان أنصارا له ، وإن كانوا قلة ، وكان أهل الباطل كثرة . فهذا مؤمن أصحاب القرية جاء مسرعا لما سمع بخبر الرسل ، دعا قومه ونصحهم ورغبهم وأرهبهم ودعاهم إلى توحيد الله واتباع الرسل وترك عبادة غير الله ، فإن الرسل على حق وهدى ، لا يطلبون مالا ولا قرى ، وهذا دليل إخلاصهم[1] .

---

(١) انظر : (التفسير المنير) (٣٠٧/٢٢) .

وفعل هذا المؤمن يدل على أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه يدفع صاحبه إلى ما يقتضيه من دعوة وجهاد في سبيل الله بكل وسيلة من لسان ويد وقلب بمراتبها المعروفة ؛ فعلى الدعاة تعميق الإيمان في قلوب مدعويهم حتى يكونوا رسل خير لأهليهم ومجتمعهم ؛ بل ويبذلون الجهد في أن يكونوا دعاةمثلهم ينهجون نهجهم ويقتفون أثرهم بالصدع بكلمة الحق .

سابعا : الرسل يدعون إلى توحيد الله – تعالى – باللطف واللين والحكمة والموعظة الحسنة ، كما رأينا من قبل في دعوة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب – عليهم الصلاة والسلام – . وهذا مؤمن أصحاب القرية تلطف في دعوة قومه بقوله في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد قومه ﴿ وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [يس:٢٢] والدليل على ذلك قوله ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [يس:٢٢] ولو قصد نفسه لقال : الذي فطرني وإليه أرجع(١) . فعلى الدعاة استعمال هذا الأسلوب في التبليغ حين يضطر الإنسان إلى فعله ، وخاصة عند مخاطبة الطغاة مباشرة ، أو الوجهاء الذين لا يتنازلون لسماع كلمة الحق ، أو لا يستطيع أحد الوصول إليهم إلا بشق الأنفس ، وفي الحديث « **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** »(٢) .

ولماذا كل هذا التعب والنصب من الداعي إلى الله – تعالى – إلا لأنه يريد الخير للناس جميعا ، كما قال مؤمن أصحاب القرية ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس:٢٦-٢٧] أي : يعلمون بمآلي وحسن حالي ، فيؤمنوا مثل إيماني ، فيصيروا إلى مثل ما أنا فيه من نعيم . هذا هو حال المؤمن لا تلقاه إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشا كما قال قتادة(٣) .

وهذا إبراهيم – عليه السلام – يخاطب أباه بلين ولطف فيقول له : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم:٤٢-٤٥] .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (٤/١٠) .

(٢) الحديث رواه أحمد (٥/٢٥١ ، ٢٥٦) ، وابن ماجه ، رقم [٤٠١٢] ، وانظر : (الصحيحة للألباني) ، رقم [٤٩] (١/٨٠٧) .

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٥٧٦) .

وجه الدلالة من الآيات أن إبراهيم – عليه السلام – حين أراد نصح أبيه تلطف معه بالقول مع المجادلة معه برفق ولين . كما أنه كان يخاطبه بكلمة (يا أبت) في **كل مرة زيادة في التلطف ولين القول** .

ثم إنه – عليه السلام – بدأ بأقرب الناس إليه ، فعلى الدعاة أيضا أن يفهموا ذلك.

ولذا قد تجد من الدعاة من يهتم بدعوة الآخرين ، وينسى أهله وأقرب الناس إليه ، أو يراهم على المنكر فلا يحرك ساكنا ، ولاشك أن هذا من الخطأ العظيم ، فعليه أن يوازن بين الأمور في دعوة القريب والبعيد .

ثم إنه لابد من وجود صعوبات في تبليغ الدعوة سواء كان من المدعوين أنفسهم أو خصماء الدعاة أنفسهم أو من سفاهة بعض الجاهلين .

فعلى الدعاة أن لا يحملهم الغضب عليهم إلى الانتصار للنفس فيعابوا بذلك[1] .

صحيح أن هذا ثقيل على النفس في عدم الانتصار للنفس أو الرد بالمثل ؛ ولكنه لابد منه ولا سبيل غيره ، فعليه أن يحتسب .

ثم إن مهمة الداعي في بث دعوته بين الناس ، وترغيبهم فيها ، وتخليصهم من الضلال الذي هم فيه ، مهمة الطبيب الناصح الشفيق ، الذي لا تستفزه صيحات المرضى وكرههم رؤية الطبيب ، بل ولا يمنعه شتمهم له من الاستمرار في معالجتهم ؛ لأنه يعلم أن هذه الأفعال منهم هي بعض أعراض أمراضهم ، والطبيب إنما يريد معالجتهم لا الانتقام منهم[2] .

ثامنا : المعاصي والذنوب سبب لكل عقوبة .

فهؤلاء أصحاب القرية قالوا للرسل ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [يس:١٨] يعني : أن كل ما يصيبنا من بلاء فبشؤمكم ، وبسبب ما تدعون إليه يحصل لنا ما يحصل ، فرد الرسل بقولهم ﴿ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس:١٩] أي : شؤمكم بسبب كفركم ومعاصيكم .

إذا فالشؤم الحقيقي منهم هو الشرك والكفر وتكذيب الرسل ، وليس هو من شؤم المرسلين ولا بسبب تذكيرهم لهم ؛ وإنما بسبب إسرافهم في الكفر وتجاوز الحد .

---

(١) قال القرطبي – رحمه الله تعالى – في مثل هذا (٢٠/١٥) : « فيه الدلالة على وجوب كظم الغيظ والحلم والترؤف على من أدخل نفسه غمار الأشرار وأهل البغي ... – إلى أن قال – والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه . ألا ترى لمؤمن أصحاب القرية كيف تمنى الخير لقتلته » .

(٢) ملخصا من كتاب : المستفاد من القصص القرآني (٥٥١/١) .

فعلى الدعاة أن يبينوا للناس أن ما يصيب الناس من بلاءٍ وكوارث وحبس للغيث إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي ، وهذه من السنن الإلهية التي لا تختلف قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى:٣٠].

﴿ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ أي : بسبب معاصيكم ﴿ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ من ذنوبكم فلا يعاقبكم عليها[١] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [السجدة:٢١] .

قال ابن عباس وغيره : « يعني بالعذاب الأدنى : مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه ... »[٢] .

وقد بين الرسول – عليه الصلاة والسلام – أن من الذنوب من يعجل الله لفاعلها العقاب في الدنيا غير ما يبقى له من نكال وعذاب في الآخرة فقال ﷺ : « **ما ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم** » وفي رواية « **من قطيعة الرحم ، والخيانة والكذب** ... »[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب »[٤] قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى:٣٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ ﴾ [آل عمران:١٥٥] وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمَّآ

(١) تفسير ابن كثير (١٢٥/٤) ؛ تفسير الرازي (١٧٢/٢٧ ، ١٧٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤٧٠/٣ ، ٤٧١) .

(٣) رواه أحمد (٣٦/١٥ ، ٣٨) ، برقم [٢٠٣٩٠ ، ٢٠٤١٤) ؛ ورواه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب النهي عن البغي (٢٠٨/٥) ، برقم [٤٩٠٢] ؛ ورواه الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب (٥٧) (٦٦٤/٤) ، برقم [٢٥١١] ؛ ورواه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب البغي (١٤٠٨/٢) ، برقم [٤٢١١] ؛ ورواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، في كتاب البر والصلة (١٧٩/٤ ،١٨٠)، برقم [٧٢٨٩] ، [٧٢٩٠] ، وصححه الألباني ؛ انظر : (صحيح الجامع الصغير) (١٦٣/٥) ، برقم [٥٥٨٠] ؛ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ، برقم [١١٨] ، ط المكتب الإسلامي .

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص"٤١" ، ط دار المجتمع ، تحقيق د/ محمد السيد الجلنيد .

أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ [آل عمران:١٦٥] وقال : ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾ [الشورى:٤٨] .

تاسعا : المؤمن الحق يحب الهداية للناس جميعا .

فالبرغم من هذا الإيذاء والتعذيب والإهانة أحب مؤمن أصحاب القرية أن يبادر قومه إلى الإيمان بمثل ما آمن به ، ليحظوا بما حظي به من النعيم والنجاة[١].

فعلى الدعاة أن يحبوا إصابة الخير والهدى لكل أحد من مدعويهم ، وأن يحرصوا كل الحرص على ذلك ؛ فالله يحب عباده المهتدين وعباده التائبين ، والداعي يحب ما يحبه الله وليعلم بأن في حرصه على هداية الناس ثوابا كبيرا له ، ففي الحديث « **فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم** »[٢] .

العاشر : جزاء الشهداء عظيم عند الله تعالى .

أخبر الله – تعالى – عن مؤمن أصحاب القرية أنه تكلم بعد موته فقال : ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧ ﴾ [يس:٢٦-٢٧] وأخبر عن الشهداء عامة فقال : ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٧١ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١] .

فعلى الدعاة الاحتساب **أولا** في دعوتهم ثم ليعلموا أن الدعوة إلى الله جهاد في سبيل الله ، وعليهم توعية الناس بأن أجر من يقتل في سبيل الله أو يجرح في سبيل الله عظيم ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ بقوله : « **والذي نفسي بيده ، لا يكلم أحد في سبيل الله – والله أعلم بمن يكلم في سبيله – إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم، والريح ريح المسك** »[٣] .

---

(١) التفسير المنير (٣٠٨/٢٢) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر (١٣٧/٣) ، برقم [٤٢١٠] ، صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب (١٨٧٢/٤) ، برقم [٢٤٠٦].

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب من يجرح في سبيل الله (٣٠٦/٢)، برقم [٢٨٠٣] ؛ ورواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٤٩٦/٢) ، برقم [١٨٧٦] .

الحادي عشر : هلاك المكذبين لرسل الله سنة الله ثابتة لا تتغير . وذلك أن الله – تعالى – لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥] وقوله سبحانه : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ ﴾ [الملك:٨-٩] وهذا كثير في القرآن ، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة ؛ وهو المذنب الذي يعترف بذنبه كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف:٧٦] والظالم : من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه ، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال : إنه ظالم ؟

ثم إن العذاب يستحق بسببين :

أحدهما : الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها .

الثاني : العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها .

فالأول كفر إعراض ، والثاني كفر عناد ، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل[1] .

وكفر أصحاب القرية كفر إعراض وعناد ، وزادوا عليه قتل ولي الله الداعي لهم . فأهلكهم الله بالصيحة غضبا منه تعالى عليهم .

فعلى الدعاة أن يبينوا سنة الله – تعالى – التي لا تتغير في عقاب المكذبين ، والصادين عن سبيله ، ويذكروا لهم بعض القصص القرآني المبين لعاقبة المكذبين والعذاب الذي عذبوا به المشار إليه في كثير من الآيات ، وإن شاؤا فهذه آثارهم وأطلالهم باقية إلى اليوم . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝ ﴾ [غافر:٢١] .

(١) طريق الهجرتين ، ابن القيم ص"٤١٣،٤١٤" ، ط دار الكتب العلمية .